

المملكة العربية السعودية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين بالرياض
قسم التفسير



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠٧٣٤

امعان النظر في نظام الآي والسور

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

اعداد

محمد عناية الله محمد عناية الله

اشراف

فضيلة الدكتور أحمد حسن فريحات



٧٣٤

١٩٨١ - ١٤٠١ هـ



٤٧٨٩٣٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن . هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .
والصلاة والسلام على رسوله محمد سيد الأنام . المبعوث اليهم كافة بنسور
الوحي ودين الاسلام . وعلى آله وصحبه المجاهدين لرفع لواء القرآن . وعلى
كل من تمهم باحسان . وتمسك بالقرآن بإيمان وإتقان .
أما بعد :

فذلك رسالة أسميناء " امان النظر في نظام الآي والسور " .
وكفى بهذا الاسم دلالة على محتويات الرسالة وأهدافها . فقد أراد بها
كاتبها أن يجلى للناس فكرة نظام الآيات ورباطها . ويلفت الأنظار إلى
أهميتها وأبعادها .

فان هذا الموضوع - مع خطورة شأنه وجلالة قدره وعظيم نفعه - لم يحظ
بمشار ما كان يستحقه من العناية والاهتمام ؟ فمعظم المفسرين والكتّاب ،
الذين تصدوا لتفسير القرآن ، أهملوه أهمالاً ولم يلقوا اليه بالاً .

والقله القليلة منهم ، الذين خاضوا هذا البحر لم يحسنوا سياحتهم
فانهم ولجوا فيه قبل أن يقدروا الموقف ، وقبل أن يمدوا له عداه .

فمنهم من عاش هذا الموضوع ، ولكن عيشته في رحابه لم تكن عيشة راضية .
وان شئت فقل ان مارسه للموضوع لم تكن ممارسة جادة ، فانه لم يأت الهيت
من باب ، ولم يتناول الموضوع على وجهه ، بل حاول أن يفتح القفل بنفسه
فتاحه ، فجاه بتكلفات وتمسفات يصير الحلیم فيها حيران .

باحثنا لو أنه أدرك خطورة الموقف وعالج الموضوع على وجهه ، فان من ترك
لجدر ليج به العثار .

ومنهم من طرق هذا الموضوع التقاطا ، دون أن يمشه ويسهر عليه . فلما استعصى عليه أراد أن يحليه بالمساعد الأشد ، فكان في محاولته تلك ، كالتقايض على الماء ، وقد خانته فروح الأصابع أو كالذى ينبض القوس من غير أن يوترها .

ويا حبيذا لو أنه أعطى القوس باربها ولم يتعب نفسه فيما لا يعنيهها .

ومنهم من اعترف بالنظام في المواضع التي كان فيها واضحا بحيث يكاد يلمس بالراح . أمّا المواضع التي لم يكن فيها ذلك الوضوح ، وكانت بحاجة إلى تأمل وامعان ، فيقول : انه ليس هناك ارتباط ولا نظام .

فان القرآن نزل في نيف وعشرين سنة . والكتاب الذي يتسم بهذا الوصف ، لا يتصور في جميع أجزاءه الارتباط .

وهكذا كان الموضوع بين من جحد وجوده وأنكر أهميته وضرب عنه صفحا ولم يلق إليه بالا . ومن من نوه بشأته وأشاد بذكره وتحمس له وتولى برازه ولكن مع ضعف ووهن ، غير معتمد على أساس متين ولا آو إلى ركن شديد . وظل الأمر هكذا حتى قبض الله لخدمة هذا الموضوع من كان له كفوا وقام به حقا . ألا وعدو الامام الفراهسي ^(١) - رحمه الله - فقد قام - رحمه الله -

(١) هو الامام العلامة عبد الحميد الفراهسي - رحمه الله - ولد سنة ١٢٨٠ هـ في قرية فريها - قرية من قرى الهند - وتوفي في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٤٩ هـ . وكان - رحمه الله - آية من آيات الله في تضلعه من علوم القرآن . وكانت له نظرة نافذة عميقة في الأدب العربي القديم ، كما كان له باع طويل في اللغة المبرانية . فاطلع على التوراة والانجيل والصحسف الأخرى في لغتها ، وأماط اللثام عن كثير من زيغ اليهود وتحريفاتهم في كتبهم .

وكان - رحمه الله - منقطعا إلى تدبر القرآن ودراسه . وقضى فيه أكثر عمره . أراد أن ينشئ " تفسيرا يبرز فيه مناسبات الآيات ونظام السور وأسماء " بنظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان " ولكنه - رحمه الله - لم يتيسر له اكمال هذا المشروع العظيم حتى وافته المنية . خلف من آثاره خاطره ذخيرة لا تفنى وطوما لا تبلى . وأكثرها بالعربية .

(انظر ما كتبه عنه صديقه العلامة السيد سليمان الندوي في مقدمة كتابه القيم " اعان فسي أقسام القرآن ") .

بهذا العمل أتم قيام . وتماطى الموضوع بعد ما أعد له عدده وأخذ له أعيشته . فلم يدع خلقة الاستداه ولا ثمة الا ربها . فترى أفكار التي حادت سبها فريضة وكتابه التي رتبها براءته سلكي غير مخلوجة ، لا يشوبها غشيل ولا وهن ولا أمت ولا عوج .

يقول عنه الأستاذ العلامة السيد سليمان^(١) الندوى :

" والأمر الذي فاق به الأقران ، وسبق الذين برزوا لتفسير القرآن اعتناؤه بربط الآيات ونظام السور وترصيف الكلام ، فهو السابق في هذا الرهان . سلك طريقا غير معبّد ، يظنه الجاهل غريبا ، وما هو الا سنة أفاضل الصحابة وطريقة علماء التابعين ، فكل ما قاله ليس من طريق النقل بل أدى اليه اجتهادهم وتدبرهم للآيات تدبر غاشع لله وصبغ للحق ومتبع له " (٢) .

ولكن لله في خلقه شلون . فلم يزد - رحمه الله - على خطوات في هذا المجال حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وأجاب داعي الله .

فكان يتمنى كاتب هذا البحث لو تباح له الفرصة حتى يضع لبنات في هذا البناء الذي رفع قواعده هذا الامام - رحمه الله - ولملها كانت أضية صادقة ، فحظيت من الله بالقبول والاستجابة وسنحت له الفرصة حتى يحقق بعض ما يتمناه .

وبالجملة فلم يقع الاختيار على هذا الموضوع عرضا كعامة المواضيع التي تقمعت يد الطالب فجأة ، فيختارها للرسالة ويتذرع بها الى الشهادة .

(١) علم من أعلام الهند . صاحب مؤلفات قيّمة .

(٢) مقدمة " فاتحة تفسير نظام القرآن " ص : ٢

وانما كان هذا الموضوع يجول في خاطر الكاتب منذ زمن . وكان فكرة يعيشها ويتعلاها في ساعات ليله ونهاره ، حتى شاءت حكمة الله وأذنت لها بالظهور على صفحات تلك الرسالة .

فان كان الكاتب موفقاً في صنعه ، ففضل الله ومنّته . وان كان غير ذلك فلا بأس بأن تعثر صنعه تلك كهاجة في نفس يعقوب قضاها . ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وتشتمل تلك الرسالة على فاتحة وأربعة أبواب وخاتمة .

فالفاتحة ، نبّه فيها الكاتب على أهمية فكرة النظام ، وأثبت أن السدى يريد أن يستوعب القرآن ويتطلع من علوه بدون رعاية النظام فعثه كمثل راقى السطح بلا سلّم وأنى له ذلك !

ثم يأتي الباب الأول : " النظام في القرآن وما قيل فيه من نفى وإثبات " وهذا الباب يشتمل على فصلين :

- ١- فصل في تعريف فكرة النظام .
- ٢- وفصل يشتمل على تلك الآراء التي شرعها الكاتب بخصوص موضوع النظام ، سواء كانت معه أو عليه .

واستخلص الكاتب من تلك الآراء أن فكرة النظام فكرة تضافرت عليها الأدلة وأجمعت عليها الأمة . والذي أنكرها لم ينكرها مرة واحدة وانما أنكرها في بعض القرآن وأقرها في بعض .

وعبارة أخرى فهو يقرها بفهومها الضيق وينكرها بفهومها الواسع الشامل ، الذي يظهر به القرآن كله كأنه سلسلة من ذهب ، متماسكة الحلقات . أخذ بعضها بأعناق بعض .

علما بأن انكاره هذا لا يعتمد على دليل قوى أو أساس متين . وانما

أنكرها لصعوبتها ووعورة طريقها ، ولما أنه لم يهتد إلى تطبيقها أو استخراجها .
ومثل هذا الإنكار لا يخل بالاجماع .

ثم يأتي الباب الثاني : " شبهات حول النظام "

وهذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول . كل فصل يعالج شبهة من تلك
الشبهات الثلاث التي أشيرت حول موضوع النظام . وينبئ على ما فيها من الركاسة
والضعف .

ثم يأتي الباب الثالث : " مزايا تتبع النظام "

وهذا الباب يشتمل على أحد عشر فصلا . وكل فصل يتناول مزية من تلك
المزايا التي تظهر لمن يتقن هذه الفكرة . وهي إحدى عشرة :

- ١- ان تتبع النظام في دراسة القرآن يرشد إلى فحوى الكلام وملايساته ،
ومن يخفل عن نظام الآيات فقد يتمذر عليه المثور على ما ترضى إليه تلك
الآيات .
- ٢- النظام هو الدليل على صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه وكثرت
الاحتمالات .
- ٣- النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه ، كما أنه سر من أسرار
اعجازه ، فانه الذي يظهر القرآن بحرا لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه .
- ٤- النظام يجلى لنا الأمور في أكمل صورها ويكشف عن قدرها وأهميتها .
وإذا لم ننتبه لنظام الآيات فقد لا تتجلى لنا تلك الأمور ونظل غافلين
عن قدرها وأهميتها .
- ٥- النظام هو الذي يشخص معاني الآيات المكررة ، ويحدد مراميها ، لكن
الذي يخفل عن النظام يتمشث ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر .

- ٦- النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن . لكن الذي لا يهتم بالنظام ، فقد يتمدّد عليه أن يتذوق بلاغة القرآن ، أو يدرك ميزتها التي أعجزت فرسان الكلام .
- ٧- رعاية النظام تفتح على الانسان ما تقرّ به عينه ويستثير به قلبه ، وتورثه برد اليقين ، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع .
- ٨- رعاية النظام هي التي تمكن من فهم أسباب النزول . لكن الذي يغفل النظام يتحمّر في فهمها ويضعها في غير موضعها ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها .
- ٩- رعاية النظام والمحت عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات فان بها تتميز الضعاف من الصحاح ويتميز السقيم من السليم .
- ١٠- رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد في الوصول الى أصول الصحاح في القرآن . فان جملة كبيرة من الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما صرح به فريق من جلة العلماء .
- ١١- الوقوف على نظام الآيات يؤدى بالطالب الى ذروة الشوق والمحبّة واللذة ، التي قد لا يصل اليها من لا يهتم بنظامها ، فان تلك الشاعرة والشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بقدر زيادة المعرفة بحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان .
- تلك هي احدى عشرة عزية ، التي تظهر لمن يتبنى فكرة النظام . وقد بينها الكاتب وفصلها بالأمثلة . وجاء عليها بأدلة واضحة قوية .
- ثم يأتي الباب الرابع : " معالم في الطريق " .
- وهذا الباب يشتمل على تسعة فصول . وكل فصل يتناول واحداً من تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظام . وهي تسعة :

- ١- تكرار القصص مع تنوع الدلالة والهدف .
- ٢- تشابه الآيات .
- ٣- العودة على اللفظ .
- ٤- الاتحاد في الفواتح والأسماء .
- ٥- الاتحاد في اللون .
- ٦- تكرار كلمات خاصة .
- ٧- دلالة الروابط .
- ٨- تكرار الآيات .
- ٩- التشابه بين نظم آية وسورة .

ثم تجيء الخاتمة . والخاتمة عبارة عن أمنية الكاتب في خدمة هذه الفكرة ، وشفطية جوانبها المختلفة بحيث توضع لها أسس ثابتة وقواعد محكمة . ثم تطبق هذه الفكرة على كل القرآن تطبيهاً كاملاً شاملاً ، حتى يتسنى للطالب - ان أراد - أن يعدبر آيات القرآن ويصل الى نظامها الصحيح ، ويكشف تلك الكنوز التي وضعها الله في النظام ، بعيداً عن تلك التكلفات التي أساءت الى سمة تلك الفكرة وغضت من قيمتها وهبطتها عن منزلتها .

وقد تكون تلك الرسالة ماثراً دهشة واستفراب للقارىء الكريم ، فإن الكاتب لم يجمال فيها أحداً من الناس ، وإنما حاول ما استطاع أن يمرض آراءهم وأفكارهم على سبك النقد الحاضر ، فإنه رضى لنفسه منهم بالموقف الذى رضىه الامام ابن القيم لنفسه من أستاذه ، حيث قال عن شيخ الاسلام (أبى اسمعيل الهروى) - لما رأى فى كلامه اعوجاجاً - :
 " شيخ الاسلام حبيب الينا والحق أحب الينا منه " (١)

(١) الطرق الحكمة فى السياسة الشرعية ص (٦) تحقيق الدكتور محمد جميل غازى .

فانطلاقاً من هذا وجد الكاتب أليق بنفسه وأقوم أن يصدع بما يسراه
أقرب إلى الحق . وأولى بالصواب ولا يبالي بمن يتمرض للنقد ، فان فسى
النقد حياة للمعلوم وجلاءً للحقائق .

وأيضاً فان الحقّ أولى بالرعاية من الرجال كما روى عن سيدنا عليّ
-رضي الله عنه - حيث قال :

" اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال "

الا أن الكاتب حاول - جهد الامكان - أن يكون النقد طمياً وأسلوب
هادئاً ونزيه . " وما أهرى نفسي . ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ."
وأخيراً نشكر الله على أن منّ علينا باتمام هذا البحث . ووفقنا إلى أن
نخصّص جزءاً من حياتنا في ايمان النظر في نظام الآي والسور ، فقد كانت
تلك الفترة - ولا شك - أحلى فترة وأغذيها في حياتنا .

ندعو - سبحانه - أن يمدد علينا مثل تلك الفترة المباركة مرة بمسند
أخرى ، ويجعل أعمالنا وجهودنا خالصة لوجهه - جلّ وعلا - .

ثم نسأله - سبحانه وتعالى - أن يديم هذه الجامعة ويبارك فسى
أعمالها لما أنها هيأت لنا الظروف لاتمام هذا البحث الهام .

كما نسأله - تعالى - أن يحوط فضيلة المشرف على تلك الرسالة الدكتور
أحمد حسن فرحات بمنّه وكرمه ورعايته ، فان فضيلته تحوط الكاتب حيطة حسنة ،
وفتح له صدره بالحب والحنان وقام بواجهه نحو تلك الرسالة أحسن قيام . فأكرمه
الله كل اكرام . وهل جزاء الاحسان الا الاحسان .

هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين . {

بين يدي البحث

يروى أن الامام ابن المبارك - رحمه الله - كان يقول :
 " مثل الذي يطلب أمر دينه بلا اسناد كمثل الذي يرتقى السطح بلا سلم " (١)

وكذا الامام الشافعي - رحمه الله - كان يقول :
 " مثل الذي يطلب الحديث بلا اسناد كمثل حاطب ليل " (٢) وفي رواية :
 " الذي يطلب العلم بلا سند كحاطب ليل يحمل حزمة حطب ، وفيه أقمى وهو لا يدري " (٣)

فليسمح لنا القراء بأن نقول :
 مثل الذي يطلب فهم قرآنه بلا رعاية النظام كمثل الذي يرتقى السطح بلا سلم .
 وليسمعوا لنا كذلك بأن نقول :
 الذي يطلب القرآن ولا يعنى بسياق الكلام كحاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أقمى وهو لا يدري .

ولعلنا بقولنا هذا لن نتخطى الصدق ولن نتجاوز الصواب ، فان هذا هو الواقع . وهو من الواضوح بحيث لا يخفى الا على من يخفى عليه القمر الساطع .

أليست هذه الأسفار الضخام ، التي ألّفت في تفسير القرآن ، تشهد بهذا الواقع ؟

ولا بأس بأن ندع تلك الأسفار نفسها تتلق بحالها ، حتى لا يقال ، ان هذه دعوى بلا دليل ولها حجة ظاهرة .

(١) شرف أصحاب الحديث / للخطيب البغدادي / ص ٤٢ ، فتح المغيث للسغاوي ، ٤/٣

(٢) فتح المغيث للسغاوي ٥/٣ .

(٣) فيض القدير ٤٢٢/١ .

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - :

" ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب الايات " (١)

" حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله " ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب " قال حدثنا قتادة أن سليمان أمر ببناء بيت المقدس فقبل له ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد . قال فطلب ذلك فلم يقدر عليه . فقبل له ان شيطانا في البحر يقال له صخر شبه السارد قال فطلبه وكانت عين في البحر يردها في كل سبعة أيام مرة فنزح ماؤها وجعل فيها خمر فجاء يوم ورودها فاذا هو بالخمر فقال انك لشراب طيب الا أنك تصين الحليم وتزيد بين الجاهل جهلا . قال ثم رجع حتى عطش عطشا شديدا ثم أتاه فقال انك لشراب طيب الا أنك تصين الحليم وتزيد بين الجاهل جهلا قال ثم شرهها حتى غلبت على عقله قال فأرى الخاتم أو ختم به بين كنفه فذل .

قال فكان ملكه في خاتمه فأتى به سليمان فقال انا قد أمرنا ببناء هذا البيت وقيل لنا لا يسمع فيه صوت حديد قال فأتى بهيض الهدهد فجعل عليه زجاجة فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يرى بهيضه ولا يقدر عليه فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه فقطمها به حتى أفضى الى بهيضه فأخذ الماس فجعلوا يقطمون به الحجارة . فكان سليمان اذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخلها بغاتمه فانطلق يوما الى الحمام وذلك للشيطان صخر معه



بذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بمرض نسائه
الشیطان خاتمه فألقاه فی البحر فالتقته سمكة ونزع طك سليمان منه . وألقى
على الشیطان شبه سليمان قال فجاء فقعد على كرسيه وسريره وسلط على ملك
سليمن كله غير نساك .

قال فجعل يقضى بينهم وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا لقد فتن نبي
الله وكان فيهم رجل يشبهونه بمر بين الخطاب في القوة فقال والله لأجرينه
قال فقال له ، يا نبي الله وهو لا يرى الا أنه نبي الله أحدنا تصيبه الجنابة
في الليلة الباردة فيدع الفسل عمدا حتى تطلع الشمس أترى عليه بأسا قال
لا قال فبينما هو كذلك أرمين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة
فأقبل فجعل لا يستقبله حتى ولا طير الا سجد له حتى انتهى اليهم
وألقينا على كرسيه جسدا قال هو الشیطان صخر .

حدثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد قال ثنا أسباط عن السدي
في قوله ولقد فتنا سليمان قال لقد اطينا وألقينا على كرسيه جسدا قال
الشیطان حين جلس على كرسيه أرمين يوما . قال كان لسليمن مائة امرأة
وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي آثر نساك عنده وآمنهن عنده وكان
اذا اجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأتس عليه أحدا من الناس غيرها
فجاءه يوما من الأيام فقالت ان أخى بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب ان تقضى
له اذا جاءك فقال لها نعم ولم يفعل فابتلى وأعطاها خاتمه ودخل المخرج
فخرج الشیطان في صورته فقال لها ها هي الخاتم فأعطته فجاء حتى جلس على
مجلس سليمان وخرج سليمان بعد فسألها ان تعطيه خاتمه فقالت ألم تأخذ
قبل قال لا وخرج مكانه ثابها قال ومك الشیطان يحكم بين الناس أرمين
يوما قال فأنكر الناس أحكامه فاجتمع قرا بني اسرائيل وطماؤهم فجاءوا حتى
دخلوا على نساك فقالوا انا قد أنكرنا هذا فان كان سليمان فقد ذهب عقله

وأنكرنا أحكامه قال فبكى النساء عند ذلك قال فأقبلوا يحشون حتى أتوه فأهدقوا
 به ثم نشروا التوراة فقرأوا قال فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة
 والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتطمه
 حوت من حيطان البحر قال وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها حتى انتهت
 إلى صياد من صيادي البحر وهو جالغ وقد اشتدَّ جوعه فاستظمهم من
 صيدهم قال اني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعدا فشقَّه فجعل يفسل
 دمه وهو على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فقالوا بلئس
 ما صنعت حيث ضربته قال انه زعم أنه سليمان قال فأعطوه سمكتين ما قد سذر
 عندهم ولم يشغله ما كان به من الضرر حتى قام إلى شط البحر فشق بطونيهما
 فجعل يفسل فوجد خاتمه في بطن احدهما فأخذه فلبسه فردَّ الله عليه
 بهاءه وملكه وجاءت الطير حتى حامت عليه فصرف القوم أنه سليمان فقام القيس
 يعذرون ما صنعوا فقال ما أحمدكم على عذركم ولا ألوكم على ما كان منكم كان
 هذا الأمر لا بد منه قال فجاء حتى أتى ملكه فأرسل إلى الشيطان فجسَّ به
 وسخر له الريح والشياطين يومئذ ولم تكن سخرت له قبل ذلك وهو قوطه
 وهب لي ملكا لا ينهض لأحد من يمدى انك أنت الوهاب قال وحث إلى
 الشيطان فأتى به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم ألحق عليه فأقفل
 عليه بقفل وغتم عليه بخاتمه ثم أمر به فألقى في البحر فهو فيه حتى تقو
 الساعة وكان اسمه حبيق . (١)

ذكر الامام ابن جرير - رحمه الله - في تفسير تلك الآيات مثل هذه
 الروايات . ولم يعلق عليها ولو بكلمة واحدة . وهذا الوضع يدل على أنه

(١) تفسير الطبري ٨/١٠١-١٠٢

مقتنع بها كل الاقتناع ، مع أن تلك الروايات - بمحتوياتها - ليست بحيث يستسيغها أي عاقل فضلا عن ذلك الامام العلامه - رحمه الله - .

ثم يأتي بعده الامام القرطبي - رحمه الله - وهو يذكر في تفسير تلك الآيات احتمالات عديدة ، بعضها من بعض . يقول - رحمه الله - :

" قوله - تعالى - " ولقد فتنا سليمان الآية " . فتنا أي ابتلينا وعاقبنا . وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : اختصم الي سليمان - عليه السلام - فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان ، وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم ، ثم قض بينهما بالحق . فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى . وقال : سعيد بن المسيب : ان سليمان - عليه السلام - احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد ، ولا ينصف مظلوما من ظالم ، فأوحى الله - تعالى - اليه : اني لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي ، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم . وقال شهر بن حوشب ووهب بن منبه : ان سليمان - عليه السلام - سبى بنت ملك غزاه في البحر في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون ، فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه لا تنظر اليه الا شزرا ، ولا تكلمه الا نزرا ، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها وكانت في غاية من الجمال ، ثم انها سألته أن يصنع لها تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر اليه ، فأمر فصنع لها ، فمظمته وسجدت له ، وسجدت معها جواربها ، وصار صنما معبودا في داره وهو لا يعلم ، حتى مضت أرهمون ليلة ، وفشا خبره في بسنى اسرائيل وعلم به سليمان فكسره ، وهرقه ثم ذراه في البحر . وقيل : ان سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون واسمها جرادة - فيما ذكر الزمخشري - أعجب بها ، فمرض عليها الاسلام فأبت فغوّقها فقالت : اقتلني ولا أسلم ، فتزوجها وهي شركية ، فكانت تعبد صنما لها من ياقوت أرهمين يوما في خفية من سليمان ، الي أن أسلمت . فعوقب سليمان بزوال ملكه أرهمين يوما وقيل

كعب الأحيار : انه لما ظلم الخيل بالقتل سلب طكه . وقال الحسن : انه قارب بعض نساءه في شيء من حيض أو غيره . وقيل انه أمر ألا يتزوج امرأة الا من بنى اسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم فعوقب على ذلك ، والله أعلم .

قوله - تعالى - : " وألقينا على كرسيه جسدا " قيل : شيطان في قول أكثر المفسرين ، ألقى الله شبه سليمان - عليه السلام - عليه . واسمه صخر بن عمر صاحب البحر . وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس ، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد فأخذوا الماس فجعلوا يقطمون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت . قال ابن عباس : كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين . ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتمة سليمان بن داود ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه ، فجاء صغر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان أم ولد له يقال لها الأمانة ، قاله شهر وهب . وقال ابن عباس وابن جبير : اسمها جرادة فقام أرمين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب ، حتى رد الله عليه الخاتم والملك .

وقال سعيد بن المسيب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه . فأخذه الشيطان من تحته . وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ، لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطني خاتمك حتى أخبرك . فأعطاه خاتمه . فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسي سليمان ، مشبهًا بصوره ، داخلًا على نساءه ، يقضى بغير الحق ويأمر بغير الصواب " (١)

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٩٨-٢٠٠

تلك من طائفة من الروايات التي ذكرها الامام القرطبي - رحمه الله -
في تأويل تلك الآيات .

ثم يأتي بعدهما الامام ابن كثير - رحمه الله - وهو أيضا ينقل من
الروايات مطما نقلها الامام ابن جرير - رحمه الله - الا أنه يقول بعدما ينقل
تلك الروايات :

" اسناده الى ابن عباس - رضی الله عنهما - قوى . ولكن الظاهر أنه
انما تلقاه ابن عباس - رضی الله عنهما - ان صح عنه ، من أهل الكتاب . وفيهم
طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان - عليه الصلاة والسلام - فالظاهر أنهم يكذبون
عليه . ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء ، فان المشهور
عن سياهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنى لم يسئل على نساء
سليمان بل عصمهن الله - عز وجل - منه تشريفاً وتكريماً لنبیہ - عليه السلام -
وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف - رضی الله عنهم - كسعيد
ابن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين . وكلها مطلقاة من قصص أهل الكتاب .
والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب " (١)

تلك الكلمات صريحة في أن الامام ابن كثير - رحمه الله - غير مرتاح
الى تلك الروايات ، وهو يحسبها من أكاذيب أهل الكتاب ، الا أنه مع هذا
كله ، يذكرها في تفسير تلك الآيات ، كأنه لا يجد له طجاً منها الا اليها !

(١) تفسير ابن كثير ٢٦/٤

تقويم الوضع :

هذا الوضع يشعركان هو "لا" المفسرين - رحمهم الله - لا يحطون في أنفسهم صورة واضحة لمفهوم الآية . بل مثلهم في تأويل تلك الآيات كمثل رجال واقفين على مفترق الطرق . وهم لا يعرفون أى طريق يأخذون حتى يطلوا الى منزلهم .

فمنهم من يفضل أن يريح نفسه من عناء البحث عن الطريق الصحيح الموصل الى منزله ، فيعطى زمامه بيد رجل ، ولا يتأكد من كفايته للقيادة . وكان الرجل يضر له شرا . فيسقط به على طريق يعمده كل البعد عن منزله . ومنهم من تحير في أمره ، غير مستقر على رأيه ، فتارة يأخذ اليمين وأخرى يأخذ الشمال ، ومرة يمشى مع هذا وأخرى مع ذلك . فهو يقدّم رجلا ويؤخر أخرى . وأتى لشخص مثله أن يدرك الغاية !

ومنهم من يقدر خطورة الموقف ، ولكن الطريق أمامه غير واضح ، وليس معه دليل خريبت يكشف عنه ويحيل به الى سواء السبيل . فهو أيضا يعطى زمامه بيد رجل ويتبع أثره ، مع أنه يعرف أن هذا الرجل غير موفق في قيادته . وأنه سيدخله في مآهات . فهو يلازم الرجل على رغم أنفه لأنه هو نفسه لا يعرف الطريق . ولو أنه لم يرح مكانه كان خيرا له من أن يتشبت بذميل يعمده عن مقصده .

هذا هو مثل هو "لا" المفسرين الثلاثة بالترتيب . فابن جرير - رحمه الله - لم يتمب نفسه ، في البحث عن التأويل الصحيح لتلك الآيات ، أو البحث عن صحة الروايات التي اعتمد عليها في تأويلها ، كأنه لم يتذكر ما قيل قديما : " ما كل بيضاء شحمة وما كل سوداء ثمرة " . فهو نظر الى تلك الروايات بعين الاعتبار ، ورضى بها تفسيراً لتلك الآيات مع أنها كانت من وضع

الزنادقة الأعداء ، فهي أبعد من كل الحمد عن التأويل الصحيح المراد .

أما الامام القرطبي - رحمه الله - فهو متردد بين عدة روايات . ولا يدري أيها يأخذ وأيها يرفض فهو ينقل الجميع ، علماً بأن تلك الروايات كلها بمقدمة عن الصحة كل البعد . ولا تصلح لأن تذكر في حديث أو حوار فضلاً عن أن تسجل في كتب التفسير .

أما الامام ابن كثير - رحمه الله - فهو يدرك تماماً أن تلك الروايات جاءت عن طريق اليهود . وهو يذكر ذلك . ولكن مع ذلك هو يجد نفسه مضطراً الى أن يعتمد عليها في تفسير الآيات ، فانه لا يملك بدىلاً عنها .

وليس الأمر موقوفاً على هؤلاء المفسرين الثلاثة . فبقية المفسرين أيضاً لا يختلف وضعهم عن وضعهم الا من شاء الله . حتى أن الاستاذ سسييد قلب - رحمه الله - حين يصل في تفسيره الى تلك الآيات يجد نفسه مرغماً على تسجيل تلك الكلمات :

"والاشارتان الواردتان هنا من الصافنات الجهاد وهي الخيل الكريمة . وعن الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان . . ككثاهما اشارتان لم تسترح نفسى لأى تفسير أو رواية ما احتوته التفاسير والروايات عنهما . فهى اما اسرائيليات منكرة ، واما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور لطيفة الحادشين تصوراً يطمئن اليه قلبى ، فأصوره هنا وأحكه " (١)

هذا نموذج واحد ذكر على سبيل المثال . والا فله اخوان وأخوات ، يبلغ

عدها الى عشرات وعشرات .

(١) فى ظلال القرآن ٩٩/٧

والباحثون اذا وقفوا على مثل تلك المواطن فهم يتعجبون ويستغربون

أن هؤلاء المفسرين - رحمهم الله - كيف وقصوا في تلك المتاهات !

وربما يفلظون لهم القول وينحون عليهم باللوام .

ولكننا نقول : ان ما حدث كان حادثا طبيعيا . ولم يكن منه بد .

والذين وقصوا في تلك المتاهات لم يقصوا فيها عن رغبة وطواعية وانما وقصوا

فيها لأنهم لم يجدوا الطريق أمامهم واضحا . فان الموقف كان موقفا حالكا

جدا . وكان الطريق عاتما حقا .

فنحن نعذرهم ونعذر عنهم . ثم نزيد فنقول :

ان هؤلاء المفسرين - رحمهم الله - لو وضعوا أصابعهم على زر كهربائي ،

لم يكن بعيدا عنهم ، فان حركة يسيرة أوقدت أمامهم مصباحا مشرقا منيرا .

وحينئذ اتضحت أمامهم السبيل وطوى عنهم بعد الطريق ، وتطوعت لهم تلك

الآيات التي استعصت عليهم .

فلعمري ان تلك الآيات ، التي مضت معنا ، والتي تحير فيها المفسرون

وعجزوا عنها ، كانت في غاية السهولة ، لو أنهم وضعوا أصابعهم على ذلك الزر

الكهربائي . (١)

زر كهربائي :

فما هو ذلك الزر الكهربائي يا ترى ؟

(١) سنتكلم على تلك الآيات - بإذن الله - في ضوء نظامها في الفصل التاسع من الباب الثالث .

ان ذلك الزر الكهربائي هو ايمان النظر في نظام السور ورعاية الرباط
في معاني الآيات ، فان النظام هو الذي يمين سمت الكلام ، ولا يدع لأحد
سحالا حتى يصرفه عن مجراه .

والنظام هو الذي ينفي عن كلام الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين
يرجع محررين حتى أننا نملك أن نمر على الروايات التفسيرية رواية رواية، ونسندنا
نقدا في ضوء النظام ، ونفري لها غرلة ونحصها تحميما ونكشف عما دس فيها
سها خفي ودق وسها كان أرق من الشعر .

والجملة فالاهتمام بنظام الآيات يحفظ الباحث من جميع أنواع الزيغ
والانحراف في تأويل الآيات . ويجمله على بيئة من ربه ونور من أمره . فلا
يخدع بالباطل ، وان جاء في ثوب فاخر يعجب النفس ويهر الأبهار كما نسرى
الدكتور احمد أمين - مثلا - مفدوعا بالروايات الموضوعة المكذوبة في التفسير مع
علمه بأنها موضوعة مكذوبة . فهو يقول « وليس ما يقول - :

مقال خاطيء لأحمد أمين :

" على أن هذا التفسير الموضوع - والحق يقال - لا يخلو من قيمته
الملمية ، فلم يكن الوضع مجرد قول يلقي على عواهنه . انما هو في كثير من
الأحيان نتيجة اجتهاد علمي قيم . والشئ الذي لا قيمة له فقط هو اسناده
الى عليّ وابن عباس " (١)

فلتة للشيخ الذهبي :

وزاد الطين بلة أن الدكتور محمد حسين الذهبي أيضا تأثر بفكرته الخاطئة . وضّم صوته الى صوته ، وصوت أرفع منه ، حيث يقول :

" ثم ان هذا التفسير الموضوع ، لو نظرنا اليه من ناحيته الذاتية ، بصرف النظر عن ناحيته الاسنادية ، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمة العلمية ، لأنه مهما كثر الوضع في التفسير فان الوضع ينصبّ على الرواية نفسها ، أما التفسير في حدّ ذاته ، فليس دائما أمرا خياليا بعيدا عن الآية . وانما هو - في كثير من الأحيان - نتيجة اجتهاد علمي له قيمة ، فمثلا من يضع فسي التفسير شيئا وينسبه الى عليّ أو الى ابن عباس ، لا يضمه علي أنه مجرد قول يلقيه على عواهنه . وانما هو رأي له واجتهاد منه في تفسير الآية ، بناء على تفكيره الشخصي وكثيرا ما يكون صحيحا . غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجاً وقبولاً فنسبه الى من نسبه اليه من الصحابة . ثم ان هذا التفسير المنسوب الى عليّ أو الى ابن عباس لم يفقد شيئا من قيمة العلمية غالبا . وانما الشيء الذي لا قيمة له فيه هو نسبه الى عليّ أو ابن عباس فالموضوع من التفسير - والحق يقال - لم يكن مجرد خيال أو وهم خلق خلقا ، بل له أساس ما يهّم الناظر في التفسير درسه وحته ، وله قيمة ذاتية ، وان لم يكن له قيمته الاسنادية " (١) .

هذا ما كتبه الشيخ الذهبي - رحمه الله - فالى الله المشتكى .

وان تعجب فعجب قلبه . ان هذه الروايات المكمية - التي ونسبها لـ
 لرسول الله - وصحبه الا لاطفاً نور القرآن - لها قيمتها العلمية !!! ولها قيمتها
 الذاتية !!!

هكذا يلتبس الحق بالباطل ، اذا اراد الانسان أن يخوض في بحر
 التفسير غافلا عن نظام الآيات ورباط معانيها .

وكم نتعجب لبراعة أعدائنا ولهاقتهم ان فطنوا لهذه الناحية فركزوا اعتمادهم
 على تسمية نظام الآيات . وجاءوا بكمية كبيرة من الروايات التي تفكك هذا النظام
 وتقلبه اربا اربا ، حتى ينغلق على الناس فهم القرآن ، وحتى يلتبس عليهم
 الأسر ، ويصعب عليهم التمييز بين الحق والباطل .

لفتة موفقة للامام الفراهي :

رحم الله الامام الفراهي ، وألبسه ثوب رضوانه ، ان انتبه لقيمة هذا
 العلم وأهميته فأشار بذكره ونوه بشرفه ، حيث يقول :

" المقصود في هذه الفصول أن معرفة النظام من الضرورات لعلما الأمة ،
 حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا ، فانهم ان لم يفهموه واختلفوا فيه كيف
 يرشدون الناس ؟ بل يشهد ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين .

قد رأينا ذلك في أهل الكتاب فانهم زاغوا عنه مع دعواهم بأنهم حافظوا
 عليه فكانوا كما قال الله - تعالى - فيهم :
 " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم "

وكما قال المسيح - عليه السلام - في علماء اليهود : " العميان قادة العميان "
 وقد نرى أنهم أقروا بذلك واشتغلوا بالملوم التي هي وسائل الى فهمه
 وأكثروا في تفسير الكتاب ، ولم يتركوا من هذه الملوم ما ظنوه نافعا لهذا
 المطلب الأسنى .

ومع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف . تكثر بهم الآراء فان فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام . وانه لهو السبيل الوحيد الى فهمه " (١)
ويقول - رحمه الله - :

" المسترفون بوجود التناسب جعلوا التناسب علما شريفا ولكن لم يجعلوه جزءا عظيما من فهم القرآن . ولذلك بقي شروكا لاشكاله . وأما نحن فنقول : ان فهم القرآن محول اليه . والوجه الكثير في التأويل ، وعدم الاعتماد على تأويل صحيح انما نشأ من عدم المعرفة بالنظام ، فانه هو المعتمد في صحيح التأويل ورفع الشكوك والحيرة . " (٢)

تلك هي كلمات سريرة أردنا من خلالها أن نقرب الى الأذمة ان موضوع فكرة النظام وأردنا أن ننبه على قيمتها وأهميتها من ناحية فهم القرآن . والان نريد أن ندخل في صلب الموضوع بعد ما كنا نحوم حوله . ونود أن نقطى جوانبه ونرسم معالمه بعد أن أدركنا فضله واتضح لنا شرفه . راجين من الله - سبحانه وتعالى - أن يرزقنا التوفيق والسداد ويحفظنا من الهيمان في كل وار ، أو تأويل الآيات بغير ما أراد .

(١) دلائل النظام ص ١٠

(٢) دلائل النظام ص ٧٥

الباب الأول :

النظام في القرآن وما قيل فيه من نفي وإثبات

فان السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد ، يتعلق آخره بأوله — وأوله بآخره ، ويتراعى بجملته الى غرض واحد ، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة . وانه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية .^(١)

ويزيده الامام الفراهي وضوحا فيقول :

" مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة . ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتى قبلها أو بعدها على (بعدما)^(٢) كما قد منا في نظم الآيات بعضها مع بعض فكما أن الآيات ربما تكون كالجمل الممتضة ، فكذلك قد تكون السور كالجمل الممتضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كه كلاما واحدا ذا مناسبة وترتيب في أجزاءه من الأول الى الآخر .

وانا ظهر النظام في القرآن ، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مشخصة ، فان معانى الكلام اذا ارتبط بعضها ببعض وجمرت الى عود واحد ، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذ لا يكون الا وله صورة مشخصة . فانا نظرت الى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والاتقان والوضوح " .^(٣)

الرباط والمناسبة :

هذا هو مفهوم النظام في القرآن . وقد يسميه الملماء " الرباط " أو " المناسبة " . وهذا خلاف في اللفظ والمعنى واحد ، فان الرباط ما ربط به^(٤) كما أن النظام ما ينظم به . وكذلك المناسبة تعنى المشاكلة وهي مأخوذة من النسب ، وهو القرابة .^(٥)

- (١) انظر الموافقات للامام الشاطبي ٣/٤١٣ . والنبأ العظيم للشيخ دراز ١٥٩/١٠٠ .
- (٢) يريد الفراهي بقوله أن تكون السورة مرتبطة بأوى سورة بعدها أو قبلها ولا يشترط أن تكون مرتبطة بما قبلها أو بعدها مباشرة .
- (٣) دلائل النظام ص ٧٥ ، مع تصرف يسير في بعض الكلمات .
- (٤) القاموس المحيط ٢/٣٧٤ .
- (٥) القاموس المحيط ١/١٣٦-١٣٧ .

الفصل الأول

ما هو النظام ؟

قال الفيروز آبادي :

النظم : التأليف وضم شيء إلى شيء آخر . ونظم اللؤلؤ ينظمه نظاما ، ونظمه : ألفه وجمعه في سلك ، فانتظم وتنظم ، والنظام : كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه ج نظم^(١) .
ومنه قول لبيد :

- وتضي* في وجه الظلام منيرة * كجمانة البحري سل نظامها^(٢)
وقالت الغنساء* ترش أخاها صغرا :
ألا ما لعينيك لا تهجسج * تهكى لو أن البكا* ينفج
كأن جمانا هوى مرسللا * دموعهما أوهما أسرع
تهدر وانبت منه النظام * فانسل من سلكه أجمع^(٣)

النظام في القرآن :

هذا هو النظام ومدلوله في لغة العرب . ويقرب منه النظام في مصطلح علماء القرآن ، فانهم يقصدون به ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني^(٤) .

(١) القاموس المحيط ٤/ ١٨٢ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ١٣٣ . تضي* : يعني بقرة وحشية ، افترس السبع ولدها ، فهي تطوف وراءها في حيرة وتبحث عنها . منيرة : مضيئة . نظامها : سلكها . شبه البقرة في قلقها ولمعانها في وجه الظلام بالجمانة التي سل سلكها فطفقت تتهدر وتنتشر . وتلك من التشبيهات التي يؤخذ الانسان بروعتها ولا يكاد يصفها .

(٣) ديوان الغنساء ٩٢ . بكى الميت : بكاه ورثاه . الجمان : اللؤلؤ انبت : انقطع . تهدر : نزل . أي ما لعينيك ! فأنت لا تتامين وتجهسد بين في البكا* ، مع أن البكا* لا يجدى شيئا ولا يرد فائنا ، وباليته فعل ! ثم تصف بكاءها فتقول : تجرى دموع الصينين ، وهي تشبه في تفرقها وسرعة انحدارها جمانا انقطع سلكه فهوى مرسللا بل عيناها - في سلكها الدموع - أسرع من ذاك الجمان في هويه !

(٤) انظر البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٦ .

قال الامام الزركشى - رحمه الله - :

" المناسبة فى اللغة المقاربة . وفلان يناسب فلانا ، أى يقرب منه ويشاكره ،
ومنه النسب ، الذى هو القريب المتصل ، كالأخوين وابن العم ونحوه . وان كانا
متناسبين بمعنى رابط بينهما ، وهو القرابة . ومنه المناسبة فى العلة فى باب
القياس : الوصف المقارب للحكم ، لأنه اذا حصلت مقارنته له ظن عند وجود ذلك
الوصف وجود الحكم ، ولهذا قيل : المناسبة أمر معقول اذا عرض على العقول
تلقته بالقبول . وكذلك المناسبة فى فواتح الآى وخواتمها ، ومرجعها - والله
أعلم - الى معنى ما رابط بينهما : عام أو خاص ، عقى أو حسى أو خيالى وغير
ذلك من أنواع العلاقات . أو التلازم الذهنى ، كالسبب والمسبب ، والمصلحة
والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه ، أو التلازم الخارجى كالمرتب على ترتيب
الوجود الواقع فى باب الخبر .

وفائدته جمل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط
ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء " (١)

وبذلك يظهر أن النظام والرباط والمناسبة شىء واحد ، والكل يدل على
معنى متقارب . وقول أن نظرك جوانب أخرى من الموضوع نود أن نستعرض أقوال
المعلماء ، ونطلع على مواقف المفسرين واتجاهاتهم فى ذلك .

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/٣٥ ، ٣٦ .

الفصل الثاني

أقوال العلماء واتجاهاتهم في موضوع النظام

مسلم بن يسار :

روى عن مسلم بن يسار - رحمه الله - أنه قال :

" إذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده " (١)

الملاية الزمخشري :

وقال الملاية الزمخشري - رحمه الله - في فاتحة تفسيره :

" الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ، ونزله بحسب المصالح

منجما . وجعله بالتحديد مفتتحة وبالاستمارة مختتمة " (٢)

الامام الرازي :

وقال الامام الرازي - رحمه الله - :

" ان أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط " (٣)

وقال - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - : " آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه "

الآية (٤)

" ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن

كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ،

ولعل الذين قالوا : انه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك ، الا أني رأيت جمهور

المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير متنبهين لهذه الأسرار ، وليس الأمر

في هذا الباب الا كما قيل :

- (١) عمدة التفسير لابن كثير ٤٨ / ١ .
- (٢) الكشاف عن حقائق التنزيل ٣ / ١ - ٥ .
- (٣) البرهان في علوم القرآن ٣٦ / ١ .
- (٤) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

والنجم تستصغر الأبصار صورته * فالذنب للطرف لا للنجم في الصفر^(١)
 وقال - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - : " ولو جعلناه قرآنا أعجما لقالوا
 لولا فصلت آياته " الآية^(٢) .

" نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعمت قالوا لولا نزل القرآن
 بلغة المصم ، فنزلت هذه الآية . وعندى أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم
 على القرآن لأنه يقتضى ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض . وانه يوجب
 أعظم أنواع الطمن . فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطمن ادعاء كونه كتابا منظما
 فضلا عن ادعاء كونه معجزا ؟ بل الحق عندى أن هذه السورة من أولها السى
 آخرها كلام واحد . " وأفاض القول في تفسير السورة ثم قال :
 " كل من أنصف ولم يتمسك علم أنا اذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذى ذكرناه
 صارت هذه السورة من أولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد
 فيكون هذا التفسير أولى ما ذكره " .^(٣)

الشيخ الزطكانى :

وقال الشيخ كمال الدين الزطكانى في بعض دروسه بعدما ذكر مناسبة افتتاح
 سورة الاسراء بالتسبيح وسورة الكهف بالتحميد ، قال :
 " واذ ثبت هذا بالنسبة الى السور ، فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض
 بل عند التأمل يظهر القرآن كله كالكلمة الواحدة " .^(٤)

(١) التفسير الكبير ٧/ ١٢٨ .

(٢) سورة فصلت آية : ٤٤ .

(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٣ .

(٤) هو كمال الدين الزطكانى الشافعى ، صاحب كتاب البرهان في اعجاز

القرآن توفي سنة ٧٢٧ هـ (وانظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٧٦) .

(٥) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٩ .

أبو بكر بن الصري :

وقال القاضي أبو بكر بن الصري :

ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة الممانسي ،
 منتظمة المبانى علم عظيم ، لم يتعرض له الا عالم واحد ، هل فيه سورة البقرة
 ثم فتح الله - عز وجل - لنا فيه ، فلما لم نجد له حيلة ، ورأينا الخلق بأوصاف
 البظلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه اليه . " (١)

الشهرابانى :

وقال الشيخ ابو الحسن الشهرابانى :

" أول من أظهر بيغداد علم المناسبة ، ولم تكن سمعناه من غيره هو الشيخ
 الامام أبو بكر النهساورى ، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب . وكان يقسول
 على الكرسى اذا قرئ عليه الآية : لم جعلت هذه الآية الى جنب هذه ؟ وما الحكمة
 فى جعل هذه السورة الى جنب هذه السورة . وكان يزرى على علماء بغداد
 لعدم علمهم بالمناسبة " . (٢)

ولى الله الطوى :

وقال الامام الزركشى : قال بعض مشائنا المحققين (٣) :

" قد وهم من قال : لا يطلب للى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة .
 وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا ، فالمصحف
 كالصحف الكريمة على وفق ما فى الكتاب المكون ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف .

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣٦/١ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٣٦/١ .

(٣) هو الماروف ولى الله محمد بن أحمد الطوى الصنظوطى الشافعى . نذكر ذلك
 فى كلام مفرد على قوله - تعالى - : " وهو الذى جعلكم خلائف الأرض " و " نريد
 أن نن على الذين استضعفوا فى الأرض " (انظر نظم الدرر للامام البقاعى :
 ٩٠٨/١) .

وحافظ القرآن العظيم لو استفتى في أحكام متعددة أو ناظر فيها ، أو أملاها
 لذكر آية كل حكم على ما سئل . وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ، ولا كما
 نزل مفرقا ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة . ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه
 الباهر فانه " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " .

قال : " والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة
 لما قبلها ، أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم
 جم . وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له " (١) .
الامام الزركشى :

وقال الامام الزركشى - رحمه الله - :

ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سبق له ، وان غالف أصل
 الوضع اللفوي لثبوت التبعوز . ولهذا ترى صاحب " الكشاف " يجعل الذي سبق
 له الكلام معتمدا ، حتى كأن غيره مطروح " (٢) .
الامام البقاعي :

وقال الامام البقاعي - رحمه الله - :

" فعلم مناسبات القرآن علم تصرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر
 البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال فلهذا
 كان هذا العلم في غاية النفاة . وكانت نسبتته من علم التفسير نسبة علم البيان
 من النحو .

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٧ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣١٧ .

وقال - رحمه الله - :

" المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف ، بديعة الرصف ، عالية الأمر ، عظيمة القدر ، مباحة لمعاني الكلام على أنها منها أخذت ، فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله وغطاه وجلاه وبينه غاية البيان وأخفاه . وكذلك أيضا يوقف على الحق من معاني آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب " .

وقال - رحمه الله - :

" وه يتبين لك أسرار القصص المكررات ، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمضى أدهى فى تلك السورة ، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذى سيقست له فى السورة السابقة . ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتفسيرت النظم بالتأخير والتقديم والابجاز والتطويل ، مع أنها لا يخالف شي * من ذلك أصل المعنى الذى تكونت به القصة . وعلى قدر غموض تلك المناسبات بان وضوحها بمسند انكشافها " . (١)

الامام الشاطبى :

وقال الامام الشاطبى - رحمه الله - :

" فاعتبار جهة النظم - مثلا - فى السورة لا يتم به فائدة الا بعد استيفسا * جميعها بالنظر ، فالاعتصا ر على بعضها فيد غير مفيد غاية المقصود ، كما أن الاقتصار على بعض الآية فى استفادة حكم ما لا يفيد الا بعد كمال النظر فى جميعها .

فسورة البقرة - مثلا - كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها منها ما هو كالمقدمات والتسمييدات بين يدي الأمر المطلوب ومنها ما هو كالمؤكد والتميم ، ومنها ما هو المقصود فى الانزال . وذلك تقسيم الأحكام على تفاصيل الأبواب ، ومنها الخواتم المائدة على ما قبلها بالتأكد والتثبيت وما أشبه ذلك " . (٢)

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١/٦ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .
(٢) الموافقات فى أصول الشريعة ٤١٥/٣ . المسألة الثالثة عشر .

وقال - رحمه الله - :

" وهل للقرآن مأخذ في النظر على أن جميع سوره كلام واحد ؟
ثم قال : " فيصح في الاعتبار أن يكون واحدا بالمعنى المتقدم أى يتوقف فهم بعضه
على بعض بوجه ما ، وذلك أنه يبين بعضه بعضا ، حتى أن كثيرا منه لا يفهم
معناه حق الفهم الا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى . ولأن كل منصوص عليه فيه
من أنواع الضروريات - مثلا - مقيد بالحاجيات . فاذا كان كذلك فبعضه متوقف
على البعض في الفهم . فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد . فالقرآن كله
كلام واحد بهذا الاعتبار " (١)

الامام ابن القيم :

وقال الامام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - :

" وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة أو الفطبة بعضها ببعض
من أوله الى آخره . ولهذا قيل غير الكلام السبوك السبوك ، الذى يأخذ بعضه
برقاب بعض . والقرآن المنظوم آياته كلها كذلك فاعرفه " (٢)

الامام عبد الحميد الفراهي :

وقال الامام عبد الحميد الفراهي - رحمه الله - :

" انى رأيت جبل اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات ، فانه
لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سبوا
(كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) وجعلنا معتصمين بحبل كسابه
كما قال : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وكيف الخلاص من التفرق الأصل
وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتا في ظنونهم وهو بحمد الله متين (لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد) فيؤوله كل فريق حسب ظنه

(١) الموافقات في أصول الشريعة ٣ / ٢٠٤ المسألة الثالثة عشر .

(٢) كتاب الفوائد ص : ٢٢٤ .

ويحرف طريق الكلام عن متنه وبالنظام يتبين سمت الكلام فينفى عن آيات الله أهواء
 المبتدعين وانتحال المبطلين وزين المحرفين (الذين يحرفون الكلم عن مواضعه)
 والذين يظنون كلام الله عما بين يديه وما خلفه ويضمون اليه ما يوجب هوى نفوسهم .
 وقال - رحمه الله - :

" انه لا ينفى أن نظم الكلام جزء منه ، فان تركته ذهب بضم معناه ، فان
 للتركيب معنى زائدا على معنى الأجزاء . فلا شك أن من عرّم فهم النظام فقد
 عرّم حظا وافرا من معنى الكلام . ويوشك أن يشبهه حاله حال من قبله من أهل
 الكتاب كما أخبر الله - تعالى - عنهم : " فانسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم
 المداوة والبغضاء الى يوم القيامة " وأعاف أن تكون هذه المداوة والبغضاء ،
 التي تراها في المسلمين ، من هذا النسيان ، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون
 عن اختلافهم . وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول ، لأننا اذا اختلفنا في معانى
 كلامه اختلفت أهواءنا وصرنا مثل أهل الكتاب . غير أن رجاءهم كان بهذا
 النبي ، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم . وأما نحن فليس لنا الا هذا الكتاب
 المحفوظ " . (١)

الشيخ دراز :

ويقول فضيلة الشيخ محمد عبد الله دراز - رحمه الله - :

" ها أنت ذا قد عرفت نهج التأليف الانساني في صنعة البيان وغير البيان .
 ورأيت بعد ما بينه وبين نهج التأليف في نجوم القرآن . وعرفت ماذا كان يجب
 أن يحدث في النظم القرآني من جراء هذا النهج العجيب في أسباب ثلاثة (٢)
 من شأنها ألا يستقيم بها الكلام طبع ولا يلتئم له معها شمل .

(١) فاتحة تفسير نظام القرآن ص : ٣ - ٤ .

(٢) عناصر معنوية مختلفة ، ظروف زمانية منفصلة ، أوضاع تأليفية عجلية ومشتتة .

فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تتال شيئاً ممن
استقامة النظم في السور المؤلفة على هذا النهج ؟
أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم
سورة منها مطمعاً لطامع ، بله مغزاً لفامز ، لكان لهم معه شأن غير شأنهم ،
وهم هم .

وأما البلغاء من بعدهم فمازلنا نسممهم يضررون الأمثال في جودة السبب
واحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن الى فن .

وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأى يد وضع
بنيانه ؟ وعلى أى عين صنع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله (قرآنا عربيا غير ذى
عوج) . اعمد الى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها
في القرآن ، فهي جمهرته - وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين :
كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقست
أركانها وتمازقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولها لأخرها ؟ ..
وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبتة في نظام معانيها أو معانيها ما تعرف به أكانت
هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى . ولسوف تحسب أن السبع
الطوال (١) من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة . حتى يعد ذلك التاريخ
أنها كلها أو جلها (٢) قد نزلت نجوماً . أو لتقولن انها ان كانت بعد تنزيلها

(١) وإذا كانت هذه السور على طولها وكثرة نجومها لا يبدو عليها انفصال النظم
فما ظنك بما دونها الى سور المفصل حيث جرى التجسيم حتى في بعض القصار
منها كالضحى ، واقراً ، والمعون ، التي نزلت كل واحدة منها مفرقة
على نجمين .

(٢) هذا الترديد ناظر الى اختلاف المفسرين في سورة الأنعام . ومذهب الجمهور
أنها نزلت جملة واحدة . وقد روى الطبراني وغيره ذلك عن ابن عباس موقوفاً
عليه . وروى عن أبي بن كعب مرفوعاً بسند فيه ضعف . على أنه لو صح ما ذهب
اليه الجمهور في هذه السورة لكانت من جملة الشواهد على اتحاد طريقته
النظم في المنجيات وغيرها ، لأن نظام الانتقال بين المعاني في سورة
الأنعام مثله في السور المتفق على تجسيمها سواً .

قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع ، كشل بنيان كان قائما على قواعده فلما أريد نقله بصورته الى غير مكانه قدرت أبعاد ورقت لبناته ، ثم فرق أنقاضا . فلم تثبت كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة .

أجل ، انك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة ، يحسبها الجاهل أضفانا من المعاني حشيت حشوا ، وأزاعا من المعاني جمعت عفوا ، فإذا هسى لو تدبرت بنية مقاسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول ، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول . فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة : لا تحس بشي* من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ، ولا بشي* من الانفصال في الخروج من طريق الى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام . كل ذلك بغير تكلف ولا استهانة بأمر من خارج المعاني أنفسها ، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل فرض ومقطعه وأثنائه ، يريك المنفصل متصلا والمختلف مؤتلفا .

ولماذا نقول ان هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان ؟ لا ، بل انها التلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الانسان : فبين كل قطعة وجارتها رباط مومض من أنفسهما ، كما يلتقي المظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كعب ، كما يشبك المضوان بالشرابين والصروق والأعصاب . ومن وراء ذلك كله يسرى في جطة السورة اتجاه معين . وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا ، كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتمارون بجطته على أقدام غرض واحد مع اختلاف وظائفه المضوية^(١) .

(١) النبا العظيم ص: ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .

الامام سيد قطب :

ويقول الامام سيد قطب - رحمه الله - في تقديم سورة التوبة :

" وهذه الرواية^(١) أقرب الروايات الى تقديم تفسير مقبول لوضع السورتين هكذا ، وعدم الفصل بينهما بسطر " بسم الله الرحمن الرحيم " كما أنها تفيدنا في تقرير أن وضع الآيات في السور ، وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حياته . وأن سوراً متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد ، فإذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعا قائما ، أو تكمل حكما أو تعدله ، وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين ، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن توضع في مواضعها من سورتها . . . وبذلك كانت هناك حكمة معينة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات ، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة .

ولقد لاحظنا - كما أثبتنا ذلك مرارا في التعريف بالسور - أن هناك شخصية خاصة لكل سورة ، سمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية . كما أن هناك جوانب معينة وظلالا معينة . ثم تعبيرات معينة في السورة الواحدة ، تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية ! ولعل في الفقرة السابقة ، وفي حديث ابن عباس قبلها ، ما يفسر هذه الظاهرة الواضحة التي أثبتناها مرارا في التعريف بالسور في هذه الظلال^(٢) .

تلك النصوص ان دلت على شيء فانما تدل على أن فكرة النظام ليست
فكرة غريبة ولا نادرة ولا شاذة وانما هي فكرة أصيلة وقضية مسلمة بين
علماء الأمة وأعلامها .

(١) أي رواية الترمذي - بإسناده - عن ابن عباس قال : " قلت لعمشان بن عفان ما حطكم أن عمدتم إلى الأنفال " الخ .

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ١١١ ، ١١٢ .

ولا غرو فان حسن الترتيب وجمال التناسق من أعظم محاسن الكلام . وهو
المفارق بين كلام العقلاء وكلام المجانين ، ولقد صدق من قال :

” من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعا ” (١)

فإذا كان من محاسن الكلام - على العموم - أن يكون بعضه مرتبطا ببعض ،
فما ظنك بالقرآن ، الذي هو جميع محاسن الكلام ، وكان قمة عالية لا تطال
في الفصاحة والبلاغة وجودة البيان ؟

ولذلك فلا عجب ان كان علماء الأمة وأعلامها مجمعين على أن هذا القرآن
يتسم بحسن الترتيب وجمال التناسق ورضانة النظام ، بصرف النظر عما يوجد
بينهم من فارق كبير في مجال تطبيقه ، فانه لم يتيسر لكل واحد منهم أن يطبقه
عليا أو يميزه للناس على وجهه الصحيح المستقيم . فكانوا درجات بعضها فوق
بعض . الا أننا نجد هم طرا يحطون فكرة واحدة . ونجد هم مقتنعين بصحتها
وشرفها .

موقف الامام الشوكاني :

قد يقال : كيف تصح دعوى الاجماع على فكرة النظام مع أن الامام الشوكاني
- رحمه الله - يرفض تلك المفكرة رفضا باتا ، وينص على الذين يحطونها وينوهون
بشأنها ؟

فهبل يقال : انه كان ممن يحطون لؤا هذه الفكرة مع أنه سجل في شأن هؤلاء
تلك العبارة القاسية الملاذعة ؟ حيث يقول - رحمه الله - :

” اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف . وخاضوا في بحر لم يكفوا
سباحته . واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بمفائدة . بل أوقفوا أنفسهم

فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله - سبحانه - وذلك
 أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب
 الموجود فى المصاحف . فجاءوا بتكلفات وتصصفات يتبرأ منها الانصاف . ويتنزه
 عنها كلام البلفاء . فضلا عن كلام الرب سبحانه . حتى أفردوا ذلك بالتصنيف .
 وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعى فى تفسيره ومن تقدمه حسبما
 ذكر فى خطبته . وان هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعترف أن هذا القرآن
 مازال ينزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول
 الله صلى الله عليه وآله وسلم الى أن قبضه الله عز وجل اليه . وكل عاقل فضلا عن
 عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ،
 بل قد تكون متناقضة كتحريم أركان حلالا ، وتحليل أركان حراما ، واثبات
 أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع
 المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى وتارة مع من حضر ، وحينما فى
 عبادة وحينما فى معاملة ، ووقتا فى ترغيب ووقتا فى ترهيب ، وآونة فى بشارة ، وآونة
 فى نذارة وطورا فى أمر دنيا وطورا فى أمر آخرة . ومرة فى تكاليف آتية ، ومرة فى
 أقاصيص ماضية ، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا
 التباين ، الذى لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه
 مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار ،
 والملاح والهادى ؟ وهل هذا الا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من
 فى قلبه مرض ، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور ، فانه اذا وجد أهل العلم
 يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ، ويفردون ذلك بالتصنيف ، وتقرر عنده
 أن هذا أمر لا بد منه . وأنه لا يكون القرآن بليغا مبهجا الا اذا ظهر الوجوه
 المقتضى للمناسبة وتبين الأمر الموجب للارتباط ، فان وجد الاختلاف بين الآيات
 فرجع الى ما قاله المتكلمون فى ذلك ، فوجده تكلفا محضا وتصفا بينا ، انقصدح
 فى قلبه ما كان عنده فى عافية وسلامة . هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبا على

هذا الترتيب الكائن فى المصحف . فكيفوكل من له أدنى علم بالكتاب ، وأيسر
 حظ من معرفته يعلم علما يقينا أنه لم يكن كذلك . ومن شك فى هذا ، وان لم يكن
 ما يشك فيه أهل العلم رجح الى كلام أهل العلم المارفين بأسباب النزول ،
 المطلعين على حوادث النبوة ، فانه ينتج صدره ، ويوزل عنه الريب بالنظر فى
 سورة من السور المتوسطة ، فضلا عن المطولة ، لأنه لا محالة يجد ها مشتطة على
 آيات نزلت فى حوادث مختلفة وأوقات متباينة ، لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها
 فى الترتيب . بل يكفى المقصر أن يعلم أن أول ما نزل - اقرأ باسم ربك الذى
 خلق - وعده - يا أيها المدثر - يا أيها المزل - وينظر أين موضع هذه الآيات
 والسور فى ترتيب المصحف ؟ واذنا كان الأمر هكذا فأى معنى لطلب المناسبة
 بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخرا ، وتأخر
 ما أنزله الله متقدما ، فان هذا عمل لا يرجع الى ترتيب نزول القرآن بل الى ما وقع
 من الترتيب عند جمعه من تصدى لذلك من الصحابة . وما أقل نفع مثل هذا
 وأنزله شمرته ، وأحقر فائدته ، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع
 الأوقات وانفاق الساعات فى أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من
 الناس . وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجس
 من البلغاء من خطبه ورسائله وانشاءاته ، أو الى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد
 التى تكون تارة مدحا وأخرى هجاءً وحيناً نسيباً وحيناً رثاءً ، وغير ذلك من الأنواع
 المتشعبة ، فعمد هذا المتصدى الى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه ،
 ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد والخطبة التى خطبها
 فى الحج والخطبة التى خطبها فى النكاح ونحو ذلك ، وناسب بين الانشاء الكائن
 فى المراء والانشاء الكائن فى الهناء وما يشابه ذلك ، لعمد هذا المتصدى لمثل
 هذا مصابا فى عقله ، متلاعها بأوقاته ، عابثا بمره الذى هو رأس ماله واذنا كان مثل
 هذا بهذه المنزلة ، وهو ركوب الأحوقة فى كلام البشر ، فكيف تراه يكون فى كلام
 الله سبحانه الذى أعجزت بلاغته بلفاء العرب ، وأبكت فصاحته فصحاء عدنان

وقحطان . وقد علم كل مقصود كامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي ، وأنزله بلغة العرب ، وسلك فيه مسالكهم في الكلام ، وجرى به مجاريهم في الخطاب . وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفتون متخالفة وطرائق متباينة فضلا عن المقامين ، فضلا عن المقامات ، فضلا عن جميع ما قاله مادام حيا ، وكذلك شا عرهم . ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثر في ساحاتها كثير من المحققين . وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الوطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني اسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام ، فإذا قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف :

فدع عنك نهبا صيحا في حجراته * وهات حديثا ما حديث الرواهل^(١)

فإذا كان الشوكاني يندد بهذه الفكرة ويشور عليها بتلك الصراحة وينهى باللائمة على من يحملونها ويشغلون بها فكيف تبرز دعوى الاجماع على أهمية تلك الفكرة وعلى أصالتها ؟ وهل نقول ، ان الامام الشوكاني من لا يعبا به ، والاجماع قائم على رغم مخالفته ؟

الشوكاني ليس معارضا للمناسبة :

نحن نقول : ان الامام الشوكاني له فضله ومكانته . ولكن عبارته هذه لا تكفي للقطع بأنه من الممارضين لتلك الفكرة . كيف ؟ وانه ينهج في تفسيره القيم نهجيا يشد أزر القائلين بها . ولا يجد فرصة لبراز النظام الا وينتهزها . ويقف عندها وقفة لا بأس بها .

ولا بأس بأن نمرّ على بعض الأمثلة من تفسيره حتى نطلع على موقفه من هذه الفكرة .

(١) فتح القدير ١/٧٢ ، ٧٣ .

المثال الأول :

ويقول - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - :

" ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " (١)

" لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضي هو الاسلام ، وأن محمدا - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الرسول الذي لا يصح لأحد أن يحب الله الا باتباعه ، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه انما هو لمجرد البغى عليه والحسد له ، شرع في تقرير رسالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويؤن أنه من أهل بيت النبوة ومعنودن الرسالة " (٢)

المثال الثاني :

ويقول - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - :

" قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم " الآية (٣)

" قيل الخطاب لأهل نجران بدليل ما تقدم قبل هذه الآية ، وقيل لليهود المدينة ، وقيل لليهود والنصارى جميعا ، وهو ظاهر النظم القرآني " (٤)

المثال الثالث :

ويقول - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - :

" هنالك دعا ذكرها ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة " الآية (٥)

" والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم ، أو في ذلك الزمان ،

- (١) سورة آل عمران ٣٣ .
- (٢) فتح القدير ١ / ٣٣٣ .
- (٣) سورة آل عمران ٦٤ .
- (٤) فتح القدير ١ / ٣٤٨ .
- (٥) سورة آل عمران : ٣٨ .

أن يهب الله له ذرية طيبة . والذي يمشه على ذلك ما رآه من ولادة حنّسة
لعريم وقد كانت عاقرا ، فحصل له رجا* الولد وان كان كبيرا وامرأته عاقسرا ،
أو يمشه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء في الصيف والصيف في الشتاء عند مريم ،
لأن من أوجد ذلك في غير وقته يقدر على ايجاد الولد من العاقر ، وعلى هذا
يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سيقت في غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط* . (١)

المثال الرابع :

ويقول - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - :

* واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، ان قرها قرهانا * الآية (٢)

* وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم

المواثيق والصهود هو كظلم ابن آدم لأخيه . فالدا* قديم والشر أصيل * . (٣)

المثال الخامس :

ويقول - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى - :

* والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما * الآية (٤)

* لما ذكر الله سبحانه حكم من يأخذ المال جهارا وهو المحارب ، عقبه بذلك

من يأخذ المال غفيا وهو السارق * . (٥)

تلك هي بعض النصوص من تفسير الامام الشوكاني . وفيها غنية للاطلاع على موقفه .

والا فتفسيره حافل بأمثالها .

فكيف يجوز مع وجود تلك النصوص الواضحة الصريحة في تفسيره أن يقال : انه

- رحمه الله - من المعارضين لفكرة النظام ؟ كلا ! فالامام الشوكاني أرفع من أن

يمارض فكرة لا تقل في وضوحها من وضوح الشمس في رابعة النهار .

(١) فتح القدير ١ / ٣٣٧ .

(٢) سورة المائدة : ٢٧ .

(٣) فتح القدير ٢ / ٣٠ .

(٤) سورة المائدة : ٣٨ .

(٥) فتح القدير ٢ / ٣٩ .

الامام الشوكاني ينكر التكلف :

وانما الذي حذاه الى تسجيل تلك الكلمات القاسية الجافة ، أن الذين
 تبنا هذه الفكرة ، لم يتعاطوها على وجهها ، ولم يراعوا طبيعتها .
 انهم نهضوا لخدمة هذه الفكرة ، قبل أن يأخذوا لها أهبتها ، وخاضوا
 في المعمعة قبل أن يمدوا للأمر أقرانها .
 انهم بدؤوا مسيرهم قبل أن يضمنوا الأسس التي تعدل مسيرهم وتدلل لهم
 طريقهم . وقبل أن يرسموا المعالم التي تعصمهم من الحيرة وتقيمهم على الجادة .
 فكان أن بذلوا لتحقيق هذه الغاية جهودا مضنية لا يقوم لها الا عمالقة
 الرجال . ولكنها - مع الأسف - كانت أشبه شيء بتلك الأشعة التي تتبدد في الفضاء .
 ولا تحقق هدفها اذا لم تجد نقطة تركز عليها .
 فالذي يطلع على تلك الجهود يجدها كثيرا ما تغطي الهدف ، ويبسند
 جزءا كبيرا منها يغلب عليها لون التكلف والتعسف . فهي أقرب الى التكلفيات
 منها الى المناسبات .
 وهذا ما هجج الامام الشوكاني وأثار حميته ، وجعله يشدد القول . فلننظره
 كيف يركز في تهجمه على تلك الناحية ، ان يقول :
 " اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف . وخاضوا في بحر لم يكفوا
 سباحته . واستفرقوا أوقاتهم في فن لا يمدون عليهم بفائدة . بل أوقموا أنفسهم
 في التكلم بمحض الرأي المنهني عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه . وذلك
 أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب
 الموجود في المصاحف . فجاءوا بتكلفيات وتمسفات

يتمّ منها الانصاف ، ويتّزه عنها كلام الهلفاء ، فضلا عن كلام الرب سبحانه . وحتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله الهقاعي في تفسيره ، ومن تقدّمه ، حسبما ذكر في خطبته (١) :

نماذج من النظام المتكلف :

وان يشير الامام الشوكاني في مقاله هذا الى الامام الهقاعي - رحمه الله - نجدنا مضطربين الى نقل بعض النصوص من تفسيره ، حتى يظهر لنا عذر الامام الشوكاني ، وحتى يتجلّى الأمر على حقيقته ويتضح أن الامام الشوكاني ليس منكرا للنظام أو المناسبات مرة واحدة . وتنهجه هذا ليس منصبا على فكرة النظام أو المناسبات . وانما هو منصب على تلك العكفات التي أطلق عليها خطأ - اسم المناسبات .

يقول الامام الهقاعي - رحمه الله - في تفسير سورة الفاتحة :

" شرعت للتسمية أول كل شيء " ، فصدّرت بها الفاتحة ، وقدم التتمود الذي هو من درء المفسد تمظيما للقرآن بالاشارة الى أن يتمين لتأليه أن يجتهد في تصفية سرّه وجمع متفرق أمره لينال سؤله ومراده ما أودعه من غزائن السعادة باعراضه عن المد والحسود واقباله على الوطن الودود . ومن هنا تصرف مناسبة المصوّتين بالفاتحة . ولما افتتح التتمود بالهمزة اشارة الى بدء الخلق ، وختم بالهم ايها الى المماد ، جعلت البسطة كلها للمماد بتدائها بحرف شفوي ، وختم أول كلماتها وآخرها بأخر اشارة الى أن الرجوع

اليه في الدنيا معنى بتدبير الأمور وان كان أكثر الخلق غافلا عنه .
وفي البرزخ حسا بالموت ، وفي الآخرة كذلك بالبعث ، كما أشار الى ذلك تكرير
العم المختتم بها في اسمها بذكرها فيه مرتين اشارة الى المعادين الحسينيين ،
والله أعلم - (١)

وزيد - رحمه الله - فيقول :

" ولما كان اسم الجلالة علما ، وكان جامعا لجميع معاني الأسماء
الحسنى أوليه " الرحمن " من حيث أنه كالمعلم في أنه لا يوصف به غيره . ومن
حيث أنه أبلغ من " الرحيم " فأولى الأبلغ الأبلغ ، وذلك موافق لترتيب الوجود ،
الايجاد ثم النعم العامة ثم الخاصة بالعبادة . وذكر الوصفان ترغيبا . وظهوت
النقمة في افهام اختصاص الثاني لتنام الترغيب بالاشارة الى التهيب والمسرد
بها هنا أنه سبحانه يستحق الاتصاف بهما لذاته وكررها بعد تشبيها على
وجوب ذلك للرهبة والملك . وللدلالة على أن الرحمة ظهرت الفهب . وفيها الى
ما ذكر من الترغيب الدلالة على سائر الصفات الحسنى ، لأن من عمت رحمته امتنع
أن يكون فيه شوب نقص .

وفي آخر سبحان لهذا المكان مزيد بيان ، وكونها تسعة عشر حرفا خطيسية
وثمانية عشر لفظية اشارة الى أنها دوافع النقمة من النار التي أصحابها تسعة
عشر وجوالب للرحمة بركمات الصلوات الخمس وركعة الوتر اللاتي من أعظم
المباركات الكبرى - (٢)

ويقول - رحمه الله - في فاتحة سورة آل عمران :

(١) نظم الدرر ٢٢/١ ، ٢٣

(٢) نظم الدرر ٢٦/١ - ٢٧

" وقال الحرّالي شيرا الى القول الصحيح في ترتيب السور من أنسه
باجتهاد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، اقرارا لله سبحانه
وتعالى لهذا الانتظام والترتيب السورى فى مقرر هذا الكتاب :

هو ما رضى الله سبحانه وتعالى فأقره . فلما كانت سورة الفاتحة جامعة
لكلية أمر الله سبحانه وتعالى فيما يرجع اليه ، وفيما يرجع الى عبده ، وفيما بينه
وبين عبده ، فكانت أم القرآن وأم الكتاب ، جعلتني تفصيل ما يرجع منها الى
الكتاب المنبأ عن موقعه فى الفاتحة مضمنا سورة البقرة الى ما أعلن به ، لألا
نور آية الكرسي فيها ، وكان منزل هذه السورة من شتى تفصيل ما يرجع الى
خاص علم الله سبحانه وتعالى فى الفاتحة ، فكان منزلة سورة آل عمران منزلة
تاج الراكب ، وكان منزلة سورة البقرة منزلة سنام المطية ، قال صلى الله عليه
وسلم : " لكل شىء سنام وسنام القرآن سورة البقرة . لكل شىء تاج ، وتاج
القرآن سورة آل عمران " وانما بديء هذا الترتيب لسورة الكتاب لأن علم
الكتاب أقرب الى المخاطبين من تلقى علم أمر الله . فكان فى تعلم سورة
البقرة والعمل بها تهيؤ لتلقى ما تضمنته سورة آل عمران ، ليقع التدرج
والتدرب بتلقى الكتاب حفظا وتلقيه على اللحن منزل الكتاب بما أهداه علمه فى
هذه السورة . وذلك يتضح أن احاطة " التّم " المنزلة فى أول سورة البقرة
احاطة كتابية بما هو قياوم وتام ، ووصلة ما بين قياوم وتامه وأن احاطة
" التّم " المنزلة فى أول هذه السورة احاطة الهية حياوية قيومية ما بين غيبة
عظمة اسمه " الله " الى تام قيوميته الهادية فى تبارك ما أنبأ عنه اسمه
" الحى القيوم " وما أوصله لطفه من مضمون توحيدىه النبىء عنه كلمة الاخلاص
فى قوله " لا اله الا هو " فلذلك كان هذا المجموع فى منزله قرآنا حرفيا
وقرآنا كليا اسمائيا وقرآنا كلاميا تفصيليا ما هو اسمه الأعظم كما تقدم من قوله
صلى الله عليه وسلم : اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : " واليهكم المرجع
واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم " " التّم . الله لا اله الا هو الحى القيوم "

وكما وقعت الاحقة في سورة البقرة لما وقع به الافصاح في سورة آل عمران كذلك وقع في آل عمران من نحو ما وقع تفصيله في سورة البقرة ليصير نزلا واحدا بما أفصح مضمون كل سورة بالاحقة الأخرى ، ولذلك هما غماعتان وغيايتان على قارلها يوم القيامة - كما تقدم - لا تفترقان . فأعظم " التّم " هو مضمون " التّم " الذي افتتحت به هذه السورة ويليه في الرتبة ما افتتحت به سورة البقرة ، ويليه في الرتبة ما افتتحت به سور الآيات نحو قوله سبحانه وتعالى : " التّم " . تلك آيات الكتاب الحكيم " فللكتاب الحكيم احاطة قواما وتاما ووصلة ، ولمطلق الكتاب احاطة كذلك ، واحاطة الاحاطات وأعظم المعظمة احاطة افتتاح هذه السورة . وكذلك ايضا اللواميم محيطية باحاطة الطواسيم لما تخصص به معاني حروفها من دون احاطات حروف اللواميم واحاطة الحواميم من دون احاطة الطواسيم لما يتخصص به معاني حروفها من دون احاطات حروف الطواسيم على ما يتضح تراتبه وطلبه لمن آتاه الله فهما بمنزلة قرآن الحروف المخصوص بانزاله هذه الأمة دون سائر الأمم ، الذي هو من العلم الأزلي العلوي . ثم قال : ولما كانت أعظم الاحاطات احاطة عظيمة اسم " الله " الذي هو سمي التسمية والتسمين أسماء التي أولها " اله " كان ما أفهمه أولى الفهم هنا اسم ألف بنساء في معنى احاطات الحروف عن نحو احاطة اسم " الله في الأسماء " . فكانت هذه الألف سمي كل ألف كما كان اسم " الله " سبحانه وتعالى سمي كل اسم سواء حتى أنه سمي سائر الأسماء الأعجمية ، التي هي أسماؤه سبحانه وتعالى في جميع الألسن كلها مع اسماء العربية أسماء لسعي هو هذا الاسم العظيم الذي هو " الله " الأحد الذي لم يتطرق اليه شرك كما تطرق الي أسماءه من اسم " اله " التي غاية اسم " الصور " . وكما كان احاطة هذا الألف أعظم احاطة حرفية وسائر الألفات أسماء لعظيم احاطته ، كذلك هذه الميم أعظم احاطة ميم تفصلت فيه وكانت له أسماء بمنزلة ما هي سائر الألفات أسماء لسعي

هذا الألف ، كذلك سائر الهميات اسم لسمي هذا الميم ، كما أن اسمه " الحسي القيوم " أعظم تمام كل عظيم من أسماء عظمت . وكذلك هذا اللام بمنزلة ألفه وميه وهي لام الالهية الذي أسراره لطيف التنزل الى تمام ميم قيوميته . فمن لم ينته الى فهم معاني الحروف في هذه الفاتحة نزل له الخطاب الى ما هو افصح احاطتها في الكلم والكلام المنتظم في قوله " الله لا اله الا هو الحسي القيوم " فهو قرآن حرفي يفصله قرآن كلي يفصله قرآن كلاسي " (١)

ذلك هي بعض النصوص من تفسير الامام الهقاعي - رحمه الله - وهي في غنى عن أي تمليق أو تعقيب عليها فهي واضحة ظاهرة ، تحكى بلسانها عن حالها .

ولا شك أن علم المناسبات ان كان عبارة عن تلك التكلفات والمجازفات ، فهو لا يخدم القرآن في تحليل ولا كثير . ولا نجد له مبررا من كتاب منير أو فكر بصير .

واجبنا نحو جهود السلف :

ولعل هذه التكلفات هي التي سببت الالام الشوكاني وأثارت حميته والجهام الى أن يقول ما يقول . وان كنا لا نرتاح الى أسلوبه لما فيه من المنف والجفاف . ولما أنه يحمل لونا من الاستغفاف . ولو أنه أنصف الامام الهقاعي واخوانه - رحمهم الله - لما ثار عليهم ، بل شكر لهم سعيهم وعرف لهم فضلهم مع الاغراض عما فاتهم . فان من خاض على الدر في بحر لجن لا شرب عليمه ان لم يفر بالفراخ . وانما هو يستحق المدح والتقدير لجراجه وشجاعته ولما أنه

فتح بابا جديدا لمن يأتي بعده ، فكم ترك الأول للآخر .
 ولا شك أن من بين طرفا من النظم له منة على الخلف ، فان هذا العلم
 لا مطمح في بلوغ نهايته وهل يوجد علم بلغ الى نهايته ؟
 فاذا كانت سائر العلوم هكذا فما ظنك بما هو بحر لا تنقضي عجائبه
 ولا تنتهي فرائده ؟ (١)

عذر الامام الشوكاني :

والجملة فالامام الشوكاني - رحمه الله - لا ينكر فكرة النظام مرة واحدة .
 ولا يتهم الا على من يتكلمه وان كانت عبارته توهم أكثر من ذلك .
 وليس ذلك الا لأنه ملكه سورة الفضب على الذين يتكلمونه كما تشي بذلك
 عبارته بما فيها من تغلغل واضطراب . فكان أن عدل عن الاعتدال هالغ فسى
 الانكار وعذره أنه أخذ المزة بالحق .
 والا فكيف يتصور عنه أن ينكر فكرة النظام مرة واحدة ثم يتعاطاهما
 في تفسيره ؟
 والذي يبدو لنا من خلال تفسيره أنه يأخذ آونة ويتركه أخرى . يأخذ
 اذا كان على غاية الوضوح والهيان ولا يتمب وراءه ان كان بحاجة الى تأمل
 وامعان .

(١) انظر دلائل النظام للامام الفراهي ص ٢٤

موقفه موقفًا الشيخ عز الدين :

وعلى هذا فموقفه من النظام موقفًا الشيخ عز الدين بن عبد السلام إذ يقول : " المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره فان وقع على أسباب مختلفة ، لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر .

ويقول : ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه الا برهاط ركيك يمان عنده حسن الحديث فضلًا عن أحسنه ، فان القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة . وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضها ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الاله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض ، مع اختلاف المسائل والأسباب كتصرف الطوك والحكام والفتين ، وتصرف الانسان نفسه بأمر متوافق ومتخالفة ومتضادة . وليس لأحد أن يطلب ربط بعضها تلك التصرفات بعضها ، مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها " (٢) .

هل لهذا الموقف من أساس ؟

وهناك ناحية لابد أن نقف عليها وهي أن هذين الشيخين لم يلجأ الى هذا الموقف من فكرة النظام - بعد اقتناعهما بها حديثاً - الا لأن النظام لم يتضح لهما في كثير من المواطن . وعلى هذا بنينا فكرتهما وقالنا ، ان النظام يوجد في موطن دون آخر .

ومعبرة أخرى فيها لا ينكران النظام في القرآن مرة واحدة . وانما ينكران تصوره الشامل الكامل الذي يتناول القرآن كله كأنه سلسلة من ذهب .

(١) هو الامام عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالمرزوق سنة ٥٧٧ هـ وتوفى سنة ٦٦٠ (وانظر ترجمته في طبقات الشافعية ٥ / ٨٠ - ١٠٧) .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٧ .

مماسكة الحلقات . آخذ بعضها بحجز بعض .

ثم هذا الانكار لا يعتمد على دليل قوى . بل لا يعتمد على دليل أصلا .
وانما هي شبهات ليس لها أساس .

والذى نستشفه من كلامهما هو أنهما عجزا عن المتقلب فى فضائله
الواسع . فلما عجزا عنه التمس له أسبابا وصررات يكون لهما فيها عزا — عن
عجزهما .

وهنا يشور سؤال :

هل ظهور بعض الشيء دون بعض ينهض دليلا على وجود بعضه
دون بعض ؟

وهل يجوز انكار الشيء بحجة أننا لم نخط بجميع جوانبه ؟
ثم ان ظهر لنا للنظام فى موطن ، أليس من واجبنا أن نهت عنه فى
موطن آخر ؟

ثم ان حاوله غيرنا ، وآتسنا فيه أودا ، أليس من واجبنا أن نشقه ونقدّر
جهده ؟ بدلا من أن نوسعه لوما وتعنيفا ، ثم نتدّرع به الى انكار ذلك العلم
رأسا .

الحق أن موقف هذين الشيخين موقف ضعيف جدا . وهو بحاجة الى
أن نقف عليه ، وندرس نقاطه ، وندرس تلك الشبهات التى هى لحمه وسداته ،
حتى يكون الناس على بينة منه .

الباب الثاني :

شبهات حول النظام

الشبهات التي أثيرت أو تثار حول فكرة النظام يمكن تحديدها في ثلاث نقاط كما يلي :

الشبهة الأولى :

التماس المناسبة في الآيات تكلف وتكلم في القرآن بمحض الرأي المنهى عنه ، فان القرآن نزل مفردا حسب الحوادث الصقتضية لنزوله منذ بدء الوحي الى انتهائه . وتلك الحوادث متخالفة باعتبار نفسها بل وقد تكون متناقضة . فاذا كانت هي مختلفة ومتباينة بحيث لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلفا كاختلافها . والتماس المناسبة فيه تكلف محض وتمسّف بيّن .^(١)

الشبهة الثانية :

طلب المناسبة بين الآيات مع العلم بأنه قد تقدم في ترتيب الصحف ما أنزله الله متأخرا وتأخر ما أنزله متقدما أمر غير محقول . فان هذا عمل لا يرجع الى ترتيب نزول القرآن ، بل الى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة .^(٢)

الشبهة الثالثة :

وصف الله - سبحانه - هذا القرآن بأنه عربي . وأنزله بلغة العرب . وسلك فيه مسالكهم في الكلام . وكانت عادتهم أن يأتوا بفنون متخالفة وطرائق متباينة في الحقام الواحد ، فضلا عن المقامين ، فضلا عن المقامات .^(٣)

تلك هي ثلاث شبهات رئيسية قد تثار أو تثار حول موضوع النظام . فلنقتف بها لندرسها بامعان ودقّة . فانه سينكشف ما فيها من ضعف أو قوة وستظهر الحقيقة واضحة سافرة بانن الله ؛ فان الصريح تحت الرغبة .

(١) فتح القدير ١/٧٢ . البرهان في علوم القرآن ١/٣٧ .

(٢) فتح القدير ١/٧٣ .

(٣) فتح القدير ١/٧٣ .

الفصل الأول

الشبهة الأولى وتقويمها

أما الشبهة الأولى فهي شبهة ضعيفة لا تقوم على ساقين . وهي تنادي على نفسها بالبطلان ، فإنه قد انمقد الاجماع على أن القرآن الموجود بسين أيدينا ليس على ترتيب نزوله . وإنما هو حسب ترتيبه في اللوح المحفوظ .

يقول الامام البغوى - رحمه الله - :

" . . . فان القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذى هو فى

مصحفنا . أنزله الله - تعالى - جملة واحدة فى شهر رمضان ليلة القدر الى السماء الدنيا كما قال الله - سبحانه وتعالى - (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقال الله - عز وجل - : (انا أنزلناه فى ليلة القدر) ثم كان ينزله خرقا على رسوله - صلى الله عليه وسلم - مدة حيات عند الحاجة ، وحدوث ما يشاء الله - عز وجل - قال الله سبحانه وتعالى : " وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث " (الاسراء : ١٠٦)

فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة . وكان هذا الاتفاق من الصحابة سببا لبقاء القرآن فى الأمة رحمة من الله - عز وجل - على عباده ، وتحقيقا لوعده فى حفظه ، كما قال الله - عز وجل - :

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (الحجر : ٩) (١)

وقال الطيبى - رحمه الله - :

" أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا

ثم نزل مفرقا على حسب المصالح ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم
المثبت في اللوح المحفوظ * (١)

فإذا كان ترتيب قرآنا هذا في تلاوته يختلف عن ترتيب نزوله ، فليس
من الممقول أن يكون نزوله في ظروف مختلفة وتحت حوادث متباينة مفضيا الى
تفكك نظامه . بل الأمر على العكس ، فان المدول عن ترتيب النزول الى ترتيب
آخر لا يخلو من حكمة مرعية فيه .

فما هي الحكمة اذا ان لم تكن هي مراعاة النظام ؟

نموذج للنظام في آيات تضم أمورا مختلفة :

ولعل الأمر فيه دقة وغموض . وما قلّ اعتناء المفسرين به الا لدقته

وغموضه ، كما أشار اليه الامام الزركشي - رحمه الله - (٢)

فنحن نذكر هنا مثلا ، حتى يزداد الأمر وضوحا . وحتى يطمئن القارئ
الكريم الى أن اختلاف أسباب النزول لا ينافي النظام في القرآن . فكثيرا ما نرى
مجموعة من الآيات ، تضم أمورا مختلفة ، جاءت في أوقات مختلفة . ويخيل اليينا
بارئ ذى بديء أن هناك اقتضاها بيئا ، ولكن اذا أنعمنا فيها النظر ، وجدنا
الأمر على العكس . وعرفنا أنما هي آيات مسبوكة مسبوكه آخذ بعضها برقاب بعض.

فلنأخذ - مثلا - أوائل سورة المائدة ولنتأمل وجوه الربط والمناسبة التي

هدى اليها الامام الفراهي - رحمه الله -

(١) الاتقان في علوم القرآن ٦٢/١

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣٦/١

ذكر الله - تعالى - في مستهل سورة المائدة ما أهل عن المآكل حيث قال :

" يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لكم بهيمة الأنعام

الا ما ينل عليكم " الآية

وتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل . وخلطه بشيء من الموعظة والتذكير ، كما ورد أب القرآن في ذكر الأحكام ، فإنه دائما يخلط الأحكام بشيء من الموعظ والحكم ، حسبا يقتضيه المقام .

ثم أضاف إلى المآكل ما أهل عن المناكح حيث قال :

" اليوم أهل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم

حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متغدي أخدان . ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين " (١)

ثم ذكر الوضوء والتميم حيث قال :

" يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم "

..... إلى أن قال : " فان لم تجدوا ماء فتميموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه " الآية (١)

إذا مررنا على سطح تلك الآيات خيل لنا أنه ليس هناك شيء من

الارتباط . وأي ارتباط بين الطعام والنكاح والوضوء !

زد إلى ذلك أن تلك الآيات ما نزلت مرة واحدة ، وإنما جاءت فسي

نجوم مختلفة .

(١) سورة المائدة : ٥

(٢) سورة المائدة : ٦

ولكن هل الأمر هكذا ؟ أم هكذا نسجت تلك الآيات دون أن يكون بينها
 أى ارتباط ؟ كلا ! فهناك انسجام تام وارتباط محكم وتناسق بديع .
 ولا غرو ، فانها جاءت من لدن على حكيم . الذى أحسن كل شئ خلقه
 وأحكم نسجه . ولكن - مع ذلك - لن نشعر بهذا التناسق والانسجام اذا مررنا
 على تلك الآيات مراراً سريعاً . وإنما الأمر كما قال زهير :

وفهمنّ طهين لللطيف ومنظر * أنيق لعين الناظر المتوسم

فهيّا بنا نعمن النظر فى تلك الآيات ، حتى نستمتع بما فيها من محاسن النظم
 وروائع الارتباط .

فإذا أنعمنا النظر فى تلك الآيات وجدنا هناك أمرين : الشئ وشروط
 الشئ .

فذكر الله - تعالى - من الشروط ما يكون غرضاً الى الطهارة . فالذكاة
 تطهر البهائم وتجعلها صالحة للأكل حيث قال : " إلا ما ذكيتتم " والمهـر
 وقصد الاحسان يطهر المرأة ويجعل علاقتها مع الرجل طاهرة مباركة والوضوء
 يطهر الانسان للصلاة .

والآيات نفسها تشير الى تلك الحقيقة حيث جاء فى آخرها :

" ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته
 عليكم " (١)

أما الشئ نفسه فذكرت هناك ثلاثة أشياء :

(١) سورة المائدة : ٦

١- طهيات الطعام . ٢- المحصنات من النساء . ٣- الصلاة
فان تدبرنا عرفنا أن هذا العالم عالم الكون والفناء . والشخص والنوع
والروح ثلاثة عوالم . فجبراً اضمحلالها بالطعام والنكاح والصلاة ، هيئت أن
الطعام قيام للشخص ، والنكاح بقاء للنوع . والصلاة غذاء للروح .

وما يدل على المناسبة بين الطعام والنكاح أن الله فصلهما تفصيلاً .
ونبه على ما فهمهما من المحرمات . حتى أننا نرى فيهما اتحاداً تاماً فى
الأسلوب . وذكر التحريم فى كلا الموضعين على نمط واحد ، فقال فى سياق
النكاح : " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم " الآية (١)

كما قال فى سياق الطعام :

" حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير الآية (٢)

ثم نرى المناسبة بين الصلاة والنكاح من جهة أخرى . فان النكاح يحصن
الانسان ويصدّه عن الفحشاء والمنكر كما أن الصلاة تكبت جماح الانسان وتبهاه
عن الفحشاء والمنكر .

ثم كما أن هناك مناسبة بين الصلاة والنكاح من جهة الظهور فكذلك
بينهما مناسبة من جهة التخفيف .

فنحن نرى فى سورة البقرة أن الله - تعالى - ذكر التخفيف فى الصلاة بعدما ذكر
التخفيف فى المهور حيث قال :

" لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تصوهن أو تفرضوا لهن فريضة .

(١) سورة النساء : ٢٣

(٢) سورة المائدة : ٣

ومتَّعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . متاعا بالمعروف . حقا على
المحسنين وان تلقتهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة
فإنصفا ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح * (١)

ثم قال :

" حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى . وقوموا لله قانتين . فإن
خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون *
وكذلك في سورة النساء ، فان الله - تعالى - رغب أولا في تعدد الزوجات
حيث قال :

" فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع * (٢)

ثم جاء بالتخفيف في العدد لمن خاف على نفسه ألا يقوم بالقسط حيث قال :
" فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم *
كما نرى في نفس السورة أنه - تعالى - رخص في قصر الصلاة في حالة الخوف
حيث قال :

" فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين
كفروا * الى أن قال : " فإذا اطمانتم فأقيموا الصلاة . ان الصلاة كانت على
المؤمنين كتابا موقوتا * (٣)

فالمحافظة على النكاح واجب والتعدد فيه مرغوب ومستحب الا اذا خاف
الانسان على نفسه ألا يقوم بأعباءه وخشى ألا يعدل بين أزواجه فله يقنع بواحدة ،

(١) سورة البقرة : ٢٣٦

(٢) سورة النساء : ٣

(٣) سورة النساء : ١٠١ - ١٠٣

كما أن المحافظة على الصلاة وركعاتها واجبة ، إلا إذا كان الإنسان في حالة الخوف فله أن يقصر من الصلاة . فاعلم أن لكل قرآن منظرا كقرآن النجوم . (١)

لعل هذا المثال يكفينا للاقتناع بأن تمدد الموضوعات واختلف أسباب النزول لا ينافي وجود النظام في تلك الآيات . ولنعم ما قال الشيخ ولى الله الطوى العنقلوطى حيث قال :

" قد وهم من قال لا يطلب للإي الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة . وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا ، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف . وحافظ القرآن العظيم لو استفتى في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سأل . وإذا رجع إلى التلاوة لم يزل كما أفتى ولا كما نزل غرقا بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة " (٢)

موقف عجيب للإمام الشوكانى :

رحم الله الامام الشوكانى ، فقد وصل إلى النبع ثم تقهقر !
انه أراد أن ينفى النظام في القرآن . ولكن أبى الله الا أن يسخر قلمه لاشياء . وقد أثبت فعلا من حيث لا يشعر . تأمل معنى تلك العبارة :

" وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه العوادم المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل وقد تكون متناقضة ، كتحریم أمر كان حلالا وتحليل أمر كان حراما وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان

(١) هذا المثال نص عليه الامام الفراهي بفياة الاجمال . فمن فصلنا وبيناه .

ومن أراد فليرجع إلى فاتحة تفسير نظام القرآن ص ٢٠

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٧/١

قد ثبت لهم قبله . وتارة يكون الكلام مع المسلمين . وتارة مع الكافرين وتارة مع من مضى وتارة مع من حضر ، وحيناً في عبادة وحيناً في معاملة ووقتا في ترغيب ووقتا في ترهيب ، وآونة في بشارة وآونة في نذارة وطورا في أمر دنيا وطورا في أمر آخرة ، ومرة في تكاليف آتية ومرة في أقاصيص ماضية . وإذا كانت أسباب النزول مختلفة ، هذا الاختلاف

وتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الالتلاف فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها . فكيف ياللب الماقتل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادي * (١)

فلننظر كيف اجتمعت في تلك العبارة وجوه الربط والمناسبة مع أنه أراد أن

يبطلها !

فهل يستتكر عاقل ان قيل : ان هناك مناسبة بين التهريم والتحليل أو الترغيب والترهيب ، أو البشارة والنذارة ، أو الجنة والنار أو الدنيا والآخرة وما الى ذلك ؟

فاننا كثيرا ما نرى في القرآن أنه يجمع بين تلك الأمور في آية واحدة أو

جملة واحدة . واليك بعض الأمثلة :

قال الله - تعالى - :

" ويستمجلونك بالسيلة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات . وان

ريك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ريك لشديد العقاب " (٢)

(١) فتح القدير ٧٢/١

(٢) سورة الرعد : ٦

- " نبيء عادى أنى أنا الففور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم " (١)
- " وأن تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد " (٢)
- " وأن تأذن ربك ليعمثن عليهم / يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب .
ان ربك لسريع العقاب وأنه لفقور رحيم " (٣)
- " الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيبا لينذر
بأسا شديدا من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات
أن لهم أجرا حسنا ماكنين فيه أبدا . وينذر الذين قالوا اتخذنا لله
ولدا " (٤)

فترى فى تلك الأمثلة أن الله - تعالى - جمع بين ترغيب وترهيب وشارة
ونذارة فى آية واحدة أو جملة واحدة فهل تنكر المناسبة بين أجزاء آية واحدة
أو جملة واحدة ؟ وهل نقول انها تضم أمورا متناقضة دون أن توجد بينها
رابطة تربط بعضها ببعض ؟

وهنا تحضرنا وصية سيدنا أبى بكر لسيدنا عمر - رضى الله عنهما - فانه
قال - فيما قال له - حين حضرت الوفاة :

" وذكر (الله) آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبا راهبا
ولا يتنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده الى التهلكة " (٥)

لو أن تلك الوصية مرّت مع الامام الشوكانى - رحمه الله - لعرف أن القرآن
ان ذكر آية الرحمة مع آية العذاب فلم يذكرها الا لحكمة بالغة ومناسبة ظاهرة .

-
- (١) سورة الحجر : ٤٩ - ٥٠
(٢) سورة ابراهيم : ٧
(٣) سورة الاعراف : ١٦٧
(٤) سورة الكهف : ١ - ٤
(٥) جمهرة خطب العرب ١/٧٧

وقال - تعالى - :

" وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعطلون من عمل الا كنا عليكم شهودا ان تفيضون فيه . وما يَمْزُبُ عن ربك من عثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصفر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين " (١)

فترى الله - تعالى - جمع في الخطاب بين المؤمنین والكافرين أو بين النبي والكافرين في آية واحدة . فالخطاب في الشطر الأول من الآية - وهو " وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن " - موجه الى النبي - صلى الله عليه وسلم - والى المؤمنین . وفي الشطر الثاني من الآية - وهو " ولا تعطلون من عمل الا كنا عليكم شهودا ان تفيضون فيه " - موجه الى الكفار والمشركين . فقد روى عن الضعاع أنه قال :

" ان تفيضون فيه " يقول فتشبهون في القرآن من الكذب " (٢)

فهل ننكر المناسبة بين أجزاء تلك الآية الواحدة بحجة أنها تضم خطابين

مختلفين : خطاب الى النبي - عليه السلام - وخطاب الى الكفار والمشركين ؟ ويشبه تلك الآية قوله - تعالى - :

" يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبيك انك كنت من الخالدين " (٣)

فقد اجتمع فيه نوعان مختلفان من الخطاب : خطاب الى يوسف البريء

الذنبه وخطاب الى امرأة العزيز التي راودته عن نفسه . فهل نقول ان تلك الآية لا توجد في أجزائها المناسبة ، لأن شطرها الأول موجه الى نبي الله يوسف وشطرها الثاني موجه الى امرأة العزيز التي أرادت به سوء ؟

(١) سورة يونس : ٦١

(٢) تفسير البري ٩٠ / ٧ ، والجامع لأحكام القرآن ٣٥٦ / ٨

(٣) سورة يوسف : ٢٩

ومن هذا القبيل قوله - تعالى - :

" قال أفرايتم ما كنتم تصبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى
الار رب العلمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطمئنى ويسسقين .
واذا مرضت فهو يشفين . والذى يعيتى ثم يحيين . والذى أطمع أن يفقرلى
خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى
لسان صدق فى الآخريين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم " (١)

فهذا الكلام - الذى يشتمل على جملة من الآيات - كلام واحد صدر
بمناسبة واحدة وهو ينقسم الى شطرين : شطر يحتوى الخطاب الذى وجهه
ابراهيم الى قومه المشركين . وشرط يحتوى تلك الكلمات الضارعة التى وجهها
ابراهيم الى ربه .

فهل يعتبر هذا الكلام خاليا من المناسبة بحجة أنه يضم نوعين من
الخطاب : خطاب الى الله الذى يحول به برعايته . وخطاب الى القوم الذين
كانوا يحاربونه فى دينه ؟

وقال - تعالى - :

" يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعطوا صالحا . انى بما تعملون
علم . وان هذه أمتكم واحدة . وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم
نوبرا . كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون
أننا نمدهم به من مال ومنين . نسارع لهم فى الخيرات . بل لا يشعرون " (٢)

(١) سورة الشعراء : ٧٥ - ٨٥

(٢) سورة المؤمنون : ٥١ - ٥٦

تلك عدة آيات أخذ بعضها بأعناق بعض، بحيث ربطها السياق برابطة
 "الفاء" أحكم ربط . فقال :
 "فاتقون . فتقطعوا أمرهم فذرهم " فتلك الآيات مربوط بعضها ببعض
 بحيث لا يمكن أحدا أن يقول ، انها جاءت في نجوم مختلفة أو انها ينقصها
 التماسق والاتلاف .

مع أننا نلاحظ في الآيتين الأُوليين أنه وجه فيهما الخطاب الى الرسل
 الذين خلوا منذ قرون . ثم توجه الكلام في الآية الثالثة الى المشركين
 المعاصرين لعهد نزول القرآن . ثم التفت الخطاب في الآية الرابعة الى
 النبي - عليه السلام - .

أليس يصدق على تلك الآيات كلام الامام الشوكاني - رحمه الله - ان يقول :

" تارة يكون الكلام مع المسلمين وتارة مع الكافرين وتارة مع من ضل وتارة

مع من حضر "

ولكن مع ذلك فهل يجوز أن يستنتج منه ما استنتجه الامام الشوكاني ؟ وهل يجوز

أن يقال : ان هذا الوضع أهل بوجود المناسبة في تلك الآيات ؟

تلك بعض الأمثلة ، ولا نريد أن نسترسل فيها . فان فيما ذكر كفاية

لتقدير موقف الامام الشوكاني . ويمكن أن نقيس عليه بقية كلامه . ونعرف أنه

- رحمه الله - كيف وصل الى النبع ثم عاد على أدراجه !

انه وضع يده على وجوه المناسبة . ولكنه عدل بها الى غير وجهها . وأراد

أن يستدل بوجودها على عدسها !!

كلمة موفقة للامام الزركشى :

ولا شك أن الامام الزركشى - رحمه الله - كان موفقا في مقاله ان قال :
 " ذكر الآية بعد الأخرى ، اما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام
 بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح . وكذلك اذا كانت الثانية للأولى على
 جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد وهذا القسم لا كلام فيه " السى
 أن قال :

" وقد تكون العلاقة بينهما المضادة ، وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب
 والرفعة بعد الرهبة . وعادة القرآن اذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا
 ليكون ذلك باعثا على الجمل بما سبق . ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ، ليملم
 عظم الأمر والناهي " .
 وقال - رحمه الله - :

" القسم الثانى ألا تكون معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام .
 وهى قرائن معنوية مؤدنة بالربط . والأول مزج لفظى ، وهذا مزج معنوى .
 تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثانى ، وله أسباب :
 أحدها : التظهير ، فان الحاق النظر بالنظير من دأب المقلد .
 والثانى : المضادة ، وحكمه التشويق والشبوت على الأول كما قيل : " ومخدوما
 تتبين الأشياء .

والثالث : الاستطراد ، ومنه الانتقال من حديث الى آخر تشبيها للسامع " (١)

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/٤٠ - ٥٠ ونجد مثل هذا الكلام للسيوطى
 فى الاتقان ٢/١٠٩ - ١٠٨

ولا نريد أن نطيل ، فالأمر قد بلغ غايته من الموضح والبيان . ولعمرك
 القارئ الكريم لا يستسيغ بعد هذا ، ان استدلال أحد بنزول القرآن في ظروف
 مختلفة وموضوعات متنوعة وقال : ان التماس المناسبة في آياته تكلف وتمسف .
 نعم ، ان التكلف في التماس المناسبة تكلف بلا شك . والتعمسف
 فيه تمسف . وجدير بأن يرفض على طول الخط .

طلب المناسبة ليس تكلفاً :

أما نفس التماس المناسبة فليس عن التكلف في شيء . وانما هو تكليف
 كلف به العلماء . وسادسية أقيت على أعناقهم .
 فلننظر كيف يدعوننا ربنا الى تدبر القرآن والتفكر في آياته . ويشيئني
 على الذين يمشيونه ويطلقون الوقوف في رحابه . وينص على الذين يمسرون
 عليه صما وعميانا . تأمل معنى تلك الآيات :

" كتاب أنزلناه اليك مبارك ليذبوا آياته وليتذكر أولو الألباب " (١)

" أفلا يدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (٢)

" أفلا يدبرون القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
 كثيراً " (٣)

" ومنهم من يستمع اليك حتى اذا اخرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا

العلم ماذا قال أنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم " (٤)

" ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم
 وقرا " (٥)

-
- (١) سورة ص ٢٩
 (٢) سورة محمد ٢٤
 (٣) سورة النساء ٨٢
 (٤) سورة محمد ١٦
 (٥) سورة الأنعام ٢٥

فماذا يعنى ربنا حين يدعونا الى تدبر القرآن والتفكر فى آياته ؟

وماذا ينكر على الذين ينكر عليهم ؟

دلائل من الاشار :

ثم ماذا كان يمثل الصحابه - رضى الله عنهم - حين كانوا يقيمون على
سورة واحدة أعواما طويلا ؟ فقد روى الامام مالك أن ابن عمر - رضى الله عنهما -
أقام على حفظ البقرة عدة سنين ، وقيل ثمان سنين (١)

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرؤنا القرآن
كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى
- صلى الله عليه وسلم - عشر آيات لم يجاوزوهن حتى يتعلموا ما فيها من العلم
والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . (٢)

حتى أن أنسا - رضى الله عنه - يقول :

" كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فى أعيننا " (٣)

فكيف نؤول هذه الايات ؟ وكيف نفّسر تلك الروايات ؟

(١) موطأ الامام مالك / تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي / ٢٠٥/١

(٢) تفسير الطبرى ٢٧/١

(٣) شرح ثلاثيات مسند الامام أحمد للسفارىنى ٢٧٦/٢

ثم كيف كان الرجل يجلس في أعينهم اذا قرأ البقرة وآل عمران ؟
وهل يقصد أنس بحديثه هذا قراءة عادية لا تزيد على أداء الحروف ،
وفقه المفردات ، وفهم الكلمات ، والاطلاع على أسباب النزول ؟
وهل كان ابن عمر يريد - ان أقام على حفظ البقرة ثمان سنين - أو كان
عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما يريدون - ان كانوا يقيمون على
عشر آيات أيّما طويلا - تلك القراءة الظاهرة المأبرة ؟
وهل كان ربهم يطلب اليهم - ان يطلب اليهم تدبر القرآن والتفكير
في آياته - هذا النوع من القراءة والاطلاع ؟

علما بأن الذين وجه اليهم الخطاب ، ونزل عليهم القرآن كانوا أصحاب
اللسان وفرسان الكلام . وكانوا بين أديب لا يبارى وبلغ لا يشق له غبار .

قول وجيه لابن خلدون :

ولقد أصاب ابن خلدون - رحمه الله - ان قال :
" ان القرآن نزل بلفظة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم
يفهمونه ويملمون معانيه في مفرداته وتراكيبه . " (١)

نعم ، اذا كانت اللفظة لفتهم ، والأسلوب أسلوبهم ، والحديث حد يشبههم ،
فلا جرم أن كل واحد منهم كان يفهم معاني القرآن بمجرد سماعه له . ولذلك
لا نجد في أي رواية صحيحة أن أحدا من الصحابة سأل رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - عن معنى كلمة من كلمات القرآن أو آية من آياته . ؟؟؟

(١) تاريخ ابن خلدون ٢٦٦/١

وهذا تعلم أن الله - سبحانه وتعالى - كان يطلب منهم أكثر من ذلك الفهم ، إذ كان يحثهم على تدبر القرآن .

فما هو الأكثر إذا لم يكن هو معرفة ناسخه والبحث عن رباط آياته ، والاطلاع على حكم غالبية أودعت في نظامه ؟

هل طلب المناسبة تكلم بالرأى ؟

أما القول بأن طلب المناسبة في الآيات تكلم بسدس الرأى المنهس عنه فهو قول مبانج للصواب . وليس له سند من العلم أو القياس ، فان التفسير بالرأى - كما فسّره العلماء - هو التفسير الذي لا يستند الى دليل أو حجة . وليس له أصل من الكتاب والسنة أو أساليب اللغة . وانما هو يكون وليد الهوى ، أو نتيجة لقلّة الفقه وعدم الاطلاع . مثل أن يعرف الرجل الحق . ولكنه يميل الى شىء ويهواه ، فيتأول القرآن وفق ميله وهواه . ولو لم يكن له ذلك الميل والهوى لما لاح له ذلك التأويل .

أو تكون الآية محتملة لوجه من التأويل فيحطها على ما يوافق رأيه وهواه ، ويهمل الوجوه الأخرى . وان كانت أوفق بطبيعة السياق ونظام الآية وكانت أقوى حسب قواعد وأساليب اللغة .

أو يكون له غرض صحيح ولكنه يستدل عليه بما لا يمتّ اليه بصلّة . ولعل ذلك لقلّة وعيه وقلّة بضاعته من العلم ، كما أن رجلا يدعو الى مجاهدة النفس ويستدل عليه بقوله - تعالى - :

* اذهب الى فرعون . انه طغى * (١)

ويفسر فرعون بالنفس .

فهذا كنه من التفسير بالرأى النهي عنه ولا شك .
 أما اذا كان التفسير بحيث يتفق مع السياق ولا يتعارض مع الصحاح ،
 ويتمشى مع طبيعة اللغة وأساليبها ، فكيف يقال انه تفسير بالرأى ؟
 وان سماه أحد تفسيراً بالرأى فلا شك أنه قال ما ليس له به علم . وهو
 يحسبه هيئنا وهو في الواقع عظيم !
 ثم ان كان هذا تفسيراً بالرأى ، فما هو التفسير المطلوب ، الذي كان
 عليه السلف الصالح ؟

التفسير بالرأى كما يراه الفزالي :

وللامام الفزالي - رحمه الله - جولات رائعة في هذا الباب . فلا بد
 أن نمرّ عليها ولو مرّاً سريعاً . يقول - رحمه الله - :
 " فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً
 ومتسعاً بالفا . وأن المنقول من ظواهر التفسير ليس ينتهي الادراك فيه .
 فاما قوله - صلى الله عليه وسلم - : " من فسّر القرآن برأيه " ونهيه عنه
 - صلى الله عليه وسلم - وقول أبي بكر - رض الله عنه - " أى أرض تقلنى
 وأى سماء تظلنى اذا قلت فى القرآن برأى " ؟ الى غير ذلك مما ورد فى
 الأخبار والآثار فى النهي عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو اما أن
 يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال
 بالفهم . أو المراد به أمر آخر . وماطل قطعا أن يكون المراد به ألا يتكلم
 أحد فى القرآن الا بما يسمعه لوجوه :
 أحدها : أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - ومسنداً اليه وذلك مما لا يصادف الا فى بعض القرآن . فأما

ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي ألا يقبل ، ويقال ، هو تفسير بالرأى ، لأنهم لم يسموه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكذا غيرهم من الصحابة - رضوا الله عنهم - .

والثاني : أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها . وساع جميعها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محال . ولو كان الواحد سموعا لرد الباقي . فتبين على القطع أن كل مفسر قال في السمنى بما ظهر له باستتباطه ، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعاً أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل : إن " التـر " هي حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف لله واللام لطيف . والراء رحيم ، وقيل غير ذلك . والجمع بين الكل غير ممكن . فكيف يكون الكل سموعا ؟

والثالث : أنه - صلى الله عليه وسلم - دعا لابن عباس - رضوا الله عنه - وقال : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " فان كان التأويل سموعا كالتنزيل وصحفوظا مثله ، فما معنى تخصيصه بذلك ؟

والرابع : أنه قال - عز وجل - : " لعلمه الذين يستنبطونه منهم " فأثبت لأهل العلم استنباطا . ومعلوم أنه وراء السماع .

وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال . فبطل أن يشترط السماع في التأويل . وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدّ عقله .

وأما النهي فانه ينزل على أحد وجهين :

النهي على أحد وجهين :

أحدهما أن يكون له في الشيء رأى واليه ميل من طبيعته ومساواة . فيتأول

القرآن على وفق رأيه ، وهواه ليحتج على تصحيح غرضه . ولولم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك السمنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك . ولكن يلبس به على خصه . وتارة يكون مع الجهل ولكن اذا كانت الآية محتلة فيميل فهمه الى الوجه الذى يوافق غرضه . ويرجسح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه . أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير . ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن . ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به . كمن يدعو الى الاستنفار بالأسحار فيستدل بقوله - صلى الله عليه وسلم - : " تسحروا فان فى السحور بركة " ويضع أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل . وكالذى يدعو الى مجاهدة القلب القاسى فيقول : قال الله - عز وجل - : " اذهب الى فرعون انه طغى " ويشير الى قلبه ويوصى الى أنه المراد بفرعون . وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع .

وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتضليل الناس ودعوتهم الى مذهبهم الباطل . فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به .

فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى . ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح .

والرأى يتناول الصحيح والفاسد . والموافق للهوى قد يخص باسم الرأى .

والوجه الثانى : أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر المرهبة من غير استئذان بالسماح والنقل فيما يتعلق بخرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة ، وما فيه من الاختصار والحذف ، والاضمار والتقديم والتأخير .

فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلظه ودخل في زمرة من يفسر بالرأى * (١)

رأى الامام ابن تيمية :

ويقول الامام ابن تيمية - رحمه الله - :

* فأما تفسير القرآن بمجرد الرأى فحرام . ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى . . .
فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحريجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به . فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه * (٢)

لفتة هامة للفراهي :

وللامام الفراهي لفتة هامة في هذا الباب ، حيث يقول - رحمه الله - :
* لما رأى أهل السنة أن أهل البدعة والباطل جعلوا يؤثرون القرآن بالهوى ويحطون النصوص على غير مرادها ، تحرّجوا من الاشتغال بالأقاويل في التفسير الا ما روى عن الصحابة والتابعين . ولا شك أنهم لم يريدوا بذلك الا سدّ الأبواب الفتنة . وكان ذلك هو الطريق . فإن التأويل اذا لم يؤسس على قواعد ، التي تكون فارقة بين الحق والباطل ، لم يمنع عن القول بالرأى المعص .

(١) احياء علوم الدين للغزالي ١/ ٢٩٠-٢٩١

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص : ٤٦-٥٠

وأما الصحابة والتابعون فأولوا القرآن بالعلم والنظر الصحيح ، فإن
تصفحنا الأصول التي جروا عليها كانت لنا أسوة حسنة في تدبر كتاب الله .
وقد جمع أهل التأويل نبذا من أقوالهم ولكنهم لم يجمعوا أصول تدبرهم .
والحاجة الى ذلك شديدة ، فان الله - تعالى - أوجب التفكير في كتابه
بصريح القول في غير ما آية . وقد حث النبي - صلى الله عليه وسلم - على
ذلك وعلمهم النظر والاستنباط . وكان ذلك ما فرض الله عليه .

وان غلب على أكثر الناس أن القول بما لم يرو عن السلف هو القول بالرأى ،
فصار ذلك مانعا عن التفكير والتدبر واحتجنا الى بيان الفرق بين القول
بالرأى المنهين عنه وبين طريق السلف الذين تفكروا وتدبروا في القرآن ،
والى بيان الحاجة الشديدة الى استعمال الفكر والتدبر في كتاب الله .
من المجالِب بل من المصائب أن يشتبه الحق بالباطل عند أهل الحق
فيتمصّبون للباطل ويمشرون في وضح النهار بعد ما جاءتهم الهيئات .
فمن ذلك حرموا الفكر والنظر في آيات الله المشهودة والمنطوية ، وجعلوا
السنة بدعة والبدعة سنة . وذلك بعد أن علموا أن القرآن قد حث على
الفكر والتدبر في كليهما . وأن الصحابة - رضى الله عنهم - كانوا
يتدبرون القرآن ويقولون بما فهموا منه ، وينقلون ذلك عنهم (١)

حقائق في ضوء النصوص :

تلك النصوص توقفتنا أمام حقائق لا بد من بيانها :

(١) التكميل في أصول التأويل ص ٨ ، ٩

- (١) محايشة كتاب الله ، والتفكر في آياته ، والبحث عن أسراره وحكمه ، والفحص عن كنوزه وفراشه بأسلوب علمي نزيه ، مع اخلاص النية والتجرد لله ، فضيلة وممعدة حثّ عليها ربنا ، وسنة سنّية كان عليها أسلافنا الصالحون - رضی الله عنهم - .
- (٢) محاولة الوصول الى أسرار كلام الله تحت أصول محكمة وقواعد ثابتة لا تسمى تفسيرا بالرأى .
- (٣) التصدي لتفسير كتاب الله تحت سيطرة الهوى ، أو بدو كفاءة عظيمة كافية هو التفسير بالرأى الضمى عنه في دين الله .
- (٤) انما كره من كره المدول عن تفسير ما شور الى تفسير آخر خوفا من الهدعة سدّا لأبواب الفتنة والا فاعمال الفكر والروية في كتاب الله ومحاولة الكشف عن أسراره وعطومه واجب من واجبات علماء الأمة .
- (٥) الصحابة - رضی الله عنهم - كانوا يجتهدون رأيهم وما كانوا يمتتمون عن تفسير القرآن اذا لم يكن عندهم شيء من رسول الله . ومعظم التفاسير السروية عنهم نتيجة لتدبرهم وتفكرهم في كتاب الله .

النور نور وليس ظلاما :

بعد ما تأكدت لنا تلك الحقائق نطك الجزم بأن طلب المناسبات في الآيات ليس من التفسير بالرأى . وانما هو - اذا كان مع رعاية سياق ونظام الكلام ، وكان متضمنا مع قواعد اللفظة وأساليب البيان - علم عظيم من علوم القرآن وناحية كبيرة من نواعي جماله واعجازه . وهو ما حثّ عليه ربنا ، ان قال :

* كتاب أنزلناه اليك مبارك ليذّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب * (١)

ولقد أخطأ من قال : انه تكلم بالرأى المنهى عنه ، فانه سعى النور
بالظلام وسوى الفرائد بالأحجار وشتان بينهما !

اللهم الا اذا خاض أحد في هذا الميم ولم يحسن سياحته وخرج منه
بتكلفات وتمسقات لا تتسجم مع طبيعة القرآن وجمال أسلوبه ، فلا شك
أنه من التفسير بالرأى المنهى عنه في دين الله .

الفصل الثانى

الشبهة الثانية وتقويمها

أما الشبهة الثانية فهي أضعف من أختها ، فانها نسجت على أن ترتيب الآيات والسور ليس من عند الله وانما هو من عمل الصحابة ، الذين تصدوا لجمع القرآن بعد رسول الله .

ولا شك أن هذه شبهة داحضة بنفسها ، لا يروج قبولها الا عند من أغض عينيه عن جميع مصادر العلم الصحيح ، من القرآن والسنة واجماع الأمة .

جمع القرآن وتدوينه فى ضوء القرآن :

فالقرآن نفسه يبين عن نفسه ويكشف القناع عن ترتيبه . ويبين لنا بوضوح أنه مطابق تماما للأصل الذى فى اللوح المحفوظ . ولا فرق بينه وبين الصحف التى فى أيدي الملائكة المقربين . تدبر معنى تلك الآيات :

" كلاً ! انها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة ، مرفوعة ، مطهرة . بأيدى سفرة كرام بردة " (١)

" انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . وانه فى أم الكتاب لدينا لملئى حكيم " (٢)

" بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ " (٣)

(١) سورة عس ١١-١٦

(٢) سورة الزخرف ٣-٤

(٣) سورة البروج ٢١-٢٢

ثم القرآن يفيدنا بصراحة لا تحتل الشك والمراء ، أن الله - سبحانه -
وتعالى - هو الذي تولى جمعه وترتيبه حيث يقول :

" لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرآنناه
فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه " (١)

كما أنه - تعالى - تكفل بحفظ هذا القرآن حيث يقول :

" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (٢)

ولا شك أن حفظ القرآن يتضمن حفظ نظمه وترتيبه فان نظم الكلام جزء
من الكلام . أو بمبارة أصح وأدق : ان نظم الكلام هو الكلام وفوات
نفس الكلام .

استنباطات قيّمة من القرآن :

ولقد دبت براعة الامام الفراهي - رحمه الله - في تفسير سورة القيامة تحت
آيات : " لا تحرك به لسانك ثم ان علينا بيانه " كلاما رائعا ، نرى من
حق القارئ علينا أن نشبهه هنا . يقول - رحمه الله - :

" لا يخفى عليك أن قوله - تعالى - : " ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا
قرآنناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه " احتوى ثلاثة أسور :

الأول : أن القرآن يجمع في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقرأ عليه بنسق
واحد ، فانه لو أنجز هذا الوعد بحد عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -
لم يأمره باتباعه .

(١) سورة القيامة ١٦ - ١٩

(٢) سورة الحجر ٩

والثاني : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية ، التي تكون بعد الجمع . ولينص للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يلقي عليه شيء من الوحي ، ولا يبلغه الأمة عقلا ولما أمره الله - تعالى - في قوله :

" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " (١)

أما عاما . فلا بد أن علم النبي - صلى الله عليه وسلم - الأمة قراءته الأخيرة ، التي عليه القرآن في اللوح المحفوظ ، فإن العرضة الأخيرة لا بد أن تكون مطابقة للأصل .

والثالث : أن بعد هذا الجمع والترتيب بين ما شاء الله بعبارة من التعميم والتخصيص والتكميل والتخفيف . وقد وقعت هذه الأمور الثلاث ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ عليهم سورة القرآن كاملة . وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص فأخذ وبما منه . وكان يأمرهم بوضع الآيات في محلها اللائق بها . ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبينة ضمنها للقرآن . فترى هذه المبيّنات رسا وضعت بجانب ما تبينه وحينما في آخر السورة ان كانت متعلقة بعمودها .

ونرى في أكثر هذه الآيات تصريحها بأنها بيان من الله - تعالى - كقوله - عز من قائل - :

" كذلك يبين الله آياته للناس "

ثم عرض عليه جهريل الأمين عرضة أخيرة بعد تمام القرآن ، كما جاء في الخبر الصحيح المتفق عليه . وهذا يزيل أكثر مضلات النظام . ولمظم شأنه بيناه في كتاب تاريخ القرآن . وأشرنا الى هذه المسألة في ريباجسة الكتاب . فليكننا هذا القدر ههنا * (١)

حكمة طلب الشهود من يأتي بآية :

ثم تطالمننا في كتابه * دلائل النظام * تلك السطور عن نفس الموضوع ، حيث يقول - رحمه الله - :

* قال الشيخ الامام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي المتوفى خمسين وأربعمائة في كتابه السمي بأعلام النبوة * ص ٤٣ في ابطال شبهة من زعم أن أسلوب القرآن لم يكن متباينا عن سائر الكلام ، لزعمه أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يطلب شهودا من يأتي بآية أو آيتين . فقال الماوردي - رحمه الله تعالى - :

* والثاني : أنه طلب الشهادة على محلها من أية سورة هي ، وفي أي موضع منها توضع ، وان كان معلوم الأسلوب بالجمالية ، لأن الله - تعالى - كان يأمر به وضع ما أنزله فيما يراه من السور لقوله - تعالى - : * ان علينا جمعه وقرآنه * انتهى قول الماوردي .

ولا يخفى من قوله أنه فهم من الآية أن جمع القرآن وترتيبه كان من الله - تعالى - فكان القرآن في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - مرتبا كل سورة وآية ولفظة كانت موضوعة في محلها . وأما الصحابة - رضي الله عنهم - فطلقوا ما تلقوه من النبي - صلى الله عليه وسلم - حسب ذلك الترتيب .

(١) تفسير سورة القيامة ص ١٥-١٦

ثم في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - بدأوا في جمع الحديث في كتبهم
 مصنف واحد . قال الطبري في تاريخه في صدره من حديث رسول الله
 عن أحزاب . ما يؤيد حبه من المحافظة على ما كان يقرأه أحد من
 النبي - صلى الله عليه وسلم - فكانوا لا يكتبون في المصنف الا بمسند
 شهادتين أو أكثر . شهادة من حفظ قارئ وشهادة من كتابة . وهذه
 الشهادة لم يطلبها عمر - رضي الله عنه - ليعلم أنه من القرآن ، لأنهم
 كانوا يعرفون أسلوب القرآن ويميزونه من غيره ، ولكن ليعلم محلّه - وهذا
 ما أراد الماوردي - رحمه الله تعالى - .

ولا يخفى أن الشهادة لها فوائد غير ذلك . ولكن نقلنا قول الماوردي
 لتعلم أنه - رحمه الله تعالى - فهم من آية : " ان علينا جمعه وقرآنه " .
 ما عدوا التأويل عندي . والله أعلم بالصواب " (١)

تلك لوائح طوح للباحث من داخل القرآن نفسه . وهي تفيد أن القرآن
 الذي بأيدينا هو هو ، الذي نزل به الروح الأمين ، على قلب نبينا الكريم ،
 مصوناً عن أي زيادة أو نقصان ، بريلاً من أي تقديم أو تأخير .

روايات في أن ترتيب الآيات من عند الله :

كما أن هناك من الصحاح ما يدلّ على أن هذا القرآن الذي بأيدينا ،
 هو نفسه عند ربنا في أم الكتاب وأن الصحابة - رضي الله عنهم - تلقوه من نبيهم
 بنظمه وترتيبه ، ثم أدوه اليها كما أخذوه من غير تقديم فيه أو تأخير .

ولا بأس بأن نمرّ على نبذة من تلك الروايات ، حتى تكون ماثلة في أذهاننا :

(١) " عن عثمان بن أبي العاص قال كنت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

جالسا إذ شخص ببصره ثم صوّه حتى كاد أن يلزقه بالأرض قال ثم شخص

ببصره فقال أتاني جبريل - عليه السلام - فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا

الموضع من هذه السورة : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى

القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يمظكم لعلكم تذكرون " (١)

(٢) " وعن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : هذه التي في البقرة " والذين

يتوفون منكم ويذرون أزواجا " الى قوله " غير اخراج " قد نسختها

الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ قال نعمها ؟ يا ابن أخي ، لا أغير شيئا منه

من مكانه " (٢)

(٣) " وعن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - أنه قال : " كان النبي - صلى الله

عليه وسلم - ما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له :

" ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا " وتنزل عليه

الآية والآيتان فيقول مثل ذلك " (٣)

(٤) " وعن ابن عباس قال كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعرف فصل

السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم " .

" وعنه قال كان المسلمون لا يملعون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله

الرحمن الرحيم فاذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد

انقضت " (٤)

(١) سند الامام أحمد بن حنبل ٢١٨ / ٤

(٢) صحيح البخارى مع فتح البارى ١٥٠ / ٨

(٣) سنن أبى داود . كتاب الصلاة رقم ٧٨٦

(٤) السنن الكبرى للبيهقى ٤٣ - ٤٢ / ٢

- (٥) روى الشيخان وغيرهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
 " من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه " (١)
 وروى مسلم عن أبي الدرداء - رضى الله عنه - مرفوعاً :
 " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال " (٢)
 وروى مسلم عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال :
 " ما راجعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شيء ما راجعت في
 الكلاله . وما أغلظ لى في شيء ما أغلظ لى فيه حتى طمئن باصبعه في
 صدرى . وقال : يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة
 النساء " (٣)
- (٦) تضافرت الروايات على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ سوراً
 كاملة في صلاة بخشهد من الصحابة . ففي حديث حذيفة ، الذي رواه
 مسلم أنه قرأ في صلاة ذات ليلة البقرة وآل عمران والنساء . (٤) وفي
 صحيح البخارى وسنن أبي داود والنسائي أنه قرأ الأعراف في صلاة
 المغرب . (٥)
- وروى مسلم أنه - عليه السلام - كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة
 " بالآية تنزيل السمكة " " وهل أتى على الانسان حين من الدهر " (٦)

-
- (١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة رقم ١٣٩٧ والبخارى في فضائل القرآن
 وسلم في الصلاة رقم الحديث ٧٠٨
- (٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/٦
- (٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٥٧/١١ كتاب الفرائض .
- (٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٦١/٦
- (٥) رواه البخارى ٢/٢٠٤ ، ٢٠٥ باب القراءة في المغرب وأبو داود في
 الصلاة رقم ٨١٢ والنسائي ٢/١٦٩ - ١٧٠ باب القراءة في المغرب .
- (٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٨/٦

وفي صحيح مسلم أنه - عليه السلام - كان يقرأ " بق والقرآن المجيد " على المنبر في كل جمعة ^(١) وعند مسلم أنه - عليه السلام - كان يقرأ في الأضحية والفطر " بق والقرآن المجيد " و " اقتربت الساعة وانشق القمر " ^(٢)

وعنده أيضا أنه - عليه السلام - كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة في السجدة الأولى وفي الآخرة " اذا جاءك المنافقون " ^(٣) وعن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - قال تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا . فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلا فجمعنا ، فقرأ علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها ^(٤)

إلى غيرها من الروايات الكثيرة التي جاءت من هذا القبيل .

حقائق في ضوء الروايات :

تلك الروايات توقفنا أمام حقائق آتية :

- (١) ترتيب الآيات ليس من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما كان جهريلا - عليه السلام - هو الذي يحدّد لكل آية مكانها طبقا لما في اللوح المحفوظ . ثم هو الذي كان يملئه بتعام السورة اذا انتهت .

- (١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٠/٦ - ١٦١
 (٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨١/٦
 (٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٦/٦
 (٤) أخرجه الترمذي في التفسير رقم (٢٢٠٦) وصحّحه الحاكم ٤٨٧/٢ وأخرجه أحمد في السند ٤٥٢/٥ .

- (٢) كان من شدة معافضة النبي - صلى الله عليه وسلم - على هذا الترتيب أنه كان يطيه على كتاب الوحي بمد ما ينجلي عنه الوحي مباشرة .
- (٣) الصحابة - رضی الله عنهم - التزموا بهذا الترتيب التزاماً كاملاً كما يدل عليه قول سيدنا عثمان : " يا ابن أخي ، لا أغير شيئاً من مكانه " .
- (٤) كان هذا الترتيب مألوفاً لدى الجميع . وكان يصرفه كل صغير وكبير . ولذلك نرى النبي - صلى الله عليه وسلم - يكتفى بالإشارة فيقول " آخر سورة البقرة " أو " أول سورة الكهف " أو " آخر سورة النساء " وما إلى ذلك .
- (٥) كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ سورة كاملة مرتبة في صلاته بمشهد من الصحابة . ومن المستحيل أن يرى الصحابة - رضی الله عنهم - شدة اهتمام النبي - صلى الله عليه وسلم - بترتيب الآيات ، ثم يتساهلوا فيه ، أو ينصرفوا عنه إلى غيره .
- والنظر إلى تلك الحقائق الظاهرة لم يكن للأمة إلا أن تجمع على أن هذا القرآن صورة طبق الأصل لما في اللوح المحفوظ . وقد حصل ذلك فعلاً والحمد لله .

أجماع الأمة على أن ترتيب الآيات من عند الله :

قال الامام الزركشي - رحمه الله - :

" فأما الآيات في كل سورة ووضع البسطة أو ألقاها فترتيبها توقيفي بلا

شك ولا غلاف فيه ولهذا لا يجوز تعكسها " (١)

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٥٦

وقال الامام السيوطي - رحمه الله - :

" الاجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي ولا شبهة
في ذلك " (١)

وقال القاضي ابوبكر - رحمه الله - :

ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضموا
آية كذا في موضع كذا " (٢)

وقال الامام البغوي - رحمه الله - :

" الصحابة - رض الله عنهم - جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله
الله - سبحانه وتعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - من غير
أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئا . انهم كتبوه كما سمعوا من رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - من غير أن قدموا شيئا أو أخرجوا أو وضعوا
له ترتيبا لم يأخذه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يلقي أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه
من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاعفنا بتوقيف جبريل
- صلوات الله عليه - اياه على ذلك ، واعلامه عند نزول كل آية
أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا .
فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة . وكان هذا الاتفاق من الصحابة
سببا لبقاء القرآن في الأمة رحمة من الله - عز وجل - على عباده
وتعقيقا لوعده في حفله " (٣)

(١) الاتقان في علوم القرآن ٦٠ / ١

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٥٦ / ١

(٣) شرح السنة ٥٢٣ - ٥٢١ / ٤

ترتيب السور توقيفي :

بعد ما ثبت الاجماع على أن ترتيب الآيات ليس هكذا اعتباطا . وأنه أمر توقيفي ، نضيف اليه فنقول : ان ما جرى في ترتيب السور لا يختلف عما جرى في ترتيب الآيات ، وما حصل هنا الا ما حصل هناك . فكما أن الآيات وضعت في المصحف في مواضعها من أم الكتاب فكذلك السور أيضا ما وضعت الا في مواضعها منه . وكان جهيل - عليه السلام - هو الذي يحدّد للنبي - صلى الله عليه وسلم - مواضعها ثم هو كان يحدّد لها للصحابة .

فالمصاحف المتداولة في الأمة ليست الا على النسق الذي ترك عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - أمته . وما جاء في الروايات أنه كان يوجد في بعض مصاحف الصحابة اختلاف في ترتيب السور فهو خطأ في خطأ . وليس الا محاولة من محاولات التشكيك في القرآن .

نأخذ - مثلا - علياً وأبي بن كعب وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم - وهم من كبار الصحابة وطماء القرآن - هل يعقل أن يكون قد تمّ هذا العمل من جمع القرآن وقد بينه في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - ثم نسخه في عهد عثمان - رضي الله عنه - بدون اشتراكهم أو اطلاعهم ؟

وهل يعقل أن يرمى بأقوالهم عرض الحائط ، ان كانت لهم أقوال فسي

نسق السور وترتيبها ؟

ثم اذا تمّ الاجماع من الصحابة على هذا الترتيب فهل يعقل منهم - الاصرار على مخالفة اجماع الصحابة ومخالفة خلفاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالاحتفاظ بمصاحفهم المتفائرة في الترتيب للترتيب الثابت عند الجميع؟ تلك الملابسات كلها تجعلنا نشك في صحة الروايات التي تفيدنا أنه كانت هناك في أيدي بعض الصحابة مصاحف مخالفة لمصحف عثمان في الرسم والترتيب

ولو كان لعليّ - رضى الله عنه - مصحف مخالف لمصحف أبي بكر وعثمان - رضى الله عنهما - في ترتيبه لعرض عليه الشبهة بالنواجذ كدأبهم في الأشياء التي تكون من هذا القبيل . علما بأنه لم يمشر على هذا المصحف أحد وما رآه . ولقد روى عن محمد بن سيرين أنه قال :

" تطلّبت ذلك الكتاب وكتبت فيه الى المدينة فلم أقدر عليه " (١)

ومن هنا نطك الجزم بأنه لم يكن في الأمة قط قرآن غير هذا القرآن . ولم يعرف له ترتيب غير هذا الترتيب . فان هذا الترتيب من عند الله وليس من عند الناس كما أن هذا القرآن من عند الله وليس من عند الناس .

نظم السور دليل على أنه توقيفي :

وللامام السيوطي - رحمه الله - نكتة لطيفة في هذا الباب ، فانه يستدل

بنظم السور على أن ترتيبها توقيفي .

يقول - رحمه الله - :

" قلت وما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء وكذا الطواسين .

ولم ترتب المسبحات ولاء . بل فصل بين سورهما . وفصل بين " طسم "

الشعراء و " طسم " القصص " بطس " مع أنها أقصر منهما . ولو كان

الترتيب اجتهاديا لذكرت المسبحات ولاء وأخبرت " طس " عن القصص. " (٢)

وللامام الزركشي - رحمه الله - أيضا لفتة الى هذا الجانب ، حيث يقول :

" لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن

حكيم " (٣)

(١) الاتقان في علوم القرآن ٥٨ / ١

(٢) الاتقان في علوم القرآن ٦٣ / ١

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢٦٠ / ١

روايات في أن ترتيب السور توقيفى :

ثم هناك روايات تقطع بأن ترتيب السور في مصحفنا ليس من عمل الصحابة الذين تصدوا لجمع القرآن . وإنما هو ما تلقوه من رسولهم - صلى الله عليه وسلم -

فمن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال في بنى اسرائيل والكهف وسريه ووله والأنبياء :

" انهن من العتاق الأول وهن من تلامى " (١)

وعن أوس بن أبى أوس حذيفة الثقفى قال : " كنت في الوفد الذي أسلموا من ثقيف . فذكر الحديث وفيه :

" فقال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طراً علىّ عزي من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أفضيه " قال فسألنا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا :

" نحزّ به ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور واحد عشر وثلاث عشرة وحزب المفصل من " ق " حتى تختم " (٢)

وعن ابى عبد الرحمن السلمى قال : كانت قراءة أبى بكر وعمر وعثمان وزيد ابن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة . كانوا يقرؤون قراءة العامة . ويسمى القراءة التي قرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه . وكان على طول أيامه يقرأ مصحف عثمان ويتخذها اماماً .

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى ٣٧/٩ باب تأليف القرآن .
 (٢) رواه أبو داود في باب تحزيب القرآن رقم ١٣٩٣ وأخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة باب في كم يستحب أن يختم القرآن رقم ١٣٤٥ .

ويقال ان زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله - صلى الله عليه وسلم على جبريل - عليه السلام - . وهي التي بين فيها ما نسخ وما بقي .

قال ابو عبد الرحمن السلمي : قرأ زيد بن ثابت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العام الذي توفاه الله فيه مرتين . وانما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقرأها عليه . وشهد العرضة الأخيرة . وكان يقرئ الناس بها حتى مات . ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه ، وولاه عثمان كتابة المصاحف - رضي الله عنهم أجمعين - (١)

وقال عثمان - رضي الله عنه - " ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان ما ينزل عليه من السور التي يذكر فيها كذا وكذا فإذا أنزلت عليه الآيات يقول ضموا هذه الآيات في موضع كذا وكذا . فإذا نزلت عليه السورة يقول ضموا هذه في موضع كذا وكذا . " (٢)

تلك الروايات توحي إلينا بكل اصرار أن السور في مصاحفنا هذه على نفس الترتيب ، الذي كانت عليه في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - هو الذي حدد لكل سورة مكانها في المصحف حسبما أمره جبريل - عليه السلام - .

أما رواية ابن سمعود - رضي الله عنه - فهي في غاية الوضوح دلالة على هذا المعنى فان السور فيها جاءت نسقا كما هي في المصحف الآن .

(١) شرح السنة ٤/٥٢٥-٥٢٦

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٤٢/٢

أما الرواية الثانية- وهي رواية أوس- فهي أيضا واضحة في دلالتها فان عدد السور من الحقرة الى الحجرات ثمانية وأربعون . وجميع عدد السور المحزّبة في الرواية أيضا ثمانية وأربعون . فهذه دلالة حاسمة على أنّ ترتيب السور لم يخطف شيئا عما كان عليه في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

أما الرواية الثالثة - وهي رواية أبي عبد الرحمن السلمي - فهي تفيد أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يجلس مع جبريل - عليه السلام - في كل رمضان . وكان يقرأ عليه كل ما نزل عليه من القرآن . فلما كان عامه الأخير عرض عليه القرآن كله مرتين . وكانت المراجعة الأخيرة تضمّ معهما زيد بن ثابت - رضی الله عنه -

فهل كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعرض السور على جبريل - عليه السلام - بدون ترتيب ، وكان يسردا سردا كيفما اتفق ؟ أم كان هناك ترتيب حكيم يلتزمه في كل مرة ؟

ثم اذا كان معهما زيد بن ثابت في المراجعة الأخيرة . وسمع القرآن كله من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بترتيب خاص ونسق معين في سورة وآياته ، فهل يتصور عنه أن يعدل عن ذلك الترتيب حين وكلّ اليه جمع القرآن في عهد أبي بكر - رضی الله عنه - ؟

أما الرواية الأخيرة وهي رواية عثمان - رضی الله عنه - فهي أيضا صريحة في هذا المعنى ، فانها تفيد أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - هو الذي كان يرشد الى موضع كل سورة في المصحف بعدما كان ينجلي عنه الوحي . وكان يرشد حسبما كان يوحى اليه جبريل - عليه السلام - .

تلك الملابس كلها تلزمنا الزاما بأن نقول - كما قلنا آنفا - :

لم يكن في الأمة قطّ قرآن غير هذا القرآن . ولم يعرف له ترتيب غير هذا الترتيب ، فان هذا الترتيب من عند الله ، كما أنّ هذا القرآن من عند الله .

ولسنا نحن متفردين بهذه الفكرة - والحمد لله - بل هناك لغير من
الأئمة سبقونا بهذه الفكرة ولهم أقوال وجيهة في هذا الباب .

شبه اجماع على أن ترتيب السور توقيفي :

قال الكرمانى فى البرهان :

" ترتيب السور هكذا هو عند الله وفى اللوح المحفوظ ، وهو على هذا
الترتيب كان يعرض - عليه السلام - على جهريل - عليه السلام - كل سنة ما كان
يجتمع عنده منه . وعرض عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين " (١)

وقال ابو جعفر النحاس - رحمه الله - :

" المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وروى ذلك عن على - رضى الله عنه - " (٢)

وقال ابو بكر بن الأنبارى - رحمه الله - :

" أنزل الله القرآن كله الى سماء الدنيا ، ثم فرّق فى بضع وعشرين - فكانت
السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر . ويقف جهريل النبى - صلى الله
عليه وسلم - على موضع السورة والآية . فأتساق السور كاتّساق الآيات والحروف .
كأنه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم
الآيات . " (٣)

وقال القاضى ابو بكر - رحمه الله - :

" ومن نظم السور على المعنى والمدنى لم يد ر أين يضع الفاتحة ، لاختلافهم

(١) (٣، ٢، ١) البرهان فى علوم القرآن / ١ - ٢٦٠ - ٢٥٨

في موضع نزولها . ويضطرّ الى تأخير الآية في رأس خمس وثلاثين ومائتين مسن البقرة الى رأس الأربعين . ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به " (١)

وقال ابن الحصار - رحمه الله - :

" ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها انما كان بالوحي . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول : ضموا آية كذا في موضع كذا . وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف . " (٢)

وقال الزركشي - رحمه الله - :

" وأما ترتيب السور على ما هو عليه الان فاختلط ؛ هل هو توقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم - أو من فعل الصحابة ، أو يفضّل ؟ في ذلك ثلاثة أقوال :

مذهب جمهور العلماء ، منهم مالك والقاضي أبو بكر بن الطيب - فجاء اعتمده واستقرّ عليه رأيه من أحد قوليه - الى الثاني . وأنه - صلى الله عليه وسلم - فوض ذلك الى أمته بعده .

وذهبت طائفة الى الأول . والخلاف يرجع الى اللفظ ، لأن القائل بالثاني يقول : انه رمز اليهم بذلك لملمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ؟ ولهذا قال الامام مالك : انما ألقوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النسبي - صلى الله عليه وسلم - مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم قال الخلاف الى

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٠ - ٢٥٨

(٢) الاتقان في علوم القرآن ١/ ٦٢

أنه : هل ذلك بتوقيف قولي أم بمجرد استناد (١) .

ولا نريد أن نطيل على القارئ . فقد بلغ الأمر غاية من الوضوح والبيان . ولم يبق مجال للشك في أن ترتيب الآيات والسور يخطف تماما عن ترتيب نزولها . وأن هذا الترتيب ليس هكذا اعتباطا . وليس من عند الناس . وإنما هو ترتيب حكيم صدر عن عليّ حكيم ، فانه جاء عن طريق الوحي الى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنه الى الأمة .

والامام الشوكاني - رحمه الله - أيضا يمتدح بأن هذا الترتيب يخطف عن ترتيب النزول ، وأنه قد قدم فيه ما نزل متأخرا وأندرها نزل متقدما ، الا أن الذي أفسد عليه القضية ، هو أنه يمتدح هذا التقديم والتأخير من عمل الصحابة الذين تصدوا لجمع القرآن ، بدون أن يستند الى دليل أو برهان . ولا يمتدحه من عند الله مع تضافر الأدلة وانحقاد الإجماع عليه .

ثم هو يمدح من ذلك الى دعوى كهيرة مذهلة ، ويقول :

أي معنى لطلب المناسبة بين آيات القرآن في مثل هذه الحالة ؟
ويسميه تضييع الأوقات وانفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله
ولا على من يقف عليه من الناس .

ولا شك أن هذه الدعوى أصبحت الآن في غنى عن أي تعليق أو تمقيب بعدما ثبت أنها قائمة على غير أساس وأنها أسوأ حالا من خشبة مسندة ، فضلا عن أن تكون لها جذور ثابتة راسخة .

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٥٧/١

الفصل الثالث

الشبهة الثالثة وتلويحها

بقيت هناك شبهة ثالثة : وهي أن كلام العرب - في عموم - كسان يحمل طابع الاقتضاب . وكان عاريا عن النظم والارتباط . فلا جرم أن يكون القرآن على شاكله ، لأنه نسج على منواله ، حيث قال الله - تعالى - :

" وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبيّن لهم " (١)

وقال - تعالى - :

" انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (٢)

تلك الشبهة أشارها الامام الشوكاني في تفسيره حيث قال :

" ان الله - سبحانه - وصف هذا القرآن بأنه عربي . وأنزله بلفظة العرب . وسلك فيه مسالكهم في الكلام . وجرى به مجاريهم في الخطاب . وكانست عاداتهم أن يأتوا بفتون متخالفة وطرائق متباينة في العقاب الواحد ، فضلا عن العقاب ، فضلا عن المقامات " (٣)

وسبقه بنفس الشبهة أبو العلاء محمد بن غانم ، حيث قال :

" ان القرآن انما وقع على الاقتضاب ، الذي هو الطريقة العرب من الانتقال الى غير ملام " (٤)

(١) سورة ابراهيم : ٤

(٢) سورة الزخرف : ٣

(٣) فتح القدير ٢٣/١

(٤) الاتقان في علوم القرآن ١٠٩/٢

شبهة لا يقرها الواقع :

تلك الشبهة تبدو بارىء ندى بدىء وجهية وقوية . ولكنها - مشل
أختيها - لا تكاد تثبت أمام النقد . ولا تكاد تروج أبداً إلا عند من لم يتخلع
من لسان المرء ولم يتذوق طعمه .

أما من كان متضلعا من لغة المرء ومدّوقا لأساليبها وعاش فترة في جوهها
ويئتها وعبّ وارتوى من مميّنها ، فهو يعلم علما لا يشوبه شك ، أن المرء كانوا
أبعد الناس عن الاقتضاب وكانوا أرغب الناس في دقة السبك وحسن النظام .
حتى انه كان يعتبر عندهم مقياسا لجودة الكلام وبلاغته . فقد قال بعض بلغاء
المرء :

- " البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره ، وآخره يرتبط بأوله " (١)
وقال بعضهم : " البلاغة شدّ الكلام معانيه وان قصر ، وحسن التأليف وان طال " (٢)
وقال بعضهم : " البلاغة : القوة على البيان مع حسن النظام " (٣)
وقال آخر : " أبلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقلّ مجازه ، وكثرا عجزه وتناسبت صدوره
وأعجازه " (٤)

اهتمام المرء بحسن النظام :

وقال بعض الشعراء - وهو عمر بن لجا - لصاحبه : أنا أشعر منك . قال :
ولم ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه ، وتقول البيت وابن عمّ . (٥)

- (١) الممدّة لابن رشيق ٢٤٤/١
(٢) الممدّة ٢٥٠/١
(٣) الممدّة ٢٤٤/١
(٤) الممدّة ٢٤٦/١
(٥) البيان والتبيين للجاحظ ١٢٨-١٢٧

فلننظر كيف يجعل هذا الشاعر البيت أخا البيت اذا أشبهه وارتبط به
ارتباطا كاملا ، وكان حقه أن يوضع الى جنبه . فأما اذا كان دون ذلك ، فهو
يسميه ابن عمه ولا يعترف له بالأخوة .

ومن هنا نعرف أن العرب ما كانوا يقنعون بوجود الارتباط بين الأبيات
فقط ، فهذا شيء " بدهي " ، ولا بدّ منه بل كانوا - فوق ذلك - يقيسون ضعفه
وقوته وجوده وركاكه . فان كان الارتباط قويا مستجادا نال اعجابهم وتقديرهم ،
والا سقط من أعينهم وأصبح سلعة كاسدة في سوقهم .

وقال نوفل بن سالم لرؤية بن العجاج : يا أبا الجحاف ، مت متى شئت .
قال : وكيف ذلك ؟ قال : رأيت عقبة بن ربيعة ينشد رجزا أعجبنى . قال :
انه يقول ، لو كان لقله قران .

وأشدد ابن الأعرابي :

ومات يدرس شعرا لا قران له قد كان ثقفه حولا فمسا زادا (١)
فنرى أن رؤية لا يميب على ابنه الا عدم تمكنه من القران . وكذا ابن
الأعرابي لا يشكو في بيته الا قلة القران . فان القران هو الذي يعطي الكلام
بهاء . وهو الذي يجعل الكلام كلاما . فان لم يكن فيه قران . فهو ليس كلاما ،
وانما هو نوع من الهذيان .

وأشدد أبو عبيدة في الخطيب يطول كلامه ، ويكون ذكورا لأول غطبتسه ،
وللذي بنى عليه أمره ، وان شغب شاغب فقطع عليه كلامه ، أو حدث عند ذلك

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٠

حدث يحتاج فيه الى تدبير آخر ، وصل الثاني من كلامه بالأول ، حتى لا يكون
أحد كلاميه أجود من الآخر :

فان أحدثوا شغبا يقطع نظمها فانك وصال لما قطع الشغب
ولو كنت نساجا سدوت غطابها بقول كطمع الشهد بالبارد العذب^(١)
وقال أبو العاصي : أنشدني في ذلك أهو الهيداء الرياحي :

(٢) وشمر كعمر الكش فرق بينه لسان دعوى في القريض دخييل
أى كما أن بحر الكش يقع متفرقا ، غير مؤلف ولا متجاور ، فكذلك أجزاء الشمر
تراها أحيانا مختلفة متباينة متافرة ، مع أن الأصل في الشمر أن يكون محكم
النسج ، متلاحم الأجزاء ، متاخلا بعضه في بعض ، حتى كأن القصيدة
بأسرها كلام واحد .

كلمة جميلة لابن رشيق :

ولابن رشيق كلمة جميلة في هذا الموضوع . وهي تدل على دقة نظيره

وتذوقه للشعر العربي . يقول - رحمه الله - :

" ومن الشعر مطبوع ومصنوع . فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا . وعليه
المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكفا تكلف أشعار
المولدين . لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ،
لكن بطباع القوم عفوا . فاستحسنوه ومالوا اليه بمضالميل ، بعد أن عرفوا
وجه اختياره على غيره . حتى صنع زهير الحوليات على وجه التقبيح

(١) البيان والتبيين ١/١٢٢

(٢) البيان والتبيين ١/٤٩

والتثقيف : يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعمق بمد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة . وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك . والمرب لا تنتظر في أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق ، أو تقابل ، فتترك لفظة للفظه أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون . ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالة ، وبسط المعنى وإبرازه ، واتقان بنية الشعر ، واحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلام بمضه ببعض ، حتى عدوا من فضل صنعة الحطيفة حسن نسقه الكلام بمضه على بعض فسي قوله :

فلا وأبيك ما ظلمت قريع	بأن بينوا المكارم حيث شاؤا
ولا وأبيك ما ظلمت قريع	ولا برموالذاك ولا أساؤا
بعثرة جارهم أن ينمشوهما	فيفبر حوله نعم وشاء
فبينى مجددهم ويقم فيها	ويحشى ان أريد به العشاء
وان الجار مثل الضيف يفسدو	لوجهته وان طال الشواء
وانى قد عقلت بحبل قوم	أعانهم على الحسب الثراء

وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد :

فوردن والميوق مقمسد را بهى	الضرباء خلف النجم لا يتلوع
فكر عن فى حجرات عذب يسارد	حصب البطاح تفيب فيه الأكرع
فشرين ثم سمعن حسسادونه	شرف الحجاب وربب قرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترسست بسه	هوجاء هادية وهاد جرشع
فرمى فأنفذ من نخوص عالسط	سهما فخر ورشبه متصمّع
فبداله أقراب هاد رالفيا	عنه فميث فى الكنانة يرجع
فرمى فالحق صاعد ياً مطحسرا	بالكشح فاشتلت عليه الأضلع
فأبدهن حتوفهن فهسارب	بذماله أو بارك متجمجج

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف انكسر له ولم ينحل عقده ، ولا اختل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته آياه لما تمكن له هذا التمكن * (١)

حجة راحضة للأصمى :

ومن هنا نرى ابن رشيق أقرب الى سداد القول وأدرك لطبيعة الموضوع من الأصمى ، إذ يعيب الخطيئة ويقول :

" وجدت شعره كله جيدا ، فدلتني على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع إنما الشاعر المطبوع الذي يرمى بالكلام على عواهنه وجيده على رديله "

ثم القارئ يستغرب حين يرى الامام الشاطبي - رحمه الله - يوافق الأصمى في قوله ويؤيده في رأيه حيث يقول :

" وما قاله (الأصمى) هو الهاب المنتهج والطريق المهيج عند أهل اللسان " (٢)

ليت شعري ، هل جودة القصيدة تنهض دليلا على كونها مصنوعة ؟ وهل يكون عارا على الشاعر أن يكون شعره كله جيدا ؟ وماذا يقولون اذا في زهير وحولياته ؟ وهل نقول : ان زهير لم يكن شاعرا مطبوعا ؟ لأنه لم يكن يرمى بالكلام على عواهنه وجيده على رديله !

علما بأن سيدنا عمر - رضى الله عنه - كان يفضل على سائر الشعراء ، وكان يقول : " أشعر الشعراء صاحب من ، ومن ، ومن "

(١) الممددة لابن رشيق ١/٢٩٩ - ١٣٠

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٢/٨٥

كان يقصد بذلك أبيات الحكمة في مملقته ، تلك الأبيات التي تبدأ بـ (١)

الارتجال من سجية العرب ولا عجب :

وتلك المناسبة تحضرنا كلمة رالمة ناضجة للامام الفراهي - رحمه الله -

حيث يقول :

" من لا يجد في نفسه قدرة على الارتجال يظنّه أمرا بهميذا ، ولا يؤمن به . لا سيما اذا رأى كلاما مليءً بحكمة ودقة وتنوعا واصابة فاذا رأى سرعة تصنيف في أحد ظن أنه انما ألف ما جمع من المطالب في مدة طويلة .
وأما أنا فلا أشك أن الارتجال سواء كان في خطبة أو شعرا وكان في تأليف أو تصنيف حكيم ليس من المستبعد الذي يمدّ محالا ، فانه أمر وقّع ويقع . نعم انه قليل . وأكثر هذا القليل ما هو غير مستجاد . مثلا كلام الرازي - رحمه الله - في سرعة تصنيفه فانه ما جاء الا في وهن كتسحج الصناكب .

ولكن أقرب لك هذا الأمر أضرب لك مثلا مثل الريح الممصرة فحين لا ترى السماء الا كحلبة فاذا برّيح باردة ثم بقطعة غمامة . وبينما ننظر ان هي غطت السماء ثم ما هي الا صبحّ وتسكاب حتى فاض السهل وأفعم المطاح .

فكما أن الجو ممليء بالبخار وصبّ الريح جملة غمامة ثم وابلا ثم سيلا كأن محتلبا يمّسّ ضرع لقحة فكذلك عقلك ممليء خيالا وعلمًا لا تعسّ به . ولا تريد أن تقول أو تكتب شيئا حتى ان وافته باعثة ودعه

داعية أنشأت العجائب لا تدري أين كانت ومن أين جاءت . فسمّيتها
الهاما والقا^١ ولست مخطئا في هذه التسمية .

وليس الارتجال في الأقوال بأعجب من الارتجال في الفعال . ألا ترى
أن العرب كيف بلغوا الفاية في التمدين في قليل من الزمان .
فقوم تراهم يحشون وكانهم واقفون . وقوم يترّون كأنهم برق خاطف .
فإذا سمعت أن العرب كانوا يلقون من غير رويّة خطبا بليغة طويلا ، أو
ينشدون القصائد الفرار ارتجالا أفلا تظنهم أجدر بهذا من أقوام
يديّون دبيب النمل .

وقد علمت من نطقهم في مواسمهم وحرورهم من الخطب والقصائد
والرجز حتى كأنهم لم يطقوا أن يردّوا شقشقة لسانهم وجهش صدورهم
فتراهم أظنّ باسم الحقّ الناطق من سواهم " (١)

وظنّي هذا فلا يصحّ أبدا أن نصرّ على أن الأصل في الكلام العربي هو
الاقتضاب . فإذا فوجئنا بما يخالف ذلك علّناؤه بأنه لا يصلح أن يكون مقياسا
لطبيعة الكلام العربي . وأنه كلام مصنوع وليس ما جاء على طبيعة العرب .
ثم نضيف إليه افتراضا آخر هو أوغل في الخطأ من سابقه . فنقول : ان
القرآن أيضا جاء على الاقتضاب مراعاة لطبيعة العرب .

وهكذا الانسان اذا عثرلجّ به المثار . وانا اهتلى بسزلة تبعثها زلّة
أخرى ، وهن قد تكون أشدّ وأقسى من الأولى .

(١) جمهرة البلاغة للإمام الغزالي ص ٨٣ - ٨٤

منشأ فكرة الاقتضاب :

قد يقال ، اذا كان الأصل في الكلام - ولا سيما في كلام العرب - هو جودة السبك وحسن النظام فكيف شاع في الناس ووقر في الأذهان أن الطابع الغالب في كلام العرب هو الاقتضاب ، وعادتهم في كلامهم هي الانتقال من موضوع الى موضوع غير علام ؟

هذا سؤال وجيه ولا شك . ولا بد أن يثور في ذهن الباحث اذا طرق هذا الموضوع . واذا وقفتنا في الاجابة عليه ، فسيكون هذا ايذانا بأننا كسبنا المعركة وحللتنا المشكلة . فنقول وبالله التوفيق :

اعلم أن العرب لكونهم أغنى الأمم فطنة ، وأخصبهم مادة وأنكاسهم أفدرة كانوا يأنفون فضول الكلام . وكانوا يستحلون منه ما كان على غاية الاحكام . ألا ترى أبا تمام لما أراد أن يمطى المحترى محيارا للكلام المستجاد قال له :

" ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد " (١)

ومثله ما روى عن الشمالي حيث قال :

" البليغ من يحوك الكلام على حسب الأمانى ويخيط الألفاظ على قدر المعانى " (٢)

وكان من المثل السائر عندهم :

" حسبك من القلادة ما أحاط بالمنق " (٣)

وناهديك به شاهدا على ذوقهم وطبيعتهم في كلامهم .

(١) زهر الآداب للقيروانى ١٥٢/١
 (٢) المعده ١٢٨/١ - زهر الآداب ١٥٣/١
 (٣) قيل لمفيل بن علفة : لم لا تطيل الهجاء ؟ فقال ذلك يضرب فى وجوب الاكتفاء من الشئ بما تتم به الحاجة (المستقصى فى أشال العرب ٦٢/٢)

طوع المرء بإيجاز الكلام :

أما الكلام البليغ الذي كان يهزهم ويحوز اعجابهم فهو عبارة عن الإيجاز . وكانت هي ضالة بلغاتهم . كانوا يحومون حولها ولا يجدونها . فإذا وجدها واحد منهم قال كلهم : هي هي . هذي التي كنت أبحث عنها . وكانت هي تجول في نفس . كنت أبحث عنها ولا أجدها .

ونذكر هنا بعض ما قيل في تعريف البلاغة ، حتى نأخذ صورة واضحة عنها ، ونعرف مكانتها عند المرء الأحمق . قال بعض البلغاء :

(١) " البلاغة إجماع اللفظ وإشباع المعنى "

وسئل آخر فقال : " معان كثيرة في الفاظ قليلة " (٢)

وقيل لأحد هم ، ما البلاغة ؟ فقال : إصابت المعنى وحسن الإيجاز (٣)

وقال خلف الأحمر : البلاغة لمحة رالة (٤)

وقال الخليل بن أحمد : البلاغة كلمة تكشف عن الحقيقة (٥)

وقال معاوية لعمر بن العاص : من أبلغ الناس ؟ فقال : من اقتصر على

الإيجاز وتكسب الفضول . (٦)

وقال ابن المعتز : البلاغة بلوغ المعنى ولما يطل سفر الكلام . (٧)

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) المصداة لابن رشيق ٢٤٢/١

(٦) المصداة لابن رشيق ٢٤٣/١

(٧) المصداة ٢٤٦/١

وكان بوسعنا أن نسوق هنا نماذج من الشعر الجاهلي ونبيّن للقارىء الكريم وجه الربط فيها حتى يظن قلبه بمد ما اقتنع عقله . ولكن السقام لا يسمح لنا بأن نفيض فيه الكلام . ولا يسمح لنا بأن ندليل عليه الوقوف أكثر مما وقفنا . فلا بأس بأن نؤجله الى فرصة أخرى .

وعلى كل حال ، فان ولوع العرب بالاجاز ومهلهم الى اجاعة اللفظ واشباع المعنى ، مضافا اليه تأثير الأجيال القادمة بالمعجم وأساليبهم ومقاييسهم ، هو السبب الرئيسى لوقوع من وقع فى هذا الوهم - الوهم القائل بأن الاقتضاب من طبيعة العرب . ولو أنهم تخلصوا من رواسب المعجمة ومقاييسها وتدقوا كلام العرب وتعلّوه بذوق صاف بحث لما ذهبوا الى ما ذهبوا اليه .

الاقتضاب فى كلام العرب وأسبابه :

وسع ذلك فاننا لا ندعى أن كل ما وقع تحت أيدينا من كلام العرب كتبه على هذا النمط العالى . ولا ندعى كذلك أن كلّ مّتم بحسن الارتباط وجمال النسق . ولا يوجد هناك ما يحكم عليه بالاقتضاب وعدم الانسجام أو افتراق الأجزاء وسوء التأليف .

ولكن لا يرجع ذلك الى أن العرب كان من عادتهم الاقتضاب . أو أنهم ما كانوا يدركون ما للارتباط والانسجام من روعة وبهاء . وانما الأمر بالعكس ، فان العرب كانوا أعرف الناس بمزايا النظم وحسن التأليف .

يروى أن بنت الحطيئة قالت مرة للحطيئة :

* تركت قوما كراما ونزلت فى بنى كليب بعير الكباش * (١)

فترى تلك الجارية كيف تمهيمهم بتهفرق بيوتهم . وتنزع عنهم وصف الكرامة لعدم

انتظامهم . وتبلغ كراهيتها الى أنها تشبههم ببحر الكيش الذى يقع متفرقا غير مؤظف ولا متجاور .

فالقوم الذين كانوا يسمون تفرق الهيت لهذه الدرجة ، وكانت أولادهم تشرب تلك المعانى السامية منذ نعومة أظفارها كيف نتصورهم يرضون بتفسيق أبياتهم ولا يهتمون بحسن تأليفها مع أحاسيسهم المرهفة نحوها ؟

فان كان عنك اقتضاب أو سوء تأليف فى بعض القصائد فقلنا أن نتناول هذا الموضوع بالفكر والروية ونلتمس له سببا لا يتعارض مع هذه الخلقية .

وانا أخذنا هذا الموضوع بجوّه وملابساته تلك فليس أمانا الا أن نقول : انما يوجد الاقتضاب أو سوء التأليف - فى القصائد التى يوجد فيها - بسبب أن القصائد لم تدوّن لساعتها حين أنشدها أصحابها . وانما بقيت تروى هكذا فترة من الزمان . فلم يكن لتلك القصائد أن تصد أمام تطاول الزمان ولم يكسب لها أن تتجو من تلاعب روايتها بين تقديم وتأخير وحذف وتغيير .

وان لم تصل اليها تلك القصائد كما كانت عند أصحابها ، فهى لا تصلح أبدا لأن تكون من الأخرى مادة أمينة للحكم على أصحابها فى جميع أحوالها ، كما أنها لا تصلح لأن تكون قاعدة ثابتة للحكم على منهج القرآن الذى نزل بلغتها وعلى أسلوها .

ولقد تناول الدكتور عمر فروخ هذا الموضوع بأسلوب جميل . ووقف منه موقفا رائعا حيث يقول :

" الشعر الجاهلى " حقيقة تاريخية . ولكن بما أن العرب لم يدوّنوا هذا الشعر ، بل اكتفوا بأن يتناقلوه خلفا عن سلف وفى أذن متطاولة ، وفى أحوال مؤاتية وغير مؤاتية فقد :

(١) نسي بعضه فضاع .

- (٢) نسب الراون بعض هذا الشعر - عمدا أو سهوا - الى غير قائله .
- (٣) رغب بعض الأفراد بالدفاع عن أنسابهم أو باختلاق أحساب لهم ولأسلافهم ، فعمدوا الى نظم أبيات ، أو مقطعات ، أو قصائد ، أو أنهم سألوا بعض شعرا لهم المعاصرين لهم مثل ذلك ثم نسبوه الى شعرا متقدمين .
- (٤) كذلك أراد نفر من اللغويين أن يستروا خطأ وقعوا فيه فاخطوا له شاهدا و " نخلوه " شاعرا قديما ، أو نسوه في قصيدة قديمة معروفة . وربما فعل بعض رواة التاريخ والحديث واللغة مثل ذلك . ولقد كان للنزاع بين الأحزاب السياسية على الأخص يد غير مشكورة في " نحل الشعر "

" وإذا كان الشك يتطرق الى الشعر ، فان تطرقه الى النشر أسرع وأكثر ، ذلك لأن النشر غير منظوم ، فيسهل التلاعب به على الألسن ، وما أننا لسنا على ثقة من أن جميع النصوص النثرية قد رويت لنا عن الجاهلية بلفظها الأول . فقد أصبح لزاما على من أراد أن يتصرف الى أساليب الجاهليين في نشرهم أن يتحصنها في القرآن الكريم ، فان حجة ذلك الآية الكريمة " وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبيّن لهم " ففي القرآن الكريم جميع أساليب العرب " (١)

ويا حبذا لو أن الناس وقفوا من الموضوع موقف الدكتور وقبلوا منه تلك النصيحة . وجعلوا القرآن هو الحكم فيما التمس عليهم من أساليب الجاهلية . ولو أن الامام الشوكاني - رحمه الله - ومن احتذى حذوه انتبهوا لتلك الناحية . ونحوها في الموضوع هذا المنحى كان من الأغلب ألا يقتصوا فيما وقعوا فيه . ولكن لكل جواد كهوة ولكل صام نبوة .

(١) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ١/٨٩-٨٧-٨٦

كهوة الى كهوة :

وتلك الكهوة هي التي أفضت بالامام الشوكاني الى كهوة أخرى أكبر منها ، وهي أن يقيس نزول القرآن في فترة نزوله ، التي تمتد الى نيف وعشرين سنة ، على كلام شاعرا وخطيب في طول حياته .

وما هي حياته ؟ حياة تكون عبارة عن تطورات مختلفة وأزمات شرسة ونكبات قاسية ، تفرض على الانسان أحكامها ، وتنتقل به من حالة الى أخرى لا يرضاها . ولو افترضنا لانسان حياة هادئة سميذة منذ أول لحظة من حياته الى أن يوجد بأنفاسه الأخيرة فهل تبقى هذه الحياة بمصزل عن الطواريء الطبيعية ، التي تطرأ على الحياة لا محالة ، والتي ذكرها القرآن أكثر من مرة . مثل ما جاء في سورة الحج :

" ثم يخرجكم طفلا ثم لتتلفوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا . ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعمد علم شيئا " الآية (١)

فإذا كان الانسان دائما عرضة للتفسير . وكان في تغيراته وتقلباته أشبه شئ بريح في فلاة تظلمها الرياح ظهرا لبطن فأى شبه وأي مقارنسة بين كلام انسان ضعيف لا تدوم له حالة ولا يقر له قرار وبين كلام الحق الذي لا يعقب لحكمه . وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ؟ !

معاذ الله أن نقيس كلام ربنا العزيز الجليل على كلام المبد الحقيير

الضئيل ! !

ولا ندري كيف زهد الامام الشوكاني أو الشيخ عز الدين - رحمهما الله -
 عن الفارق الكبير بين التأليف والتزويل ، فان القرآن انما نزل في نيف وعشرين
 سنة ، لا أنه ألّف في نيف وعشرين سنة . وشتان بينهما ! !

*

*

*

تلك هي الشبهات الرئيسية التي أشيرت حول فكرة النظام . وهي من
 الركافة والضعف بحيث عرفنا ورأينا . وليس الخبر كالميان .
 ولا نريد أن نرخصي للقلم عنانه بعدما صحّ الحق عن محضه وبرز الصريح
 بجانب المتن . وتبرهن تماما أنّ تلك الشبهات ليس لها أساس . وأن مثلها
 كمثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

قصة آدم - عليه السلام - وربطها بما بعدها :

ولعل القارئ الكريم ينتظر منا الآن أن نهين له وجوه المناسبة في تلك
 الآيات التي قال عنها الامام الشوكاني - رحمه الله - :

" وانما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع
 بنى اسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم - عليه السلام - فاذا قال
 متكلّف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف :

فدع عنك نهبا صحيح في حجراته وهات حديثا ما حديث الرواحل" (١)

فلا بأس بأن نعرّج الى وجوه المناسبة في تلك الآيات حتى يتبلور الموضوع
 تماما ولا يقال : انك مازلت تجول وتتوصل حتى مزقت تلك الشبهات مزقا

(١) فتح القدير ١/٢٣

وَدِدْتِهَا بَدْرًا . وَلَكِنَّكَ لَمْ تَعَالِجْ أُمَّلَ الْمَشْكَةِ ، الَّتِي صَارَ لِأَجْلِهَا مَا صَارَ .
فَنَقُولُ بِإِذْنِ اللَّهِ لِلتَّوْفِيقِ :

ان المناسبة بين تلك الآيات وما قبلها في غاية الوضوح ، فقد قصّ القرآن
على بنى اسرائيل قصة آدم - عليه السلام - وابليس قبل أن يواجههم بالكلام
مباشرة . وان قصّ عليهم القرآن تلك القصة فكأنما وضع أمامهم مرآة مصقولة يرون
فيها حالهم ومآلهم وموقفهم ومورد هم !

فقد كان موقف بنى اسرائيل من هذا النبي نفس الموقف الذي وقفه
ابليس من سيدنا آدم - عليه السلام - .

انهم رفضوا دعوة هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - بعدما عرفوا أنها
الحق .

انهم آثموا أن يكونوا مع الكفار بدلا من أن يكونوا مع رسول الله ، الذي
جاء صدقا لما عصمهم ، والذي بشر به أنبياءهم !

وهل كان وراء عصيتهم هذا إلاّ الآباء والاستكبار ؟

وهل كان موقفهم هذا يخطف عن موقف ابليس ، الذي أمره ربه بالسجود

فأبى واستكبر وكان من الكافرين ؟

ثم ليس فقط أنهم لم يؤمنوا بهذا النبي - صلى الله عليه وسلم - وتركوا
الناس وشأنهم . بل قاموا ضده وصدوا الناس عنه . وقادوا حملة الغواية
والضلال . وما رضوا أن يسمد الناس بالحق الذي فقدوه .

ألم يكونوا في علمهم هذا يتأسون بابليس ، الذي ضلّ عن سبيل الحق ، ثم
سعى سعيه ليخرج آدم - عليه السلام - وزوجه من الجنة ، ويطرهما في الهوة
التي هوى فيها ، وما رضى أن ينصبا بالجنة التي طرد عنها ؟

فلما قام بنو اسرائيل لمعادّة هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - وناصروه
المداء قّص عليهم القرآن تلك القصة حتى يتبين لهم أنهم بموقفهم هذا اتبعوا
سنن ابليس واحتذوا أثره حذو القذّاه بالقذّة . وأولى بهم أن ينتهبوا من سكرتهم ،
ويشبهوا الى رشد هم قبل أن يسقط في أيديهم .

أفلا ينظرون استكبارهم هذا كيف أبحارهم ، حتى اتخذوا عدوّهم
اللدود صديقهم . وحاربوا النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي جاءهم ليسعدهم !
وبعد ما قّص عليهم تلك القصة غاطبهم مباشرة . غاطبهم بأسلوب
الأب الحاني على أولاده . أسلوب كله عطف ومودّة ورقة وحنان :

" يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف
بعهديكم واياي فارهبون " الآيات ، ثم ان تلك القصة كما أنها تصف
لهم مدى انصرافهم وسوء تصرفاتهم ، وتذرهم بسوء المصير ان لم ينتهوا عن
اتباع ابليس ، تعرض أمامهم سيرة أبيهم آدم - عليه السلام - أنه كيف تاب الى
ربه وأسرع الى كنفه ، حين شعر أنه فرط في جنبه .
نعم ، انه نسي عهده فعصى ربه ، ولكن سرعان ما تذكر وأتاب واستغفر
من خطيئته وتاب .

فحرى بكم أن تتبعوا سنة أبيكم . وتتهوا الى ربكم بعد ما عصيتهم .
وتجددوا عهدكم بعد ما نقضتم . ولا تسلكوا سلك عدوكم ابليس ، الذي أبى
أن يسجد لأبيكم آدم واستكبر ، ثم أصرّ على عصيانه واستعزّ . وهاب التوبة أمامكم
مفتوح . فسارعوا الى ربكم بتوبة نصوح .

ارجعوا الى سبيل ربكم . وآمنوا بهذا النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي
جاء صدقاً لنا محمداً .

واعلموا أن الاستكبار لا يأتي إلا بالبور . ولكم العبرة في ابليس البطر
المختال . كيف حلت عليه اللعنة الى يوم القيامة ؟ وكيف انقلب عليه الاستكبار
حسرة وندامة ؟

لكن الملائكة المقربون خشعوا لربهم وأذعنوا ، وسارعوا الى طاعته وأسلموا
فاستحقوا كرامته ونالوا مغفرته ورضوانه .

فتلك القصة ما سيقت هناك كقصة خلت وانتهت . وانما هي قصة هادفة
لها دلالات وايحاءات . وتلك الدلالات والايحاءات هي التي تربطها بما
قبلها وما بعدها .

فلنستوعب في أذهاننا تلك الدلالات والايحاءات ، ثم لننظر كيف ارتبط
الكلام بما قبله وما بعده بوشائج ظهرت من بين يديها ومن خلفها .
ولو أظننا الوقوف على تلك الآيات وأنعمنا النظر في نظامها لظهرت لنا
وجوه آخر من المناسبات .

ولكننا لا نريد أن نطيل فيها النفس ، فانما المقصود هنا مجرد التمهيل .
والله الهادي الى سواء السبيل .

تبيه على وهم :

ثم لا يفوتنا الآن أن ننبه على وهم قد يعترى بعض اخواننا كما أشار اليه
الامام الشوكاني - رحمه الله - حيث يقول :

- " فانه اذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع
آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه . وأنه
لا يكون بليفاً ^{القرآن} مجزأ الا اذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة وتبين الأسر
الموجب للارتباط . فان وجد الاختلاف بين الآيات فرجع الى ما قاله

المتكلمون في ذلك ، فوجده تكلفا محضا وتمسقا بيّنا انقح في قلبه ما
كان عنه في عافية وسلامة . " (١)

فليعلم القارئ الكريم أن القرآن بليغ معجز في ذاته . والنظام في
آياته وسوره لون من ألوان اعجازه . وهذا الاعجاز ليس موقوفا على أن يثبت
أحد . فهو ثابت وقالم وطولم يوءن به أحد .

وكم من آية في السموات والأرض نمرّ عليها ولا نعرفها ، ولا نعرف ما فيها
من نواحي الاعجاز . فهل يكون هذا دليلا على أنه ليس فيها اعجاز ؟
وان قام أحد لبيز ناحية من نواحي اعجازها ، ثم لم يتأت له ذلك على
وجهه ، فهل يكون هذا حجة لنفي اعجازها ؟

كذلك النظام في السور والآيات ، فانه لون من ألوان اعجاز القرآن . وهو
شيء ثابت كما أن الاعجاز شيء ثابت .

ونحن اذا قصدنا تتبع النظام في القرآن فليس معنى ذلك أن اعجازه مردون
بنجاحنا في قصدنا . كلا ! فالأمر كما ذكرنا .

ثم يحاول من يحاول ذلك حرصا على الكنوز التي أودعها الله في نظام
آياته . ولا يكون من همّه أن يقيم دليلا على بلاغة القرآن واعجازه .

ومن جدّ وجد . ومن سار على الدّرب وصل . وربنا أكرم من أن يحرم
انسانا يريد التفقه في كتابه والاطلاع على الكنوز التي أودعها في نظامه . وانما
الخيبة لمن أخطأ الطريق . فنسأل الله السداد والتوفيق . انه نعم
المولى ونعم الرفيق .

*

*

*

يحمد ما انتهينا من حسم الشبهات التي أثيرت حول فكرة النظام ، نودّ
 أن نعيّن للقارئ الكريم أنه ان اقتنع بوجود النظام في القرآن ، ثمّ وكلّ بسـه
 رعايته و صرف اليه اهتمامه ، فما هي الثمرات التي يجنيها من خلاله . وما هي
 المزايا التي يدركها من ورائه ؟

ثم ما هي الخسائر التي تلحقه ان عكس الأمر ورضى فيه بالهويناء ؟
 فان كثيرا من الناس على رغم اقتناعهم بفكرة النظام لا يعمرونها اهتماما
 ولا يلقون اليها بالا .

ويرونها من أشغال الفرصة وأسباب المتعة ، فيشتغل بها من لا يشغله شيء .
 أما من كانت عنده أشغال فهي أجد ربالاعتناء وأحق بالاهتمام .

وهذا الوضع يفرض علينا أن نقطع دابر هذا الوهم . فان للمبحث عن
 النظام ليس من أشغال الفرصة وانما هو من أوجب واجبات تلامذة .

الباب الثالث :

مزايا تتبع النظام

- المزايا التي تظهر لمن يؤمن بنظام الآيات ورباط المحاني في كتاب الله .
 ويعنى به خلال دراسته للقرآن هي كثيرة ومتنوعة . ومن المفسر أن نعدها ونحصيها .
 الا أننا لا يفوتنا أن نشير الى ما يتسم بالأهمية منها وهي احدى عشرة :
- (١) النظام يرشد الى فحوى الكلام وملايساته . ومن يففل عن نظام الآيات فقد يتعذر عليه العثور على ما ترص اليه تلك الآيات .
 - (٢) النظام هو الدليل على صحيح التأويل . اذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات .
 - (٣) النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه ، كما أنه سر من أسرار اعجازه ، فانه الذي جعل القرآن بحرا لا يسهر غوره ولا ينفد كنزه .
 - (٤) النظام يجعل لنا الأمور في أكمل صورها . ويكشف عن قدرها وأهميتها .
 واذ لم نشبه لنظام الآيات فقد لا تتبلى لنا تلك الأمور . ونظلم غافلين عن قدرها وأهميتها .
 - (٥) النظام هو الذي يحدد معاني الآيات الكررة ، ويحدد مراتبها . لكن الذي يففل عن النظام يتمتم ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر .
 - (٦) النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن . لكن الذي لا يهتم بالنظام فقد يتمدّر عليه أن يتدوّق بلاغة القرآن ، أو يدرك سيزتها التي أعجزت فرسان الكلام .
 - (٧) رعاية النظام تفتح على الانسان ما تقرّ به عينه ويستتبر به قلبه ، وتورثه برد اليقين ، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع .
 - (٨) رعاية النظام هي التي تمكّن من فهم أسباب النزول . ولكن الذي يففل عن النظام يتحير في فهمها ، ويضمرها في غير موضعها ، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها .

(٩) رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات،
فانه تتميز بهما الضماف من الصحاح ويتميز السقيم من السليم .

(١٠) رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول الى أصول الصحاح
في القرآن ، فان جملة كبيرة من الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما
صرّح به فريق من جلة العلماء .

(١١) الوقوف على نظام الآيات يؤدى بالمطالب الى زروة الشوق والصحة واللذة
التي قد لا يصل اليها من لا يهتم بنظامها ، فان هذه المشاعر تلك
الأحاسيس تزداد بقدر زيادة المعرفة بحاسن الكلام وحسن النظام
وقوة البرهان .

تلك هي إحدى عشرة مزية يتميز بها من يتدبر القرآن ويراعى في تدبره
سياق الكلام ولطائف النظام . ولا يغفل عن الوسائل التي تربط المعاني بعضها
ببعض ، فانه يعرف أنه ان رضى فيه بالهـ وبينا اضلرب عليه الأمر وفاء كثير ما كان
ينتظر .

ولما كانت هذه دعوى كبيرة . وقد تكون غير مألوفة لدى الكثيرين . فلا بد
أن نقف بها طميا . ونشيع الكلام على تلك النقاط المذكورة .

ونحن على يقين أن من نظر في هذا البحث بصبر وأناة وكان مسرنا
يستصون القول فيتمون أحسنه فسيخرج منه - باذن الله - قرير العين ، رضى
النفس ، ويجد الأمر واضحا جليا مثل ضوء الشمس ، وقلق الصبح .

فنحن نأخذ تلك النقاط واحدة واحدة . ونتكلم عليها بما يفتح الله علينا ،
متضرعين اليه أن يزيدنا علما ويلهنا رشدا . وكفى بربك هاديا ونصيرا .

الفصل الأول

المزّة الأولى

تتبع النظام في آي القرآن - كما سبق معنا آنفا - يرشد الى فحوى الكلام وملابساته . ومن يفغل عن نظام الايات فقد يتمذر عليه العثور على ما ترى اليه تلك الايات .

نأخذ - على سبيل المثال - تلك الايات :

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته . والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . وان الظالمين لفي شقاق بعيد . ولعلهم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم . وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مريّة منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم " (١)

فنحن اذا رجعنا الى تلك الايات في التفاسير وجدنا الأئمة المفسرين - رحمهم الله - قد تعبوا في تأويلها وتحريرها تحيرا عدها مع أنها كانت سهلة واضحة . ولم يكن فيها ما يفيض الى الحيرة ، أو يجرّ الى التعمب .

ولا بأس بأن نذكر هنا مذاذب جلة المفسرين - رحمهم الله - في تأويل تلك الآيات حتى يظهر الأمر ويتضح الموقف .

المذهب الأول :

قال الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل تلك الآي الكريمة :

" حدثت عن الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عميد قال سمعت الضحاك يقول في قوله " الا اذا نسي " يعني بالتمسني التلاوة والقراءة . وهذا القول أشبه بتأويل الكلام بدلالة قوله " فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته " على ذلك . لأن الآيات التي أخبر الله - جل ثناؤه - أنه يحكمها لاشك أنها آيات تنزله . فمعلوم بذلك أن الذي ألقى فيه الشيطان هو ما أخبر الله - تعالى ذكره - أنه نسخ ذلك منه وأبطله ثم أحكمه بنسخه ذلك منه . فتأويل الكلام اذا وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تلا كتاب الله وقرا أو حدث وتكلم ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقراه أو في حديثه الذي حدث وتكلم فينسخ الله ما يلقي الشيطان يقول - تعالى - فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويهبطه " (١)

ويبدو أن الامام ابن القيم - رحمه الله - أيضا يميل الى هذا التأويل حيث يقول :

" ان الله - سبحانه - أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي الا اذا نسي ألقى الشيطان في أمنيته . والسلف كلهم على أن المعنى : اذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته . قال الشاعر في عثمان - رض الله عنه - :

(١) تفسير الطبري ٩ / ١٢٤

تحنى كتاب الله أول ليلة * وآخره لاقى حمام المقادر
 فإذا كان هذا فعله مع الرسل - عليهم السلام - فكيف بغيرهم ؟ ! ولهذا
 يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ، ويشوشها عليه ، فيخبط عليه
 لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه . فإذا حضر عند القراءة لم يجد منه
 القارئ هذا أو هذا وربما جميعهما له . فكان من أهم الأمور الاستعانة
 بالله - تعالى - منه . * (١)

ويكفينا أن نعرف عن هذا المذهب أنه يعتمد على الحديث الذي يعرف
 بحديث الفرانيق . والذي قال عنه الامام البيهقي - رحمه الله - :
 " هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل " . وقال ابن خزيمة - رحمه الله - :
 " ان هذه القصة من وضع الزنادقة " (٢)
 وقال الامام ابن كثير - رحمه الله - :

" قد ذكر كثير من المفسرين سهوا قصة الفرانيق وما كان من رجوع كثير
 من المهاجرة الى أرض العيشة ظنا منهم أن شركى قريش قد أسلموا
 ولكنها من طرق كلها مرسله ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم . " (٣)
 ثم ان هذه الرواية من ناحية موضوعها تصادم أصلا من أصول العقيدة - وهو عصمة
 النبي - صلى الله عليه وسلم - وتغالف النصوص القرآنية الصريحة كما نبه عليه
 المحققون .

- (١) اغاثة اللمهان ٩٣ / ١
 (٢) فتح القدير للامام الشوكاني ٤٦٢ / ٣
 (٣) تفسير ابن كثير ٢٢٩ / ٣

الذهب الثاني :

قال الامام الرازي - رحمه الله - في تفسير تلك الآيات :

" أما اذا فسرناها - أي التمنى - بالخاطر وتنى القلب فالمعنى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - متى تمنى بمرض ما يتنناه من الأمور وسوس الشيطان اليه بالباطل ويدعوه الى مالا ينهض ثم ان الله - تعالى - ينسخ ذلك ويبطله ويهديه الى ترك الالتفات الى وسوسه . " (١)

والامام البيضاوي - رحمه الله - أيضا يحيل الى هذا التأويل حيث يقول :

" (الا اذا تمنى) اذا زور في نفسه ما يهواه (ألقى الشيطان في أمته) في تشبهه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال - عليه الصلاة والسلام - : " وانه ليفان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة " (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) فيبطله ويذهب به بمحضه من الركون اليه والارشاد الى ما يزيحه (ثم يحكم الله آياته) ثم يثبت آياته الداعية الى الاستغراق في أمر الآخرة . " (٢)

والامام أبو السمود - رحمه الله - أيضا يفسر تلك الآيات بحثل ما فسره هذان الامامان . (٣) قد يقال : ان هذا التأويل وجيه وقوى .

نعم . ولكن ماذا نضع بقول الامام أبي حيان - رحمه الله - حيث يقول :

" وهذه الآية ليس فيها اسناد شئ الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء اذا تمنوا . " (٤)

(١) التفسير الكبير ٥٤/٢٣

(٢) أنوار التنزيل ٩٦/٢

(٣) تفسير أبي السمود ١٨-١٧/٤

(٤) البحر المعيط ٢٨١/٦

ثم هل يتصور أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - دائما تحت

سيطرة الشيطان ، ويبقى عاجزا منكسرا أمام وساوسه ؟ !

المذهب الثالث :

يقول الامام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير تلك الآيات :

" وقد ساقها - قصة الفرانيق - البغوى في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى وغيرهما بنحو من ذلك . ثم سأل ههنا سوءا لا كيف وقع مثل هذا مع المصصة المضمونة من الله - تعالى - لرسوله - صلاة الله وسلامه عليه - ثم حكى أوجهة عن الناس من أظفها أن الشيطان أوقع في سماع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس كذلك في نفس الأمر بل إنما كان ممن صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن - صلى الله عليه وسلم - والله أعلم " (١)

ويقارب هذا موقف الامام الشوكاني - رحمه الله - حيث يقول :

" فحاصل معنى الآية : أن الشيطان أوقع في سماع المشركين ذلك ممن دون أن يتكلم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أى لا يهولنك ذلك . ولا يحزنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك ممن المرسلين والأنبياء . " (٢)

ونرى الامام النسفى - رحمه الله - أيضا يميل الى هذا التأويل ، فانه قال بعدما

ضعف رواية الفرانيق :

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٠

(٢) فتح القدير ٣/٤٦٢

* فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق الا وجه واحد . وهو أنه - عليه السلام - سكت عند قوله : " وسنة الثالثة الأخرى " فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلا بقراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - فوقع عند بعضهم أنه - عليه السلام - هو الذى تكلم بها . فيكون هذا القاء^(١) فى قراءة النبي - عليه السلام - وكان الشيطان يتكلم فى زمن النبي - عليه السلام - ويسمع كلامه ، فقد روى أنه نادى يوم أحد : ألا ان سمدا قد قتل . وقال يوم بدر : " لا غالب لكم اليوم وانى جار لكم " (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أى يذهب به ويبطله ويخبر أنه من الشيطان . (١)

وقد مال الى هذا التأويل لفيف من العلماء والمفسرين مثل القاضى عياض - رحمه الله - (٢) والامام القرطبي - رحمه الله - (٣) والشيخ عبد الرحمن السمدى وغيرهم . (٤)

قد يقال : ان هذا التأويل قوى ووجيه ولا مانع من قبوله . نعم . ولكن ماذا نضع بقول الامام الهيثماوى - رحمه الله - حيث يقول : " وقيل " تنى " بمعنى قرأ كقوله :

تمنى كتاب الله أول ليلة تنى راوى الزهور على رسل وأمنته قراءة والقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعا صوته بحيث تلسن السامعون أنه من قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقد ردّ أيضا بأنه يخل بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله : " فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته " لأنه أيضا يحتمله . (٥)

-
- (١) تفسير النسفى ١٠٧/٣
(٢) كتاب الشفا ١١٦/٢ ، ١٢١
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨٢ / ١٢
(٤) تيسير الكرمي الرحمن فى تفسير كلام المنان ٣١١ / ٥ - ٣١٢
(٥) أنوار التنزيل ٩٦ / ٢

هذا ما قاله الامام البيضاوي - رحمه الله - ولا شك أن قوله هذا له وزنه
وله اعتباره . والبحث الملقى الدقيق لا يقبل الاغماض عنه .

المذهب الرابع :

قال الامام ابن الجوزي - رحمه الله - :

" وفي معنى " تعنى " قولان : أحدهما ، تلا . وقاله الأكثرون
والثاني : أنه من الأمنية . وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - تمنى يوماً أن لا يأتيه من الله شيء " ينفر عنه به قومه ،
فألقي الشيطان على لسانه لما كان قد تناه . قاله محمد بن كعب
القرظي " (١)

هذا ما نجده عند الامام ابن الجوزي - رحمه الله - فلنترك الأستان

الامام سيد قطب - رحمه الله - يقولنا رأيه عنه . يقول - رحمه الله - :

" وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية
شيئاً كهذا ، وأن يكون مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول - صلى
الله عليه وسلم - فالنص يقرر أن هذه قاعدة عامة في الرسالات
كلها مع الرسل كلهم : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي
الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيه فينسخ الله ما يلقي الشيطان
ثم يحكم الله آياته " . فلا بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند الى
صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً ، بوصفهم من البشر ،
سواء لا يخالف المعصية المقررة للرسل " . (٢)

(١) زاد المسير في علم التفسير ٤٤٢/٥ - ٤٤٣

(٢) في ظلال القرآن ١٠٧/٥

وكذلك نرى الامام البيضاوى - رحمه الله - يرفض هذا التأويل حيث يقول :

" وقيل تمنى لحرصه على ايمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم اليه . واستمر به ذلك حتى كان فى ناديتهم فنزلت عليه سورة " والنجم " فأخذ يقرؤها فلما بلغ " ومناة الثالثة الأخرى " وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا أن قال : تلك الفرانيق الملى . وان شفاعتهن لترتجن . ففرح به المشركون حتى شاموه بالسجود لما سجد فى آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك الا سجد ثم نبهه جبريل - عليه السلام - فاغتم لذلك فمزاه الله بهذه الآية . وهو مردود عند المحققين " (١)

المذهب الخامس :

قال الامام الرازى - رحمه الله - : وقال أبو مسلم :

" معنى الآية أنه لم يرسل نبيا الا اذا تمنى كأنه قبل : وما أرسلنا الى البشر ملكا . وما أرسلنا اليهم نبيا الا منهم . وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن يلقى فى خاطره ما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه . فيثبت الله النبى على الوحي وعلى حفظه ويملحه صواب ذلك ويطلان ما يكون من الشيطان . قال وفيما تقدم من قوله (قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين) تقوية لهذا التأويل . فكانه - تعالى - أمره أن يقول للكافرين ، أنا نذير لكم لكنى من البشر لا من الملائكة . ولم

(١) أنوار التنزيل ٩٦/٢

يرسل الله - تعالى - على طكا بل أرسل رجالا فقد يوسوس الشيطان اليهم . فان قيل ، هذا انما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة . قلنا اذا كانت الملائكة أعظم درجة من الأنبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الأنبياء استيلائهم بالوسوسة على الملائكة * (١)

ونرى الامام النيسابوري - رحمه الله - يؤيد بها مسلم - رحمه الله - في تأويله حيث يقول :

* والحاصل أن الرسل لا ينفكون عن السهو وان كانوا معصومين عن العمد فعليهم أن لا يتبعوا الا ما يقطعون به لصدوره عن علم وذلك هو المحكم . وذهب أبو مسلم الى أن حاصل الآية هو أن كل نبي من جنس البشر الذين هم بصدور الخطأ والنسيان من قبل وساوس الشيطان .

ووجه النظم بين هذه الآية والتي قبلها أنه أمر بان يقول : انى لكم نذير لكنى من البشر لا من الملائكة . ولم يرسل الله قبلى طكا بل أرسل رجالا يوسوس الشيطان اليهم . وعلى هذا فالملائكة لمدم اكان استيلاء الشيطان عليهم أعظم درجة من الأنبياء وأقوى حالا عنهم . * (٢)

قد يقال : ان هذا التأويل لا بأس به . نعم ولكن ماذا نفعل اذا بقول الله - تبارك وتعالى - :

* الأمن ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا * (٣)

(١) التفسير الكبير ٥٤/٢٣

(٢) غرائب القرآن ١١٢/١٥

(٣) سورة الجن ٢٨

أليست الآية صريحة في أن الرسول يكون تحت الرقابة الدائمة الكاملة من
الله - سبحانه وتعالى - حتى لا تصل اليه الشياطين . وحتى يمكن له القيام
بوظيفته بعيدا عن وساوسهم ونزعاتهم ؟

ثم ماذا نفعل بقوله - تعالى - :

" ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتىك من الغاوين " (١)
فإنه اذا لم يكن للشيطان سلطان على العباد الصالحين ، فكيف بالأنبياء
والمرسلين ؟

يقول القاضى عياض - رحمه الله - :

" قد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته - صلى الله عليه وسلم -
ونزاهته عن هذه الرذيلة . اما من تمنى أن ينزل عليه مثل هذا من
مدح الهبة غير الله وهو كفر أو أن يتسود عليه الشيطان ويشبه عليه
القرآن - حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبى - صلى الله عليه
وسلم - أن عن القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل - عليه السلام -
وذلك كله مستع فى حقه - صلى الله عليه وسلم - أو يقول ذلك
النبى - صلى الله عليه وسلم - من قبل نفسه عمدا وذلك كفر . أو
سهوا ولو معصوم من هذا كله .

وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته - صلى الله عليه وسلم - من جريان
الكفر على لسانه أو قلبه لا عمدا ولا سهوا . أو أن يشبه عليه ما يلقيه

الملك ما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو أن يتقول
على الله لا عمدا ولا سهوا عالم ينزل عليه . (١)

(١) شكالات القرآن الكريم : ٨٤-٨٥

الذهب السادس :

قال الامام سيد قطب - رحمه الله - فى تفسير تلك الآيات بعدما أفاض

القول فى حديث الفرنيق وأبطله من ناحية السند ومن ناحية الموضوع :

" ان الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة الى الناس ، يكون احب شىء الى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاء وهم به من عند الله فيتموه . . ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثير . والرسل بشـرر محدود و الأجل . وهم يحسون هذا ويعلمونه . فيتمنون لو يجذبون الناس الى دعوتهم بأسرع طريق . . يودون مثلاً لو نادوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفلتوا الى الهدى ، فاذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة ! ويودون مثلاً لو جاروهم فى شىء يسير عن رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم الى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التى تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون . ويودون . من مثل هذه الأمانى والرغبات البشرية المطلقة بنشر الدعوة وانتصارها . . ذلك على حين يريد الله أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

فالكسب الحقيقى للدعوة فى التقدير الالهى الكامل غير المشوب بضمف البشر وتقدرهم . . هو أن تمضى على تلك الأصول وفق تلك الموازين ، ولو خسرت الاشخاص فى أول الطريق . فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفىل أن يثنى هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم الى الدعوى فى نهاية المطاف ، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء .

ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية ، وفى بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات فرصة للكيد للدعوة ، وتعويلها عن قواعدها ، والقاء الشبهات حولها فى النفوس . . ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل

فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ،
وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة . كما حدث في بعض
تصرفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي بعض اتجاهاته ، ما بين الله فيه
بينانا في القرآن ..

بذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته ، فلا تبقى هنالك

شبهة في الوجه الصواب :

" والله عليم حكيم " .. فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ،
والقاسية قلوبهم عن الكفار المعاندين ، فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة
للجدل واللجاج والشقاق : " وان الظالمين لفي شقاق بعيد " . وأما الذين
أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم الى بيان الله وحكمه الفاصل :
" وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم " ..

وفي حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي تاريخ الدعوة الاسلامية
نجد أمثلة من هذا ، تفنينا عن تأويل الكلام ، الذي أشار اليه الامام ابن جرير
رحمه الله . (١)

ثم استشهد الامام الشهيد - رحمه الله - على وجاهة هذا الاتجاه بقصة
ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - التي جاء ذكرها في سورة " عس وتولى " (٢) وقصة
زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة - رضي الله عنهما - التي جاء ذكرها في سورة
الأحزاب (٣) وكذلك استشهد بسبب نزول الآية " ولا تطرد الذين يدعون ربهم
بالفداء والمشى يريدون وجهه " . (٤) على وجاهة موقفه هذا ثم قال :

(١) في ظلال القرآن . الجزء السابع عشر ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) آية ١ - ١٠

(٣) آية ٣٧

(٤) سورة الانعام آية ٥٢

(١) " هذا هو ما نطمئن اليه في تفسير تلك الآيات . والله الهادي الى الصواب " .

قد يقال : ان هذا التأويل تهفوا اليه النفس لما فيه من القوة والحيوية ،

فلا مانع من قبوله . ولا بد من ترجيحه .

ولكن ماذا علينا لو نصر قليلا حتى نطمئن الى صحته ووجاهته . فانس

- على كل حال - مظنة الخطأ والصواب .

فلقائل أن يقول - ولملّه مصيب فيما يقول - : ان الامنيات التي نسيها سيد قطب

- رحمه الله - الى الرسل يموزها الدليل . فاننا لا نجد لها ذكرا ، لا في

القرآن ولا في الصحاح .

نعم ، نجد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد عوتب عتابا رقيقا - ان

صح هذا التفسير - على شدة حرصه على ايمان قومه . وقد حصل ذلك مسرات .

فجاء مثلا :

" فلعلك باخع نفسك على آثامهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " (١)

وجاء كذلك : " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون " (٢)

وقد عوتب كذلك على بعض عواقفه التي كانت نتيجة لهذا الحرص النبيل .

ولكن لا نجد ذكرا لتلك الأمانى والرغبات البشرية التي ألمع اليها الامام سيد قطب

- رحمه الله - .

لا نجد تلك الرغبات ، ولا نجد عليها العتاب .

ثم الآيات التي نحن بصددها تختلف في طبيعتها عن الآيات التي

استشهد بها . فلا نجد هناك - كما نجد هنا - أن هذا الحرص الشديد أو تلك

(١) في ظلال القرآن - الجزء السابع عشر ص ١١١

(٢) سورة الكهف آية ٦

(٣) سورة الفاطر آية ٨

المواقف صارت فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، أو وجد فيها
الشیطان فرصة للكيد للدعوة وتحويلها عن قواعدهما والقاء الشبهات حولها
في النفوس .

ما هو موقفنا ؟

بعد ما اطلعنا على هذه المذاهب الستة في تفسير تلك الآي الكريمة ،
لا بد أن نقف هنا وقفة ، ونجيب على السؤال الذي يفرض نفسه علينا . وهو

ما هو موقفكم من تلك المذاهب ؟

هل توافقون المذهب الاول ، الذي ذهب اليه الامام ابن جرير والامام ابن
القيم - رحمهما الله - بعد ما قيل فيه ما قيل ؟

أم توافقون المذهب الثاني ، الذي ذهب اليه الامام الرازي والامام
البيضاوي والامام ابو السعود - رحمهم الله - بعد ما قال فيه الامام ابو حيان - رحمه
الله - ما قال ؟

أم توافقون المذهب الثالث ، الذي مال اليه الامام ابن كثير والامام
الشوكاني والامام عبد الله النسفي والامام القرطبي وغيرهم بعد ما قال فيه الامام
البيضاوي - رحمه الله - ما قال ؟

أم توافقون المذهب الرابع ، الذي مال اليه الامام ابن الجوزي - رحمه الله -
بعد ما قال فيه الامام سيد قطب والامام البيضاوي - رحمهما الله - ما قال ؟

أم توافقون المذهب الخامس ، الذي مال اليه الامام النيسابوري وابو مسلم
- رحمهما الله - بعد ما يمارضه المنقول ويأباه المقول ؟ وبعد ما قال فيه
القاضي عياض - رحمه الله - ما قال ؟

أم توافقون المذهب السادس ، الذي مال اليه الامام سيد قطب - رحمه
الله - بعد ما عرفتم فيه ما عرفتم ؟

فان أعجبتنا مذهب من تلك المذاهب الستة فليحمد الله أننا فزنا بضاللتنا
وعثرنا على بغيبتنا . وان كنا في شك منها لما عرفنا فيها من الضعف فلتواصل
المسير ولنمرّ على أمة آخرين ، عسى الله أن ينيلنا بغيبتنا ويمشربنا على ما تطمئن
اليه نفوسنا .

ولكن من الأفضل أن نحول خط السير ونمرّ على من يهتتون بنظام
الآيات ويركزون على المناسبات فربما نجد عندهم جديدا يقرب لنا الفاية ويحل
لنا المشكلة .

المذهب السابع :

هيا بنا الى الامام أبى حيان صاحب البحر المحيط ننظر ماذا عنده ؟

يقول - رحمه الله - :

" لما ذكر الله تعالى أنه يدفع عن الذين آمنوا وأنه تعالى أذن للمؤمنين
في القتال وأنهم كانوا أخرجوا من ديارهم ، وذكر مسلاة رسوله - صلى الله عليه
وسلم - بتكذيب من تقدم من الأمم لأنبيائهم وما آل اليه أمرهم من الاهلاك اثر
التكذيب وبعد الامهال وأمره أن ينادى الناس ويخبرهم أنه نذير لهم بمد أن
استعجلوا بالمذاب وأنه ليس له تقديم المذاب ولا تأخير ذكره تعالى مسلاة
ثانية باعتبار من مضى من الرسل والانبياء وهو أنهم كانوا حريصين على ايمان قومهم ،
متمنين لذلك ، مثابرين عليه وأنه ما منهم أحد الا وكان الشيطان يراغفه بتزيين الكفر
لقومه وبث ذلك اليهم والقائه في نفوسهم كما أنه - صلى الله عليه وسلم - كان من
أحرص الناس على هدى قومه وكان فيهم شياطين كالنضربن الحارث يلقون لقومه
وللوفدين عليه شيها يثبطون بها عن الاسلام ، ولذلك جاء قبل هذه الآية
والذين سموا في آياتنا مما جزيين " وسميهم بالقاء الشبه في قلوب من استمالوه
ونسب ذلك الى الشيطان لأنه هو المفوى والمحرك شياطين الانس للاغواء كما

قال " لأغوينهم " . وقيل ان " الشيطان " هنا هو جنس يراد به شياطين الانس والضمير فى " أمنيته " عائد على الشيطان أى فى أمنية نفسه أى بسبب أمنية نفسه ومفهوم " ألقى " محذوف لفهم المعنى وهو الشر والكفر ومخالفة ذلك الرسول أو النبى لأن الشيطان ليس يلقى الخير .

ومعنى " فينسخ الله ما يلقى الشيطان " أى يزيل تلك الشبه شيئا فشيئا حتى يسلم الناس كما قال : " ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا " .

" ويحكم الله آياته " أى معجزاته يظهرها محكمة لا ليس فيها ليجمعل ما يلقى الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنة لمريض القلب ولقاسيه وليعلم من أوتى العلم أن ما تنصى الرسول والنبى من هداية قومه وإيمانهم هو الحق .

وهذه الآية ليس فيها اسناد شىء الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انا تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء اذا تمنوا . وذكر المفسرون فى كتبهم ابن عباس والزخشرى ، فمن قبلهما ومن بعدهما ، مالا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنین - منسوبا الى المصوم - صلوات الله عليه - وأطالوا فى ذلك وفى تقريره سوءا لا وجوابا وهى قصة سائل عنها الامام محمد ابن اسحاق - جامع السيرة النبوية - فقال : " هذا من وضع الزنادقة " وصنف فى ذلك كتابا .

وقال الامام الحافظ ابو بكر احمد بن الحسين البههقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . وقال ما معناه ، ان روايتها مطعون فيها . وليس فى الصحاح ولا فى التصانيف الحديثية شىء ما ذكره فوجب اطراحه ولذلك نزعت كتابى عن ذكره فيه . والمعجب من نقل هذا وهم يتلون فى كتاب الله - تعالى - " والنجم اذا هوى - ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى " وقال الله - تعالى - آمرا لنبيه : " قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى . ان أتبع الا ما يوحى الى " وقال - تعالى - :

"ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا عنه باليمن . ثم لقطعنا منه الوتين " وقال تعالى : " ولولا أن شئت لك لكدت تركن اليهم شيئا قليلا " فالتشبيت واقع والمقاربة منفية وقال تعالى :

" كذلك لنثبت به فؤادك " وقال تعالى : " سنقرئك فلا تنسى " .

وهذه نصوص تشهد بمصحة وأما من جهة المحقول فلا يمكن ذلك لأن تجويزه يطرق الى تجويزه في جميع الأحكام والشريعة فلا يؤمن فيها التبديل والتفجير . واستحالة ذلك معلومة * . (١)

هذا ما فسره ابو حيان - رحمه الله - تلك الآيات الكريمة . والميزة التي يتميز بها هذا الامام من بين من سبق ذكرهم ، أنه استلهم تفسيره هذا من سياق الآيات ومن نظم الكلام . ولا بأس بأن نقف هنا مرة ثانية . وندقق فيه النظر ، ثم نرى هل نجد فيه شيئا من الوجاهة والمثانة ؟ وهل نجد فيه ما كنا نلتصمه من الأنس والحيوية والارتياح ؟

وان وجدنا فيه شيئا من الوجاهة فلنعلم أن هذه الوجاهة ليست من مزايا أبي حيان - رحمه الله - ، فأبو حيان - رحمه الله - أيضا بشر يخطئ ويصيب . وانما هي من مزايا هذا النهج . فكل من تبنى هذا النهج أمن العثار وتدللت له الممانى كمثل الفرس لمن أمسك بلجامه ولذلك نرى ابا حيان - رحمه الله - لم ينفرد بهذا المفهوم ، بل وفق اليه غيره ممن تصكوا بنظام الآيات وعضوا عليه بالنواجذ . ونذكر هنا

(١) البحر المحيط ج ٦ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٨٢٠

- على سبيل المثال - الامام البقاعي والامام الشيخ محمد عبده - رحمهما
الله - حتى لا يبقى في أذهاننا منه شيء . ولا نقول ان كان هذا
المفهوم هو الأقرب الى الصواب ، فلماذا لم يهتد اليه الآخرون ؟

كلمة الامام البقاعي - رحمه الله - :

يقول الامام البقاعي - رحمه الله - وهو يفسر تلك الآيات :
" ولما كان هذا اول الاذن في القتال ، الموجب لمنايذة الكفار ،
ومهاجرة الاهل والاموال والديار وكان ذلك - مع كونه في غاية الشدة -
موجبا للفقر عادة ، قال محققا له ومنها على أنه سبب الرزق :
(قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعطوا الصالحات
لهم مغفرة ورزق كريم)
لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره اصلا ماداموا على الاتصاف بذلك .
هذا فعل ربهم بهم عكس ما وصف به مدعو الكفار من أن ضره أقرب
من نفعه .

ولما كان في سياق الانذار قال مصبرا بالماضي زيادة في التخويف :
(والذين سمعوا في آياتنا معاجزين) أي مبالفين في فعل ما يلزم
- في زعمهم - منه عجزنا ومعاجزين ، أي مقدرين انهم يصجزوننا
باخفائهم آياتنا واذلال الناس وصددهم عنها بالقائه الشبه والجدال ، اتباعا
للشيطان العريد ، من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير (اولئك)
البعداء البغضاء (اصحاب الجحيم) أي استحقاقا بما سمعوا ليعلموا
أنهم هم المعاجزون . هذا في الآخرة . وسيظهر سبحانه في الدنيا
عجزهم بكشف شبههم ، ومج القطوب النيرة لها ، مع ذلهم وانكسارهم
وهوانهم وصفارهم ، حتى لا يقدروا أن ينطقوا من ذلك بهنت شفة ، علما
منهم أن مثلها لا يقوله عاقل .

ولما لاح من ذلك أن الشيطان ألقى للكفار شيها ، مما يجوزون بهابجدالهم
 في دين الله الذي أمر رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - باظهاره وتقريره
 واشهاره عطف عليه تسليمه له - صلى الله عليه وسلم - قوله :
 (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى) أى تلا على الناس
 ما أمره الله به أو حدثهم به واشتهى في نفسه أن يقلوه حرصا منه على ايمانهم
 شفقة عليهم (القى الشيطان في امنيه) أى ما تلاه أو حدث به واشتهى أن
 يقبل ، من الشبه والتخييلات ما يثقفه عنه أولياؤه فيجادلون به أهل الطاعة
 ليضلوههم " ان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم " وكذلك جعلنا
 لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا "
 كما يفعل هؤلاء فيما يغيرون به في وجه الشريعة أصولا وفروحا من قولهم :
 ان القرآن شعر وسحر وكهانة ، وقولهم : " لو شاء الله ما أشركنا " وقولهم :
 " هؤلاء شفعاؤنا عند الله " وقولهم : ان ما قلته الله بالموت اختف أنفه الطوى
 بالأكل ما ذبح ، وقولهم : نحن اهل الله وسكان حرمه ، لا نخرج من الحرم
 فنقف في الحج بالمشعر الحرام ويقف الناس بمعرفة ، ونحن ندلوف في شياطيننا
 وكذا من ولدناه ، وأما غيرنا فلا يدلوف الا عبرانا ذكرا كان أو أنثى الا أن يمدليه
 أحد منا ما يلبسه ، ونحو ذلك مما يبريدون أن يطفلوا به نور الله (فينسخ الله)
 أى فيتسبب عن القاه أنه ينسخ (ما يلقى الشيطان) فيبطله بايضاح أمره
 وسج القلوب له .

ولما كان ابطاله سبحانه للشبه ابطالا محكما ، لا يتطرق اليه - لعلو
 رتبة بيانه - شبهة أصلا ، هجر بأداة التراخي فقال : (ثم يحكم الله آياته) أى
 بجعلها جلية فيما أريد منها . وأدل دليل على أن هذا هو المراد - مع الافتتاح
 بالمماجزة في الآيات - الختام بقوله - عطف على ما تقديره : فالله على ما يشاء قدير -
 (والله عليم) أى بنفى الشبه (حكيم) بإيراد الكلام على وجه لا تؤثر فيه عند

الله تعالى لأنبياءه واختيارهم من خاصة أوليائه . فلندع هذا الهديان ولننصده
الى ما نحن بهدده .

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الانبياء والمرسلين قبله ليبين له سنه فيهم .

وذلك بعمد أن قال :

" وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب
مدين وكذب موسى فاعلمت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير* - الى آخر الآيات .

ثم قال : " قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا

وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سموا في آياتنا معاجزين

أولئك أصحاب الجحيم ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي* الخ

فالقصاص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم ثم تبعه الأمر الالهى

بأن يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لقومه اننى لم أرسل اليكم الا لاندركم

بمعاقة ما أنتم عليه ولا يبشر المؤمنين بالنعيم . وأما الذين يسمون في الآيات

والأردلة التى أقيمها على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الأنظار ، ويحجبونها

عن الأبصار ، ويفسدوا أثرها الذى أقيمت لأجله ويماجزوا بذلك النبي صلى الله

عليه وسلم والمؤمنين أى يسابقونهم ليماجزوهم ويسكتوهم عن القول وذلك بلعبهم

بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة

- هوؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتلى

به النبي - صلى الله عليه وسلم - من المماجزة في الآيات قد ابتلى به الأنبياء

السابقون فلم يبعث نبي في أمة الا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف

ويضادون أمانيه ويحولون بينه وبين ما يبتغى بما يلقون في سبيله من العثرات .

فملى هذا المعنى الذى يتفق مع مآلقيه الأنبياء جميعا بحب أن تفسر الآية . وذلك

يكون على وجهين . (١)

(١) شكالات القرآن الكريم للشيخ محمد عبده - ص ٨٨ - ٩٠

ثم يفيض القول في تفسير الآية على هذين الوجهين ثم يقول :
 * هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية . وبدل عليه ما سبق من
 الآيات ويرشد إليه سياق القصص السابق في قوله : * وان يكذبوك فقد كذبت
 قبلهم قوم نوح * الخ * (١)

تأويل الآيات في ضوء نظام السورة :

بعد ما انتهينا من هذه المرحلة الطويلة المتممة ، وبعد ما وصلنا إلى
 أن النظام له أثر كبير في فهم القرآن نريد أن نقول : ان هذا ليس كل ما نقصد
 بالنظام ، فان هذه صورة مصغرة للنظام . وانما نقصد بالنظام نظاما واسعا شاملا
 لمجموع السورة ، فاننا اذا تتبعنا ذلك النظام الواسع الشامل وتدبرنا الآيات
 في ضوءه ، تجلى لنا موقع كل آية بكل ملامحاتها .

فالآن نتوجه إلى تأويل تلك الآيات في ضوء نظام السورة ، فنقول
 وبالله التوفيق :

يظهر لنا ، حينما تلقى نظرة عامة على تلك السورة ، أنها نزلت في آخر
 العهد المكي . والجو الذي يسودها هو جو الجدال واللجاج والنزاع والخصومة ،
 مزوجا بالتهديد والتشريع على الغفلة عما ينتظرهم من عاقبة وخيمة . تأمل معنى
 تلك الآيات :

* ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان سريد * (٢)

(١) شكالات القرآن الكريم للشيخ محمد عبده ص ٩٧

(٢) آية ٣

- " ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب عنير " (١)
- " هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار " (٢)
- " والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم " (٣)
- " وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعلمون " (٤)
- " فلا ينازعتك في الأمر وادع الى ربك " (٥)
- " واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر -
يكادون يسقطون بالذين يثنون عليهم آياتنا " (٦)

ويبدو كذلك أن هذا الجدل والنزاع لم يكن منحصرًا بين أشخاص وأشخاص ، بل ثارت مكة عن بكرة أبيها ، والأحزاب الموجودة كلها اقتحمت الممرقة ، وظلت توقد نار الفتنة حتى تطفئ هذا النور الذي كان يهدد كيانها .
وبكفيها لتقدير هذا الوضع الخطير أن نطو تلك الآية :

" ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة . ان الله على كل شئ شهيد " (٧)

فكل هذه الفئات تألقت على الاسلام . وسددت سهامها نحو هذا الدين الجديد .

كثرت هاجموا وأثاروا حوله الشبهات ، حتى ينفروا عنه الجماهير .
كثرت اتهموا بأنه دين مبتدع ، ولا صلة له بطة أبيكم ابراهيم - عليه السلام - .

(١)	آية ٨
(٢)	آية ١٩
(٣)	آية ٥١
(٤)	آية ٦٨
(٥)	آية ٦٧
(٦)	آية ٧٢
(٧)	آية ١٧

وكل سجل عليه ما بداله من ملاحظات . وقال عنه ماظن أنه يروج فسى
الناس . فقالت اليهود مثلا :

" كيف يكون هذا الرجل ذلك النبي الموعود مع أنه يخالف أبانا ابراهيم
- عليه السلام - ويخالف ذريته ؟ ألا ترون أن الابل كان حراما محرما من لسدن
ابراهيم الى يومنا هذا ؟ وهذا الرجل يزعم أنه حلال ويزعم أنه من أفضل الضحايا (١)
وقالوا : " كيف يكون هذا ذلكم النبي الخاتم ؟ فان النبي الخاتم يمش
عند البيت الذى بناه ابراهيم - عليه السلام - وزعموا أنه بيت المقدس لا الكعبة .
وحرّفوا فى كتبهم اسم " بكة " الى " وادى البكة " (٢) . كتماننا لأمر هذه البعثة .
فنبه الله على أكذبتهم هذه فى تلك السورة على سبيل الاجمال ثم فصله
فى سورة آل عمران حيث قال :

" ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة (لا البكة !) مہاركا وشهدى
للمعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا . ولله
على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن
العالمين " (٣)

وقالوا : القرابين التى تقرب الى الله لا يؤكل منه فكيف يبيح هذا النسب
الأكل منه ويندب اليه ؟

وقالوا : ان المهدى والقلائد لا تتركب ولا تحلب مع أن هذا النسب لا
يتقيد بذلك !

-
- (١) تفسير المنار . المجلد الرابع ص ٣ - فى ظلال القرآن ج ٤ ص ٩
(٢) مزمور ٨٤
(٣) سورة آل عمران آية ٩٦ - ٩٧

وقالوا : ان هذا الرجل ان كان نبيها فلماذا لا يتقيد بشريعتنا في الحلال والحرام ؟ وكيف يخالفنا فيما ألفينا عليه آباءنا ؟ وكيف يحصل هذه الانعام كلها مع أن فيها ما هو حلال وما هو حرام ؟

وقالوا : ان صح أنه نبي وأنه جاء ليردنا الى ملة ابراهيم - عليه السلام - فكيف يسب هذه الالهة وكيف ينفى تلك الأوثان ؟ هل هي تعالف ملة أبينا ابراهيم - عليه السلام - ؟ وان صح ما يقول فمن جاء بها وأقرها في بيت الله الذي بناه أبونا ابراهيم - عليه السلام - ؟

وبالجملة فالشبهات التي كانت تثار حينئذ وكانت تشغل الأذهان وقت نزول السورة ، كانت تتعلق بالكمية وما يتصل بها من شعائر الحج ومناسك . وهذا هو السر في تكرار المنسك في تلك السورة ، حيث قال - تعالى - :

" ولكل أمة جعلنا منسكاً ليزكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فاليهم اله واحد فله أسلموا وشرا لمضبتين . " (١)

ثم قال مرة أخرى :

" لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم " (٢)

وأيضاً ذكر في بداية السورة أن هذا الكون بما فيه يسجد لخالقه وذكر

من ضمنه الدواب حيث قال :

(١) آية ٢٤

(٢) آية ٦٧

* ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر
والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه
العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء * (١)

إشارة إلى أن هذه الدواب تسجد - بطبيعتها - لمن خلقها فلا يجوز
أن تقدم إلى الأوثان ويذكر عليها غير اسم خالقها .

فكانت هذه الشبهات تشاع في الجماهير ، وكانت تثار بها المشاعر ،
وكانوا يجادلون بها النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين .

وهؤلاء الشياطين كانوا يحسبون بذلك أنهم يعجزون موكب الإيمان
ويشفون صدورهم . فالمكيدة كانت غطيرة جدا ولا شك . ولو أنهم نجحوا في
مكرهم وأثبتوا للناس أن هذا النبي صلى الله عليه وسلم مخالف لطة إبراهيم - عليه
السلام - في شدة الحج وناسكه ومخالف له في مركزه ومهبطه لانتفى الأسم
ولم يبق مجال لقول أي خطيب .

ولكن هيبات مادام أن الله يولي هذا النبي ونصيره . فنعم المولى
ونعم النصير .

فأنزل الله هذه الآيات . ونسخ بها تلك البدع وتلك المفتريات حيث
قال : " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه
للناس سواء الماكف فيه والهاد . ومن يرد فيه بالحاد يظلم نفسه من عذاب أليم .
وإن يوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين

والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوقسوا نذورهم وليطوفوا بالبيت المشيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه . وأحلدت لكم الأنعام إلا ما يظن عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها للبيت المشيق .

ولكل أمة جعلنا منسكا ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فالحكمم له واحد فله أسلموا وبشر المغبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيي الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجهت جنوبها فكلوا منها وأطعموا الفقير والمعثر . كذلك سخفناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . كذلك سخفناها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين . (١)

فلنقل تلك الآيات نجد أنها تناولت كل هذه الشبهات تناولا مباشرا . ونحن من الوضوح بحيث يمكننا أن نحدد هذه الشبهات من نفس تلك الآيات .

ثم قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - بعدما أشير إلى نصر أصحابه
 وتمكينهم ومد ما ذكر عدد من الأقسام وذكر سوء مصيرهم بسبب تكذيبهم أنبياءهم :
 " قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات
 لهم مغفرة ورزق كريم والذين سموا في آياتنا مما جزيين أولئك أصحاب الجحيم " (١)

ثم سبق المراء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن هذه سنة الله
 في الرسل والأنبياء . كلما جاء نبيّ وتمنى أن يؤمن به قومه نهضت الشياطين
 (وهم شياطين الانس كما جاء في مستهل السورة) وبذلوا جهدهم لقطع الطريق
 على أنبيائهم ، ونفروا عنهم القوم بأكاذيبهم وقالوا : انه جاء ليهدم دينكم
 ويهدم تقاليدكم التي ورثتموها عن آباءكم وهكذا . . . فينسخ الله تلك المفترسات
 وينسخ تلك الاكاذيب ويحكم آياته .

وهذا الوضع ليس الا مظهرا من مظاهر علمه وحكمته ، فانه يتميز به الخبيث
 من الطيب . فتكون تلك الاشارات وتلك المفترسات فتنة للذين نى قلوبهم مرض (وهم
 الذين يعبدون الله على حرف) والقاسية قلوبهم (وهم اليهود الذين يجادلون
 في الله بغير علم) وتكون فتنة للظالمين كذلك (وهم المشركون الذين يجادلون
 في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ولا شك أنهم في شقاق بعيد لما
 أنهم يخالفون نبيهم الذي جاء ليلبسهم تاج العز والكرامة ويتواطئون مع اليهود
 الذين يحسدونهم على شرفهم ويريدون أن يحرموهم من المنز الذي ينتظروهم
 وباله من شقاق ! وأي شقاق بعد هذا الشقاق ! ؟

لكن الذين أوتوا العلم - وهم العلماء الصالحون من أهل الكتاب - يعرفون حقيقة الأمر ويعرفون حقيقة مفتريات اليهود . فإذا جاء وحى من الله ينسخ تلك المفتريات اطمأنوا اليه وعلموا أنه الحق من ربهم ، فانهم يجدونه صدقا لما مفهم . ثم يستمر القول في تبشير المؤمنين الذين يستقيمون على الجادة ويصبرون على الأذى الهجرة في سبيل الله مع انذار وتهكيت للمخالفين الذين يجادلون النبي والمؤمنين بغير علم ولا ينتهون عن غوايتهم ، حتى تنتهي السورة بتلك الآيات الكريمة :

" يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده . هو اجتياكم وما جعل عليكم في الدين من حرج . طة أبيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير . " (١)

فلننظر هذا النظام العام للمسورة كيف يجلى لنا تلك الآيات بكل ملابساتها . وكيف تتكشف لنا من خلالها عدة معان جديدة ، التي لم تكن لنصل اليها لولا أن هدينا الى هذا النظام وهي هذه :

(١) تجلّت لنا الأمنية التي كانت تجول في خاطر النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي أن يخرج العرب من الوثنية السخيفة ويهدمهم الى طة أبيهم ابراهيم - عليه السلام - وينشئ منهم أمة سلمة لربها . وهي نفس الأمنية التي تمنّاها ابراهيم - عليه السلام - على ربه إذ كان يرفع قواعد الهيئ :

" ربنا واجملنا مسلمين لك ومن ذریتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب
علینا انك انت التواب الرحیم " (١)

- (٢) شخصت لنا الالتقاءات التي كان يلقيها الشيطان في أذنيه .
- (٣) انكشف لنا القناع عن وجه الشيطان وعرفنا أن " الشيطان " أطلق منا على
جنس الشياطين والمراد به شياطين الانس . وعلى رأسهم طواغيت اليهود ،
الذين سبق ذكرهم في بداية السورة حيث قال :
- " ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد " (٢)
- (٤) انكشف لنا أن المراد " بالذين أتوا العلم " هم صلحاء اليهود .
- (٥) عرفنا نوعية الالتقاءات ، فان معظمها جاءت عن طريق اليهود . وكانت
عبارة عن بدعهم وتعميرفاتهم التي أحدثوها في كتبهم حتى يلبسوا على
الناس أمر هذه البعثة المباركة ، فانهم كانوا يحسدون بني اسمعيل على هذا
الشرف العظيم الذي حياهم الله به .
- (٦) عرفنا أن اليهود حاولوا جهدهم ليمحووا العلام التي كانت تبشر بهذه
البعثة المباركة ، ولكن كتبهم - على رغم أنفهم - احتفظت ببعض اللوامع
التي كانت - وما زالت - تشير الى هذه البعثة والى خصائصها .
- فلننظر البحث عن نظام السورة كيف يفتح لنا بابا واسعا من التأويل بينما
نرى الامام عبد الله المنصفي - رحمه الله - يرى الطريق أمامه مسدودا حيث يقول :

(١) سورة البقرة آية ١٢٨

(٢) آية ٣

" فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق الا وجه واحد ، وهو أنه - عليه السلام -

سكت عند قوله :

" وصلاة الثالثة الأخرى " فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلا بقراءة النبي

- صلى الله عليه وسلم - فوقع عند بضمهم أنه - عليه السلام - هو الذي تكلم بها

فيكون هذا القاء في قراءة النبي - عليه السلام - " (١)

ذلك المبارة توحى المينا بكل صراحة أن هذا الامام - رحمه الله - لم

يجنح لهذا التأويل الا وهو مضطر اليه ولو انه وجد في الأمر سعة لكان له

موقف آخر .

ولعل هذا المثال يكفينا للاقتناع بأن من يقفل عن نظام الايات

فقد يتمذر عليه المشور على ما ترمى اليه تلك الايات .

(١) تفسير النسفي ج ٣ ص ١٠٧

الفصل الخامس

المزينة الثانية

النظام هو الدليل على صحيح التأويل اذا اشتبهت الوجوه وكسثرت الاحتمالات ، فكثيرا ما نرى في كتب التفسير أن المفسرين - رحمهم الله - يأتون في تفسير كلمة واحدة أو آية واحدة بوجوه شتى ، ويذكرون فيها عدة احتمالات . وقد تبلغ هذه الاحتمالات الى عشرين فأكثر . نأخذ - مثلا - هذه الآيات :

" والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل اذا يسر . " (١)

فان الامام القرطبي - رحمه الله - ذكر في الفجر ثمانية وجوه :

الوجوه الواردة في تأويل " الفجر " :

- (١) الفجر هنا : انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، قاله علي وابن الزبير وابن عباس - رضي الله عنهم - .
- (٢) هو النهار كله ، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله . وهي رواية عن ابن عباس - رضي الله عنه - .
- (٣) هو فجر أول يوم عن المحرم ، منه تنفجر السنة . قاله ابن محيصة عن عطية عن ابن عباس . ومثله قال قتادة .
- (٤) هو صلاة الصبح . رواية عن قتادة - رحمه الله - ايضا .

(١) سورة الفجر آيات (١-٤)

- (٥) هو صحبة يوم النحر . رواه ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس .
 (٦) هو انشقاق الفجر من يوم جمع . قاله عكرمة
 (٧) هو آخر أيام العشر اذا دفعت من جمع . قاله محمد بن كعب القرظي
 (٨) هو فجر نى الحجة . قاله الضحاك .

الوجوه الواردة في " ليلال عشر " :

- وذكر - رحمه الله - في " ليلال عشر " أربعة وجوه :
- (١) هو عشر نى الحجة . قاله ساجد والسدي والكهني .
 (٢) هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى - عليه السلام - " وأتيناها بمعشر " . قاله سرور - رحمه الله - .
 (٣) هي العشر الأواخر من رمضان ، رواية عن ابن عباس وقاله الضحاك .
 (٤) هي العشر الأولى من المحرم ، التي عاشورها . قاله ابن عباس ويغان والبهري .

الوجوه الواردة في " الشفع والوتر " :

- وذكر - رحمه الله - في " الشفع والوتر " ٢١ وجهاً :
- (١) الشفع والوتر : الصلاة . منها شفع ومنها وتر . رواية عن عمران بن الحصين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .
 (٢) الوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر . قاله ابن عباس وعكرمة . واختاره النعاس .
 (٣) الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلية يوم النحر . رواية أبي ايوب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .
 (٤) الشفع خلقه والوتر عدو الله عز وجل . قول لساجد وابن عباس .

- (٥) الشفع صلاة الصبح والوتر صلاة المغرب . وهي رواية عن ابن عباس .
- (٦) هي صلاة المغرب . الشفع فيها ركعتان ، والوتر الثالثة . قاله الربيع ابن أنس وأبو العالية .
- (٧) الشفع يوما منى : الحادى عشر والثانى عشر . والثالث عشر الوتر . قاله ابن الزبير .
- (٨) الشفع عشر ذى الحجة والوتر أيام منى الثلاثة . قاله الضحاك . وعمرو قول عطاء .
- (٩) الشفع والوتر آدم وحواء ، لأن آدم كان فردا فشفع بزوجه حواء ، فصار شفعا بعد وتر . رواه ابن نجيب ، وحكاه القشيري عن ابن عباس .
- (١٠) الشفع آدم وحواء ، والوتر هو الله تعالى . رواية عن ابن عباس .
- (١١) الشفع والوتر الخلق ، لأنهم شفيع ووتر . فكانه أقسم بالخلق .
- (١٢) الشفع درجات الجنة وهي ثمان . والوتر درجات النار ، لأنها سبعة . قاله الحسين بن الفضل .
- (١٣) الشفع الصفا والعروة . والوتر : الكسفة .
- (١٤) الشفع الأيام والليالي . والوتر : اليوم الذى لا ليلة بعده وهو يوم القيامة . قاله مقاتل بن حيان .
- (١٥) الوتر : هو الله وهو الشفع أيضا ، لقوله تعالى " ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابمهم " قاله سفيان بن عيينة .
- (١٦) الشفع تضاد أوصاف المخلوقين : المز والذل . والقدرة والمعجز ، والقوة والضعف الخ والوتر : انفراد صفات الله تعالى : عز بلا ذل ، قدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف . الخ قاله أبو بكر الوراق .

(١٧) المراد بالشفع والوتر العدد كله ، لأن العدد لا يخلو عنها ، وهو اقسام بالحساب . قاله الحسن .

(١٨) الشفع مسجد مكة والمدينة ، وهما الحرمان . والوتر : مسجد بيت المقدس .

(١٩) الشفع القران بين الحج والعمرة او التمتع بالعمرة الى الحج . والوتر : الافراد فيه .

(٢٠) الشفع : الحيوان ، لأنه ذكر وانثى والوتر : الجماد .

(٢١) الشفع ما ينسى والوتر ما لا ينسى . وقيل غير هذا .

الوجوه الواردة في " والليل اذا يسر " :

وذكر - رحمه الله - في " والليل اذا يسر " ٦ وجوه :

(١) معنى " يسرى " سار فذهب . قاله اكثر المفسرين

(٢) معنى " يسرى " جاء وأقبل . قاله قتادة وابو العالية .

(٣) " والليل اذا يسر " معناه : اذا استوى . قاله ابراهيم .

(٤) هي ليلة المزدلفة خاصة ، لا اختصاصها باجتماع الناس فيها لراحة الله .

قاله عكرمة والكلبي ومجاهد وسعد بن كعب .

(٥) هي ليلة القدر ، لسراية الرحمة فيها . واختصاصها بزيادة الثواب فيها .

(٦) انه أراد عموم الليل كله . (١)

وهكذا ذكر - رحمه الله - في تأويل الكوثر في قوله تعالى :

" انا اعطيناك الكوثر " ١٦ وجها :

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٣٨-٤٢

الوجوه الواردة في تطويل " الكوشر " :

- (١) انه نهر في الجنة . رواه البخارى - رحمه الله - عن أنس والترمذى - رحمه الله - أيضا .
- (٢) انه حوض النبى - صلى الله عليه وسلم - في الموقف . والاخبار في حوضه في الموقف كثيرة . وهو اختيار عطاء - رحمه الله - .
- (٣) انه النبوة والكتاب . قاله عكرمة .
- (٤) انه القرآن . قاله الحسن .
- (٥) انه الاسلام . حكاه المنيرة .
- (٦) تيسير القرآن وتخفيف الشرائع . قاله الحسين بن الفضل .
- (٧) هو كثرة الاصحاب والأمة والأشباع . قاله ابو بكر بن عياش ويهان بن رلاب .
- (٨) انه الايثار . قاله ابن كيسان .
- (٩) انه رفقاً بالذكر . حكاه الماورى .
- (١٠) انه نور في قلبك ذلك على . وقطعك عما سواى .
- (١١) هو الشفاعة .
- (١٢) معجزات الرب تدى بها أهل الاجابة لدعوتك . حكاه الثعلبى .
- (١٣) هو " لا اله الا الله محمد رسول الله " قاله عمال بن يساف .
- (١٤) هو الفقه في الدين
- (١٥) هو الصلوات الخمس .
- (١٦) هو المظيم من الأمر . (١)

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٢١٦-٢١٨ .

كيف نصرّف الوجه الصحيح ؟

ولا نريد أن نطيل ، فكل من اطّلع على كتب التفسير يعرف أن المفسرين

- رحمهم الله - أودعوا في كتبهم كل ما عثروا عليه من وجوه التأويل .

ومعلوم كذلك أن تلك الوجوه كلّها لا تصلح لأن تكون تفسيراً لتلك

الكلمة أو الآية ، فإن فيها ما هو سليم ومنها ما هو سقيم . وإنما الوجه الصحيح

المراد يكون واحداً لا غير ، فإن الكلمة أو الآية لا تحتل في وقت واحد أكثر من

معنى واحد .

يقول الامام الفرائسي - رحمه الله - :

" ان القرآن قديمي (١) الدلالة . واحتماله المعاني الكثيرة ينشأ من قصور

العلم والعجز . والعلماء الذين نقلوا أقوالاً مختلفة في تفسيرهم أرادوا أن يغلوا

بيننا وبين كل ما قيل في توجيه الآيات فنختار منها ما يرجح عندنا ولكن ليس لنا

أن نحفظ الأقوال من غير ترجيح عندنا فنبقى «يارى جاهلين » . (٢)

ويقول - رحمه الله - :

" وما علمت دواء لهذا الداء المضال (وهي العمرة الناتجة من كثرة

الأقوال) الا التمسك بالقرآن ورد الروايات والآراء الى كتاب الله . وعندما

لا يكون الا بان نؤمن " أن القرآن لا يحتمل الا تأويلاً واحداً " وقد قدمت القول

في أن القرآن قديمي الدلالة . وليس لعبارة الا مدلول واحد . " (٣)

(١) تلك وجهة نظر تفرد بها الامام الفرائسي - رحمه الله - وكان - رحمه الله -

مقتنفاً برأيه هذا كل الاقتناع . فانه أكد عليه في مؤلفاته في عمدة

مناسبات . واعتمد فيه على دلائل قد يقتنع بها الباحث وقد لا يقتنع ، فانه

- رحمه الله - اكتفى بالاشارات . وما سنحت له الفرصة حتى يفصلها تفصيلاً

وعلى كل حال فهو موضوع يصلح لأن يكون موضع بحث علمي ودراصة موضوعية

ولا شك . والمقام لا يتسع لأن نخوض فيه حتى نحكم له أو عليه .

(٢) فاتحة تفسير نظام القرآن ص ١٦ .

(٣) التكميل في اصول التأويل ص ٢٠ .

ولذلك نرى السلف - رحمهم الله - ما كانوا يفسرون الكسبة أو الآية الا بوجه واحد . ثم لما جاء عصر التدوين وجمعت آراؤهم ودونت أقوالهم وجدنا أنفسنا أمام حشد من الأقوال والآراء والوجوه والاحتمالات .

ومع ذلك نرى المفسرين - رحمهم الله - يمدون أن يسردوا الأقوال ، قد يشيرون الى ميلهم والى ما يفلب على ظنهم ، وإن كان الغالب فيهم أنهم يكتفون بسرد الآراء ويتركون الاختيار والترجيح للقارى .
وهنا يبرز سؤال . وضوء سؤال هام ولا شك :

ما هو المقياس الذى نقيس به تلك الآراء ؟ وما هو المحك الذى يميز لنا السليم من السقيم والقوى من الضعيف ؟

والموقف يفرض علينا أن نحصر الكلام فى نطاق معين ، ونركز على نقلة واحدة ، فهذا يساعدنا على متابعة الموضوع .

فنحن نأخذ " الكوثر " . ونرجو - بفضل الله ومنه - أن نخرج من هذا البحث بما يروى النعم ويثلج الصدر .

قد سبق معنا أن الامام القرطبي - رحمه الله - ذكر فى تأويل " الكوثر " ستة عشر وجها . وهذا لا يخفى الامام القرطبي - رحمه الله - فأغلبه المفسرين - رحمهم الله - ذكروا تلك الأقوال ، بل أضافوا اليها . ولقد بلغ عدد تلك الاقوال عند صاحب " التحرير " الى ستة وعشرين .^(١)

ثم نرى كذلك أن المفسرين - رحمهم الله - لم يكتفوا هنا بذكر تلك الأقوال . بل وقفوا منها موقف الاختيار والترجيح ، مع التنبه على ما اعتمدوا عليه فى ذلك الترجيح .

(١) روح المعاني ٢٤٥/٣٠

موقف عدد من المفسرين وعمدتهم في الترجيح :

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - بعد حكاية الأقوال الواردة في تأويل الكوشر :

" وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال هو اسم النهر الذي أعطيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الجنة . وصفه الله بالكثرة لعناقه قدره . وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك لتتابع الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن ذلك كذلك " (١)

ويقول الامام القرطبي - رحمه الله - :

" قلت : أصح هذه الأقوال : الأول والثاني ، لأنه ثابت عن النبي

- صلى الله عليه وسلم - نص في الكوشر

" وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - زيادة على حوضه ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً " . (٢)

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله - :

" فهذه الامدادات يدل على أن الكوشر هو النهر الذي في الجنة . فيتمين

المصير اليها وعدم التصويل على غيرها . وان كان معنى الكوشر : هو الخير الكثير

في لغة العرب . فمن فسر به بما هو أهم ما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم -

فهو تفسير ناظر الى المعنى اللغوي

" ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد فسرهما فيما صح عنه أنه النهر

الذي في الجنة ، وإذا جاء نهر الله بنزل نهر مقل " . (٣)

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٣٠ ص ٢٠٨-٢٠٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٢١٨

(٣) فتح القدير ج ٥ ص ٥٠٣-٥٠٤

وهكذا نرى أغلبية المفسرين - رحمهم الله - وقفوا من تأويل الكوثر بنفس
الموقف ، بدليل أنه هو الثابت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا داعي
للركون الى الأقوال الأخرى الواردة في تأويله عن السلف - رحمهم الله - .

سؤال ؟

وهنا يثور سؤال . وهو سؤال مهم ولا شك . وهو أن تفسير الكوثر
ان كان ثابتا عن نبينا - عليه الصلاة والسلام - على وجه التحديد ، فما الذى
حمل أسلافنا - رحمهم الله - أن يفكروا فيه ويبحثوا له عن تأويل آخر؟
سبع أنهم كانوا على علم بتلك الأخبار الواردة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .
فهذا ابن عباس - رضى الله عنه - حبر الأمة وترجمان القرآن كان سألما
على تلك الروايات ولا شك .

كما روى الامام ابن جرير - رحمه الله - قال حدثنا ابو كريب قال ثنا عمر بن عبيد
عن عطاء عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال :

" الكوثر نهر فى الجنة ، مافته من ذهب وفضة يجرى على الياقوت

والدرّ ماؤه ابيض من الثلج واعلى من المسك " (١)

وهكذا روى عن مجاهد - رحمه الله - أنه قال :

" الكوثر نهر فى الجنة ترابه مسك أزفر وماؤه الخمر " (٢)

ثم نرى عند ابن جرير نفسه عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال فى
الكوثر ، وهو الخير الكثير الذى اعطاه الله اياه . قال ابو بشر فقلت لسعيد بن

(١) جامع البيان ج ٣٠ ص ٢٠٧

(٢) جامع البيان ج ٣٠ ص ٢٠٧

جبير : فان ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة قال فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله اياه . (١)

وكذلك نجد عند ابن جرير نفسه عن مجاهد أنه قال : الكوثر : الخير الكثير . ومرة قال : الكوثر : الخير كله . ومرة قال : خير الدنيا والآخرة . (٢)

فهل نقول : انهم كانوا من الزاهدين في تفسير نبيهم - عليه الصلاة والسلام - حتى أرخوا لمداركهم عنان التفكير ، ثم ألعموا علينا بتفسير يختلف عن ذلك التفسير ؟

وبمثل يتصور عن ابن عباس وأسأله أن يأتهم تفسير عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم هم لا يحرصون عليه ؟

وأى تفسير يكون أحب إليهم عن تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فلا شك أن ما قاله هؤلاء المفسرون لا يملح أساسا للاختيار والترجيح .

اتجاه الاسام الألويسى - رحمه الله - :

وطعل الاسام الألويسى - رحمه الله - كان أرشد موقفاً وأدرك للبهيمية

الموضوع ان قال :

* وقد أشرح البخارى وابن جرير والحاكم عن طريق ابى بشر عن سعيد

ابن جبير - رضى الله عنه - أنه قال : الكوثر الخير الذي أعطاه الله تعالى اياه - عليه الصلاة والسلام -

قال ابو بشر : قلت لسميد فان ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة قال
النهر الذي في الجنة من الخير الذي اعطاه الله عز وجل اياه - صلى الله
تعالى عليه وسلم - وحكى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضا وفيه اشارة الى
أن ما صح في الأحاديث من تفسيره - صلى الله عليه وسلم - اياه بالنهر من
باب التمثيل والتخصيص لنكتة ولا فبعد أن صح الحديث في ذلك بل كاد
يكون متواترا كيف يمدل عنه الى تفسير آخر . وكذا يقال في سائر ما فسى
الاقوال السابقة وغيرها . (١)

ما هو الأساس :

فان لم يكن فيه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شىء ثابت على
وجه التحديد ، وابتدنا بسنة عشر أو ستة وعشرين وجها من وجوه التأويل وكان
علينا أن نختار واحدا منها فكيف نختار ؟ وعلى أى أساس يعتمد هذا الاختيار؟
هل يوجد هناك أساس غير الذى أشرنا اليه ؟ ألا وهو اطمان النظر
في نظام السور وتتبع الرباط بين الآيات . وهذا التتبع وهذا اطمان هو
الذى ينير لنا الطريق ويكشف القناع عن التأويل الصحيح .

قال الامام الزركشى - رحمه الله - ، وهو يذكر الأمور التى تعين على
المعنى عند الاشكال ، :

" وما يصين على المعنى عند الاشكال أمور . ومنها دلالة السياق ،
فانها ترشد الى تبين المعنى والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص

(١) روح المعانى ج ٣٠ ص ٢٤٥

العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، ودون أعظم القران الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره . وغالط في مناظراته . " (١)

ويقول الامام الغزالي - رحمه الله - :

" اذا كثرت وجوه التأويل في آية كان الأمر كاشتراك اللفظ . والحاكم عند اشتراك اللفظ موقع استعماله . فهكذا عند اشتراك الوجوه في آية لا سبيل الى المعنى المراد الا بالنظر في موقع الآية .

ومن ههنا ظهرت شدة الحاجة الى النظام . وعلة الاختلاف الكثير أنهم لم يراعوا النظام وتهافتوا على الروايات فخطبوا في المعانيات .

ومن ذلك موقع السورة فان في الملم به نورا ويمدى . " (٢)

فهيا بنا نضمن النظر في نظام سورة الكوثر وما جاورها من السور ، فلنصل

ذلك يكون مصوانا لنا في ادراك المراد بالكوثر .

نظام سورة الكوثر وما جاورها من السور :

نأمل أولا في سورة الفيل . . فنجد أن الله - تعالى - ذكر فيها

قصة هلاك أصحاب الفيل ، الذين جاؤوا ليهدموا الكعبة ، بيت الله الحرام .

ذكر هذه القصة لينبه قريشا على سوء تصرفاتهم وسوء موقفهم من الكعبة ،

فانهم قد نسوا غايتها ورسالتها وأبعدوها عن أسسها وأهدافها .

فالكعبة بنيت حتى تكون مشرقا للتوحيد ومركزا للاسلام وقبلة للصلاة ومناجاة

للناس وأما . ولكنهم دنسوها بالكفر والشرك ، وطلوؤها بالأحجار والأصنام ،

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٩٩-٢٠٠

(٢) التكميل في أصول التأويل ص ٢٩

وجعلوها وثنا من الأوثان . وصدوا عنها الرسول والمؤمنين . وذلك أثبتوا أنهم - مع كونهم أولياء الكعبة بزعمهم - يسمون في خرابها ، حيث قال تعالى :

" ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسمى فسوس خرابها " (١)

فنبههم الله تعالى أنه كما أهلك أصحاب الغيل الذين جاءوا ليهدموا بيته وجعلهم كعصف مأكول فكذلك يدمرهم إن لم ينتهوا عما هم فيه من اضرار هذا البيت ، فانهم إذا وقفوا من البيت موقف أصحاب الغيل فلا جرم أن يذوقوا ما ذاق هؤلاء من عذاب شديد وأخذ وسيل .

وقد جاءت مثل هذه التنبيهات في عدة مواضع . قال تعالى :

" ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والهاد ، ومن يرد فيه بالحاد يظلم نفسه من عذاب أليم . " (٢)

" وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . ان أولياؤه الا المستقون ولكن أكثرهم لا يعلمون " (٣)

ثم جاءت سورة قريش موعظة لهم وتذكارا لآياتهم بعد ما سبقها من الانذار الشديد .

فذكر الله تعالى في تلك السورة نعمته السابقة وفضله العميم على قريش ، إذ كانت

(١) سورة البقرة ١١٤

(٢) سورة الحج ٢٥

(٣) سورة الأنفال ٢٤

قوافلهم التجارية تخرج في الصيف الى الشام وفي الشتاء الى اليمن . وكانوا يرحلون آمنين ويمودون سالمين . وما كان يطعم فيهم طامع ، بل كانوا موضع احترام وتقدير لدى الجميع . وكانوا يجدون أمننا حلوا ، الرعاية والكرامة ، على الرغم من أن الجزيرة كانت تفقد الأمن والاستقرار . وكانت الأسفار يومئذ محفوفة بالأخطار .

وما كان هذا كله الا لأنهم جيران بيت الله !

فذكرهم الله تعالى ما يجب عليهم لقاء هذه الكرامة والرفاهية المستثى افيضت عليهم ، وهو أن يعبدوا رب هذا البيت ، الذي يسعدون بجواره وينعمون ببركاته . ويطرحوا ما فيه من الأصنام . ويميدوه - كما كان - مصلين ومثابة للناس وأمناء .

وقرن هذه السورة بسورة الفيل حتى لا يغتروا بالنعم والرفاهية التي يفتنون فيها ويرومونها . ويذكروا أن هذه الرفاهية ليست الا فيضا من فيوض الكعبة ، فان لم يراعوا عزمها ولم يعبدوا الى رسالتها وأهدافها ولم ينتهوا عن السعى في خرابها فيوشك أن يلاقوا ما لاقى أصحاب الفيل من الشقى واللعنة الى يوم القيامة .

ثم جاءت سورة الماعون . وجاءت لهم بالويل والشقاء ، فانهم كذبوا بيوم الدين ولم يعبدوا ربهم ولم يحافظوا على صلاتهم .

نعم انهم كانوا يصلون ، ولكن صلاتهم لم تكن تلك التي أشار اليها ابراهيم - عليه السلام - حيث قال :

" ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة " (١)

ودعا ربه فقال : " رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء " (١)

وانما كانت صلاتهم عيث وصفها القرآن فقال :

" وما كان صلاتهم عند الهيئ الا عكاً وتصدية " (٢)

كانت طقوساً جوفاء ومظاهر خاوية ، بعيدة عن روح الصلاة وروعها وبها لها ،

شوية بما يشينها من أضرار الجاهلية وأرجاسها .

وهكذا كانوا يصلون وكانوا عن صلاتهم ساهين .

ثم لم ينته الأمر هنا ، بل قست قلوبهم ، فصارت كالحجارة أو أشد قسوة ،

اذ كانوا يدعون اليتيم ويمنعون الماعون ولا يحضون على طعام المسكين .

وهكذا همدموا العمودين الذين رفعت عليهما قواعد البيت . وهمسوا

الصلاة والزكاة . أو العبادة والمواساة .

فلم يبق لهؤلاء الخونة الفجرة الا أن يلعنوا ويخرجوا من هذا البيت

وولايته ويخلى المكان لأهله كما قال تعالى :

" وبالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا

أولياءه . ان أولياءه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند

البيت الا عكاً وتصدية . فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " (٣)

وقال تعالى :

" ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر .

أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . انما يعمروا مساجد الله من آمن

(١) سورة ابراهيم آية ٤٠

(٢) سورة الانفال آية ٣٥

(٣) سورة الانفال آيات ٢٤ - ٢٥

بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فمسن أولئك أن يكونوا من المهتدين " (١)

فجاءت سورة الماعون . وكانت نداء من الله تعالى بأنهم عزلوا عن هذا المنصب الكريم ، ونزع منهم هذا الشرف العظيم ، وصب عليهم الويل واللعنة الى يوم الدين .

ثم جاءت سورة الكوثر تحمل المشرى الى النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن الله قد اختاره وأمه لهذا الشرف الأكبر وأعلمه هذا الخير الكوثر . صبح التنبه على ما يتبع هذا الهداء من سلطنة ضخمة ، وهي احياء ما أماته المشركسون من معالم التوحيد ، الذى أسس عليه هذا البيت العتيق ، حيث قال :

" انا أعطيتك الكوثر . فصل لربك وانحر ، ان شانك هو الابر . "

ولقد حاول الامام الفراهي - رحمه الله - أن يبرز البندام الذى تتنظم به هذه السور ، فأحسن وأجاد . يقول - رحمه الله - :

" قد سُرَّ في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في ذكر الذين كسبت خيانتهم في ولاية الكعبة لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها . وأبدلوا حقيقة الصلاة والنحر بالبال التوحيد والمواساة بالمساكين ، فهاؤا بالويل واللعنة وحق لهم أن يسلبهم الله هذا الخير ويعطيه من استحقه حسب سنته كما قال :

" وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم " (٢)

وكان الله تعالى ينزع ولاية الكعبة عن الخائنين . فهذه السورة بشر

(١) سورة التوبة ١٧-١٨

(٢) سورة موعذ آية ٢٨

الله تعالى نبيه بأنه اصطفاؤه وأمه لولاية بيته المحرم ، ومسكن خليله وذريته
التي يبارك بها الأمم ، كما جاء في الثوراة . ولذلك سعى الله تعالى هذا
البيت مباركاً ومدى للناس (١)

ولاشك أن هذا المعطاء هو الفوز الأكبر والخير الكثير وهو الضمان للحوض
الكثير الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة ،

فموضع هذه السورة والتي قبلها كموقع ذكر النعمة بحد النعمة والمعطاء
بعد السلب والمستخلفين بعد المهلكين . وذلك أسلوب عام في القرآن .

ذلك . ولما كانت السورة الثالثة في إعلان الهجرة من جوار بيته حسن
في نظم الكلام تقديم سورة التبشير والتسليم ليبدل القرآن بنظمه على أن الله
تعالى قضى باليسر قبل العسر وإن كان وقوعه بعدها .

فترى أن إعلان الهجرة الذي تضمنه سورة الكافرون وضع بين سورتي التبشير
أعنى سورة الكوثر وسورة النصر .

ثم لما كانت هذه السورة بشاراً للنبي - صلى الله عليه وسلم - بكثرة
أحبابه ويقطع أعداءه عن بركات الكعبة جاءت سورة الكافرون بياناً لأصل هذه
المقاطعة ، وهو التوحيد الذي بنى عليه هذا بيت الله الواحد .

فهذا اجمال القول في عمود السورة وربطها ، وأما الاطمینان بما ذكرنا
فيرجى من تفصيل يجمعه .

" واعلم أن أصل ما نتصمك به في تأويل الكوثر هو نظم السورة وموقع آياتها

(١) سورة آل عمران آية ٩٦

وربما وسمانيها وحسن تأويلها كما يتبين لك من النظر في الفصول التي بمد
الفصل السابع وأما ذكر الوجوه الأخر وتطبيق الروايات فلرفع الشكوك عن قـل
اعتناؤه بمحاسن النظم وسماني التأويل " (١)

بقية السور تكلمة لسورة الكوثر :

ويبدو بمد امان النظر في نظام هذه السور كأن القرآن أكل وختـم
على هذه السورة العظيمة . والسور التي جاءت بمدها كلها تكلمة لهـذه
السورة وتبين لمحتوياتها .

فسورة الكافرون وسورة الاخلاص تكلمة لقوله تعالى " فصل لربك وانحر "

وتبين له .

كأنه قيل :

" فصل لربك وحده وانحر لربك وحده ، وناد في الناس أنك برى من
من الشرك وأهله وآلهته فقل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون . وإنما الذي
أعبد هو الله الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " .
وجاءت بينهما سورة النصر وسورة الذهب . وكان ذلك في غاية الدقسة
والحكمة ، فانهما لم يكن لهما مكان أنسب من هذا . والذي يشير العجب أنهما
وضعتا بين سورتين شقيقتين متعاسكتين للغاية . ولكن هذا التخلل لم يخـدش
تعاسكهما . بل زادهما تعاسكا الى تعاسك عجيب . وذلك من جهتين :

الجهة الأولى : " أن هاتين السورتين كتكلمة لقوله تعالى : " انا أعطيناك

الكوثر " وقوله : " ان شانك هو الأبر " كأنه قيل :

(١) تفسير سورة الكوثر ص ١-٣ .

إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخولون في دين الله أفواجا
ورأيت عدو الله قد تبَّ وتبت يداه ورأيت الكفر قد تزعزع وتمزق وانتفضت عسراه
فحينئذ يتحقق هذا العطاء الالهى الكريم فى أجلى صورته . ويفرض وجوده على
الجميع بحيث لا يبقى منكراً على انكاره . ويظهر أن الأعداء هم الأباطر على عكس
ما زعموا .

والجهة الثانية : أن اعلان البراءة (الذى تتضمنه سورة الكافرون)
معناه اعلان الهجرة والجهاد .

كما جاء ذلك واضحا فى قول * ابراهيم والذين معه ، ان قالوا لقومهم
انا براء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ودا بيننا وبينكم المداوة
والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده * (١)

وإذا كانت الهجرة وكان الجهاد فلا بد أن ينزل النصر ويأتى الفتح كما قال تعالى :

* ان تصبروا الله ينصركم * (٢) وقال - تعالى - :

* وأخبرى تبينها نصر من الله وفتح قريب ويشر المؤمنين * (٣)

علما بأن تلك الآية انما جاءت لتبشر بما يترتب على الجهاد من جزاء

كريم وسلاء عظيم .

وإذا جاء النصر فلا بد أن يكسر جناح الشرك ويؤذن له بالثياب . فربط

هاتين السورتين يتمثل فى قوله تعالى :

* قل جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقا * (٤)

-
- (١) سورة الممتحنة ٤
(٢) سورة سجد آية ٧
(٣) سورة الصف آية ١٣
(٤) سورة الاسراء آية ٨١

فلما انتصر الحق واندحر الباطل وفتحت مكة لجيش الاسلام أبوابها وعادت الكعبة الى أهلها وأوطانها ، وأصبحت - كحالتها يوم أسست - مشرقا للتوحيد وموللا للإيمان ومثابة للناس وأما . وعاد الحق الى نصابه وقفل الشرك على أذنيه ، حينئذ ختم على هذه الصحيفة الخالدة بختم التوحيد . وجاء الأمر الالهي بجلجل في الكون :

" قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . "

فكان هذا ايذانا برفع لواء التوحيد عاليا خفاقا ، وانتكاس الشرك وانحسار ظله تماما في البيعة المؤمنة التي رضيت بالله ربا ومحمد رسولا وبالقرآن هاديا واما .

ثم جاءت السمواتان ، وصا كتكلمة لسفهوم " الصمد " وتبيين له ، فان الصمد هو الذي يستعان به ويلجأ اليه ضد العدو . فعملنا الله كيف نستعيد به ونلجأ اليه حتى لا يقع في وحل الشرك وتكون بمنجاة من الشيطان ، فسان الاستمادة بالله والاتجاه اليه ركن من أركان التوحيد وسلاح من أسلحة المؤمن . ومن لم يحمل هذا السلاح فيخشى عليه أن تغتطفه الشياطين .

وهكذا نرى أن هذه السور كلها ترتبط بسورة الكوثر وتحوم حولها . ونرى كذلك أن الله تعالى كما جعل غاية بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - استخلاص الكعبة وفتح مكة - كما توحى اليها سورة النصر - وبعد ما تم هذا ختم نبوته ودعاه الى جواره . فكذا ختم صحيفته التي أنزلت عليه ببشرى تشریفه بالكعبة . وسماها الكوثر اشارة الى خيراتها وبركاتها التي لا نهاية لها .

ويقرب منه ما قال الامام الفراهي - رحمه الله - حيث يقول :

" قد ذكرنا في تفسير سورة النصر أن الله تعالى كما ختم هذه البعثة

بفتح مكة فذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم . وذلك
انباء بأن الحق بلغ مركزه لأن فتح مكة هو مركز هذه البعثة لكون الكعبة مركزاً
للتوحيد والاسلام كما مر تفصيله في تفسير سورة البقرة * . (١)

ويزيدنا اطمئناناً الى هذا النظام الذي أشرنا اليه أنه يتفق تماماً مع تلك
الكلمات المخالدة التي أرسلها النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة ، ان
قال وهو آخذ بمضادتي باب الكعبة :

" لا اله الا الله ، وحده لا شريك له . صدق وعده ونصر عبده وهزم
الأحزاب وحده " (٢)

فان " لا اله الا الله " ناظر الى سورة الكافرون . " وحده لا شريك له " ناظر الى سورة الاخلاص . " صدق وعده " ناظر الى سورة الكوثر . " ونصر عبده " ناظر الى سورة النصر " وهزم الأحزاب وحده " ناظر الى سورة المهب .
وقد روى جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - وهو يحكى كيفية حجة النبي
صلى الله عليه وسلم قال :

" حتى اذا أتينا البيت سمعنا اسطم الركن فركل ثلاثاً وشئ أربعاً ثم نفذ الى مقام
ابراهيم عليه السلام فقرأ " واتخذوا من مقام ابراهيم مطلى " فجعل المقام بينه
وبين البيت فكان أبى يقول " ولا أعلمه ذكره الا عن النبي صلى الله عليه وسلم " .
كان يقرأ في الركعتين : قل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون ثم رجع الى
الركن فاستلمه . " (٣)

وما جمع النبي - صلى الله عليه وسلم - هاتين السورتين في قراءة الا لقراءة

- (١) تفسير سورة المهب ص ١
(٢) زاد المعاد للإمام ابن القيم - رحمه الله - ج ٢ ص ١٦٥
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٤/٨، ١٢٦

ماسة بينهما ، فان من هديه - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يراعى فى قراءته الترتيب ، اللهم الا اذا كان هناك ربط مباشر بين سورتين ، فقد كان يراعى ذلك .

ونستشف كذلك من خلال قراءته - صلى الله عليه وسلم - هاتين السورتين بمد الطواف بالبيت أن هناك صلة خاصة تربطهما بهذا البيت . و اذا كان الأمر كذلك ، فلا جرم أن يكون هذا البيت هو الذى سبق ذكره باسم الكوثر . وقد اختار النبى - صلى الله عليه وسلم - هاتين السورتين لهذا المقام جريا على مقتضى النظام .

فلننظر أن تتبع النظام بين هذه السور كيف يكشف لنا القناع عن التأويل الصحيح " للكوثر " .

ثم لما تبين لنا التأويل الصحيح " للكوثر " فى ضوء نظام هذه السور ، لم يعد عسيرا علينا أن نختار واحدا من تلك الاتجاهات التى وردت فى تأويل " الكوثر " . ونقول : ان مثل هذه الروايات أقرب الى الصحة من غيرها :

١- قال ابن جرير حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال سئى ابوصخر عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية : " انا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر " يقول : ان ناسا كانوا يطلون لغير الله وينعمرون لغير الله فاذا أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتك ونمرك الا لى . " (١)

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن ج ٣٠ ص ٢١١

وقال حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني أبو صخر قال ثنا أبو معاوية البجلي عن سعيد بن جبیر أنه قال كانت هذه الآية بمعنى قوله " فصل لربك وانحر " يوم الحديبية . أتاه جبیر بن عبد الله عليه السلام فقال انحروا لرجع فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخطب خطبة الفطر أو النحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرفها . فذلك حين يقول : " فصل لربك وانحر . " (١)

نقول : إن هاتين الروایتين أقرب إلى الصحة لأنهما تتسجمان مع ما يوحى إلينا نظام السور . وتؤيدان قول من يعنى الكعبة بالكوفة .

أما الرواية الأولى فهي في غاية الوضوح ولا تحتاج ما إلى زيادة بيان . وأما الأخرى فهي تقول : إن قريشا لما صدوا المسلمين عن المسجد الحرام . ولم يسمحوا لهم بالحج أو العمرة عام الحديبية ، جاءت البشرية إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - : أنا أعطيناك هذا الكوفة . وقد دخل المسجد الحرام إن شاء الله فلا تأس على ما فعلوا ، وصل الصلاة وانحر البدن . أنهم أرادوا أن يقطعوا عن الكعبة ومراكبتها ولكنهم سيمسكون بمد حين أنهم هم المقطوعون عن شرفها ومراكبتها ، وليس لهم منها حظ ولا نصيب . ولا حبل ولا بصير .

قد يؤخذ علينا في كلامنا هذا أننا لم نتقيد في البحث عن نظام هذه السور بأسباب النزول التي وردت ، والتي التزم بها المفسرون - رحمهم الله - في كتبهم . ولكن المقام لا يسمح لنا حتى نمالج بهذه

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٣٠ ص ٢١٢

الشبهة ونسلط عليها الأضواء ، فلا بأس بأن نوجهل هذه النقطة الى وقتها المناسب .

وسنفرد فصلا خاصا للكلام عن أسباب النزول . وهناك نجد - ان شاء الله - ما يرضى النفس ويروى النقع .

الفصل الثالث

العزيمـة الثالثـة

النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه ، كما أنه سر من أسرار اعجازه ،
فانه الذى جعل القرآن بحرا لا يسبر غوره ولا ينغد كنزه .

قال الامام الرازى - رحمه الله - :

" أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط " . (١)

وقال الامام الزركشى - رحمه الله - :

" وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة " . (٢)

وقال الامام البقاعى - رحمه الله - :

" المقصود بالترتيب معان جليمة الوصف ، بديعة الرصف ، عالية الأمر ، عظيمة
القدر " . (٣)

وقال الامام الفراهى - رحمه الله - :

" ولما كان أكثر الحكم ومعالى الأمور مخبوءة تحت دلالات النظم ، فمن ترك
النظر فيه ترك من معنى القرآن عظمه . والقرآن حكمة ونور . وقد أشار النبى
- صلى الله عليه وسلم - الى ذلك فى قوله " ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه بل أكثر " (أو ما يشبه ذلك) وذلك هو فهمه وهو بحر لا ساحل له ، ومنه فهم النظم ، فسان
العمانى تكلم بعد ذلك " . (٤)

وهذه نقطه ذات قيمة وأهمية بالفة ، فلا بد أن نتنفس فيها حتى نمطبها حقها

من الوضوح والبيان .

(١) البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ٣٦ .

(٢) أيضا .

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسورج ١ ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) دلائل النظام ص ٣٨ .

فاعلم أن ما صرح به هؤلاء العلماء - رحمهم الله - ليس مجرد خواطر غطرت
ببالهم ، ثم ألقوها على عواهنها . وإنما هي ظاهرة علمية لها جذور عريقة ، موطنها
في العهد الذي نزل فيه القرآن . تدبر معنى تلك الآثار :

قال أبو بكر الصديق - رضی الله عنه - :

" لوضع مني عقاب بمير لوجدته في كتاب الله " . (١)

ويمكن أن نفسر هذا القول بما قاله الامام الشاطبي - رحمه الله - ان يقول :

" وهو أنه لا أحد من العلماء لجأ الى القرآن في مسألة الا وجد لها فيه أصلاً " . (٢)

ثم نرى عبد الله بن مسعود - رضی الله عنه - يقول بمثل ما قاله سيدنا ابو بكر - رضی

الله عنه - ان يقول : " اذا أردتم العلم فأثيروا القرآن ، فان فيه علم الأوليين

والآخرين " . (٣) ثم نجد تصديق هذين القولين في كتاب الله . فقد قال - تعالى - :

" ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء " . (٤)

قال ابن مسعود - رضی الله عنه - في تفسيره : " قد بين لنا في هذا القرآن كل علم

وكل شيء " . (٥)

وقال مجاهد - رحمه الله - : " كل حرام وحلال " . (٦)

وعقب عليهما ابن كثير - رحمه الله - بقوله :

" قول ابن مسعود أعم وأشمل ، فان القرآن اشتمل على كل علم نافع : من شجر

ما سبق وعلم ما سياتي ، في كل حرام وحلال ، وما الناس اليه محتاجون في أمر دينهم

ودينهم وما شئهم ومعادهم " . (٧)

(١) نظرات في القرآن للامام حسن البنا - رحمه الله - ص ٩٧ .

(٢) الموافقات ج ٢ ص ٢٧١ " الطرف الثاني " في الأدلة على التفصيل .

(٣) أيضاً .

(٤) سورة النحل آية ٨٩ .

(٥) (٧٠٦٠٥) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٢ .

وقال سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - :

" كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم . " (١)

أى تمسكوا بالقرآن ، فانكم اذا وعيتموه وتشبهتم به فستكونون ينابيع العلم ،
فان هذه الينابيع تنفجر من هذا القرآن .

ومصدق ذلك ما قاله سيدنا علي - رضى الله عنه - ان يقول :

" ها ان ههنا لعلمنا جما (وأشار الى صدره) لو أصبت له حملة ! " (٢)

وقال - رضى الله عنه - : " وان القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه

ولا تنقضى غرائبه " (٣)

وهنا نجد أنفسنا أمام عديد من الأسئلة ، فلا بد أن نقف عليها ونتأمل فيها :

(١) ما هو الباطن الذى وصفه علي - رضى الله عنه - بالمعق وبأنه لا تفنى عجائبه

ولا تنقضى غرائبه ؟ هل هو غير النظم المعجز الذى يتميز به القرآن من بين

سائر الكلام ؟

(٢) ما هو العلم النبىء الذى كان يرمى فى صدره ولم يصب له حطة ؟ هل كان يعنى

به العلم الذى تحتله ألفاظ القرآن فهو معروف وميسور ، أم عنى به ما وضعه الله

تحت دلالات النظم ؟ فهذا كوز ما يلقاها إلا ذو وحظ عظيم ، وقليل ما هم !

(٣) ماذا أراد عمر - رضى الله عنه - بقوله " كونوا أوعية الكتاب " ؟ هل كان يعنى

حفظ ألفاظ القرآن وفهمها ؟ فهذا شىء لم يكن نادرا فى جيل نشأ فى

رحاب القرآن . أم كان يطلب منهم أن يستوعبوا القرآن ويشربوه ويفوضوا فى

بحاره ، ويبحثوا عن الكنوز التى وضعها الله فى نظامه فيفيضوا بالمعلم ؟

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده ج ٤ ص ٣٦ .

(٣) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٥ .

(٤) ماذا كان يقصد ابن مسعود - رضى الله عنه - بإثارة القرآن ؟ هل كان يقصد أن تعرف هذه الألفاظ وتعرف مدلولاتها فحسب ، أم كان يعنى أن تطلل من هذه المنافذ الى ما وراءها من الفرائد ، والتي لا تعثر لها على أثر الا بتتبع النظام ؟

(٥) وماذا كان يقصد أبو بكر - رضى الله عنه - حين قال : " لوجدته فى كتاب الله " ؟ هل كان يعنى بكتاب الله ظهر القرآن ؟ فظهر القرآن لا يدلسه على " عقال بصير " . وإنما الذى يدلّه على هذا المقال هو بطن القرآن . والدليل الى هذا البطن هو النظام . هذا ، ولكنى يتضح الأمر وضوحاً كاملاً نلجأ الى مثال ، فان المثال هو الذى يشخص الحال .

وسوف ترى من خلال هذا المثال كيف يسخر النظام المعانى ويقيد الأوابد ويمكن المرء مما لم يكن فى حسبانته من درر العلم وفرائد الحكم .

مثال لانفجار المعانى بعد تتبع النظام :

قال الله - تعالى - فى كتابه العزيز :

" من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين " . (١)
حين نتدبر تلك الآية ونؤمن النظر فى نظامها تتجلى لنا عدة حقائق قيمة .
وهى كما يلي :

(١) ان عداوة الملائكة من عداوة الله . فمن كان عدواً لمك فهو عدو لله .

(٢) ان عداوة الملائكة كفر .

(٣) ان جبريل وميكال من الملائكة والرسول .

(٤) ان جبريل وميكال من كبار الملائكة والرسول .

- (٥) ان الرسل من البشر من نوع الملائكة .
 (٦) من عادى رسل الله من البشر فقد عادى رسل الله من الملائكة .
 (٧) ان اليهود كانوا أعداء لجبريل وميكال .
 (٨) ان اليهود هم عدو لله .
 تلك الحقائق القيمة كلها تظهر من التأمل فى نظم هذه الآية .^(١)

مثال آخر :

ويقول الامام الفراهي - رحمه الله - وهو يفسر قوله - تعالى - " فصل لربك وانحر " وبيّن ربطه بما قبله :

" هذه الآية تدل على أربعة أمور :

- الأول : أن الصلاة والنحر لهما ارتباط بهذا المصطفاً لما صدر الأمر بالفداء .
 الثاني : أن فى الآيه أمراً والزاماً بالصلاة والنحر كلا على حدة ، كما فيها الأمر بجمعهما معا ، وذلك كما فى الحج .
 الثالث : أن بين الصلاة والنحر ارتباطاً خاصاً .
 الرابع : اختصاصاً بهذه العظيمة والأمر بالصلاة والنحر معا .
 ويهدى ذلك الى أننا على سنة ابراهيم ورون المشركين ومبتدعى اليهود والنصارى لأن المشركين لم تكن صلاتهم ونحرهم للرب خالصاً . ومبتدعة اليهود لهم يكن لهم غير القرابين . وان قرابينهم لا تسمى نحرًا فان النحر مخصوص بالابل وهو حرام عليهم . ومبتدعة النصارى ليس لهم قران أصلاً والصلاة غير واجبة عليهم بزعمهم .
 فهذه جملة الكلام . ولا يد لها من بعض التفصيل . ونأتى به فى عدة فصول .
 أما الأمر الأول والثانى فتجدهما فى هذا الفصل وسيأتىك الباقيان فيما بعد .

(١) تلك الحقائق أشار اليها الامام الفراهي - رحمه الله - فى كتابه " أساليب القرآن "

فاعلم أن الله تعالى بعدما بشر النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين بهذه المطية ، أعقب البشارة أمرين : الصلاة والنحر . والتعقيب يدل على نسبة وربط بين السابق والثاني أي المطية والأمر . فلما تدبرنا فيما دل عليه نظم الكلام ظهر لنا بعض وجوه الربط بتوفيق الله تعالى فنذكرها والحمد لله تعالى .

الأول : أن هذا الأمر يتضمن بيان مقصد هذا المطاء ، فإن هذا المطاء كان لمقصد عظيم كما قال تعالى :

" الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر " (١) .

وكما حكى الله تعالى عن ابراهيم - عليه السلام - :

" ربنا انى أسكتت من ذرىتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم " (٢) .

أى يأتون اليهم يحجون بيتك .

فعلما أن هجرة ابراهيم وسكناه فى واد قفر وأرض عاقر لم تكن الا لاقامة مركز لعبادة الله الواحد ، يتوجهون نحوه ويأتون اليه من البعد ويطوفون ويسمسون ويقدمون اليه الهدايا كالسبيد يسمون على باب مولا هم الذى دعاهم فأسرعوا اليه قائلين : " لبيك لبيك . لا شريك لك لبيك " .

ثم يسمعون ما أمر الرب ونهى عنه على لسان امامهم . ولذلك قال تعالى :

" وأذن فى الناس بالحج يأتوك " (٣) .

أى يأتوا اليك لاستماع الحكمة ، فإن الله تعالى جملة اماما للناس كما جممل ذلك البلد شابة وبركة وهدى لهم فكان يقرهم ويقوم فيهم خطيبا وهكذا قرى النسبى عشيرته حين قام ببعثته ودعاهم الى الرب . وقد استمرت سنة الخطبة بمد ابراهيم

(١) سورة الحج آية ٤١ .

(٢) سورة ابراهيم آية ٣٧ .

(٣) سورة الحج آية ٢٧ .

مع سائر سنن الحج كما مرّ في تفسير سورة البلد . ثم يطعمون الناس بما ساقوا
من الهدايا ويأكلون منها شاكرين بأن تقبل الرب هدايا عبده ثم أعطاهم ما قربوا
اليه .

فقد تبين أن هذا البيت إنما وضع لمقاصد عظيمة بها أعطاهم المتمكين ففى
الأرض . وإن معظمها الصلاة والنحر فذكرهما بعد ذكر اعطائه ليعلموا أن هذا
المطأ له حق وغاية ، ليقوموا بحقه ويتموا ما لأجله أعطوه . وذلك منى على وجوب
إيفاء الحقوق ، فإن لكل عطاء حقا لا بد أن نوفى به كما قال تعالى :

" ليلوكم فيما آتاكم ^(١) وأيضاً :

" وأحسن كما أحسن الله اليك " ^(٢) وأيضاً :

" وآتوا حقه يوم حصاده " ^(٣) .

الثانى : أنه تعالى عقب ذكر السطية ذكر ما به بقاؤها . فأمر بالصلاة والنحر
أمرأ عاماً ، فإن هذه السطية كانت للنهى وأمره عامة فإن النبى وكيل أمته فما أعطاه
أعطى أمته . ولذلك قال - عليه السلام - : " أنا فرأ لكم على العوض " كما مرّ فكذلك
الأمر بالصلاة والنحر عام وهو ظاهر .

فلما ربط عبادة بعبطة علمنا أن الامتثال له يضمن بقاها نعمته وقد قال تعالى :

" ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ^(٤) .

وهذا الذى أمرنا به هو الحج ومناسكته كما هو ظاهر فكأنه - تعالى - قال :

" انا أعطيناك الكوش فأر حقه فيبقى لك هذا المطأ " .

وسواء أخذت الصلاة والنحر بمجموعهما أو بانفرادهما كان المراد هو الحج ،
فإن الحج من الصلاة لما بقاء في الحديث ولما دلّ عليه أعمال الحج . وقد علمنا أن
مقصد البيت الصلاة ولذلك بنى كما مرّ . فمن لم يحج وقد أمكنه لم يتم مقصده

(١) سورة الانعام ١٢٥ .

(٢) سورة القصص ٧٧ .

(٣) سورة الانعام ١٤١ .

(٤) سورة الرعد آية ١١ .

وكذلك النحر فان من ضحى في غير الحج ترك أعظم الأضاحى . والذي يضحى

في غير الحج فانما هو متشبه بالحجاج وهو يريد وينتظر أن يجد سبيلا فيحقق ما يريد .
فبأى وجه أخذت دلت الآية على أن الحج يلزم الأمة فمن استغنى عنه أشج
نفسه عنهم . وهذا يتضح من النظر في حقيقة الحج . وقد صرح بذلك القسيران
والسنة . قال تعالى :

" والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا . ومن كفر فان الله غنى
عن العالمين " (١) . فذلك تصريح بكفر من استغنى عن الحج وأن الله تعالى لا يبالي به .

الثالث : انه يتضمن تسليية النبي والمسلمين كأنه قيل له :

انهم أخرجوك ومنعوك عن الصلاة والنحر فالان ، بعدما أعطيناك الكوثر ، لا مانع
لك فافعلهما بفراغ بالك وبقدر شوقك باكثار النحر وبجماعة عظيمة حتى يتحقق معنى
الكوثر .

وقد علمنا شوق النبي والمسلمين الي الحج والصلاة والنسك . والأمر بعمل

مرغوب - مع كونه أمرا - يتضمن التبشير والتسليية واطهار الرأفة .

الرابع : انه بيان عهدنا مع الله تعالى . يعمل الأمر بالصلاة والنحر مرتبهما

على عطية . فاذا قبلنا العطية أوجبنا على أنفسنا ما أمرنا به . ومتى ما بقينا على
طاعة أمره بقى لنا ما أعطانا . فصار أخذ العطية عهدا مع الله كما أعطى الله آدم

وحوا* - عليهما السلام - المسكن في الجنة ليأكلا منها رغدا ولا يقربا شجرة خاصة
عرفها لهما . فلما أخذنا العطية وجب عليهما عهد الله ولذلك قال تعالى :

" ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما " (٢)

وكذلك بقى لهما ما أعطاهما الله ما بقيا على عهده .

وكذلك نرى في قصة ابراهيم كما قال تعالى :

" وان ابلى ابراهيم ربه بكلمات فأتتهن قال انى جاعلك للناس اماما . قال

ومن ذريتى . قال لا ينال عهدى الظالمين " (٣)

(٢) سورة طه : ١١٥ .

(١) سورة آل عمران ٩٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٤ .

فبعد ما امتثل ابراهيم لأوامر ربه تعالى جعل له ربه عهدا . وهذا العهد يبقى لذريته ماداموا قائمين به . وأما الظالمون فيحرمونه .

الخاص : انه بيان عهد التوحيد . وقد صرح القرآن بذلك العهد وصرح بأدلته كثيرا . وجماعها كونه ربا منما . وقد أخذنا عطاياه من الخلق وحسن التقويم والرزق الطيب . وهذا عام . وههنا ذكر نعمة عظيمة خاصة ، فذكر ما أوجبت هذه النعمة علينا من التوحيد في صورة خاصة تناسب العطية الخاصة ، فان الله تعالى هو الذى أعطانا هذا البيت فلا بد أن تكون الصلاة والنحر له . وفى ذلك أيضا تمريض بالخائنين الظالمين . وهذا يظهر من النظر فى كلمة (انا) و (لربك) أى انا نحن أعطيناك فلا بد لك أن تصلى وتنحر مخلصا لنا خلاف ما فعل المشركون . وصرح بهذا المفهوم فى سورة الحج مرارا فلا حاجة الى ايراده ههنا .

وهكذا فسّر^(١) الآية محمد بن كعب القرظى حيث قال :

" ان ناسا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله فاذا أعطيناك الكوثر يا محمد - صلى الله عليه وسلم - فلا تكن صلاتك ونحرك الى^(٢) ."

هذا ما قاله الامام الفراهي - رحمه الله - وهو يتكلم عن ارتباط الآية : " فصل

لربك وانحر " بما قبلها .

ولعلنا لسنا بحاجة الى الاعتذار عن طول هذا الاقتباس ، فاننا على ثقة بأن الاطلاع على تلك السطور الممتعة سيزيد القارىء الكريم نعمة واستشراقا لنماذج أخرى من هذا القبيل . فلا بأس بأن نقف هنا وقفة ونستمع بما قاله الامام الفراهي - رحمه الله - وهو يكشف وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر . فان له ارتباطا واضحا بما قبله . بالاضافة الى أنه سيزيد الأمر وضوحا ، ويزيد القارىء الكريم اقتناعا بأن التأمل فى نظام الآيات يفتح على الانسان ما لم يكن يتصوره من عجائب العلم ونفاس الحكم .

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن ج ٣٠ ص ٢١١ .

(٢) تفسير سورة الكوثر ص ١٣-١٦ .

يقول - رحمه الله - :

وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر :

" اعلم أن للصلاة والنحر وجوها كثيرة دللنا القرآن عليها كلها . ولا حاجة الى استقصاء الوجوه ههنا . وتجدها في " كتاب المفردات " وانما نذكر الآن منها ما يدل على المناسبة بينهما .

وهذه الوجوه ، وان لم يصرح بها القرآن ، فانها لا تخفى على من تدبر في الآيات ونظم كلماتها . انه بعد ذلك لا يستطيع دفعها عن قلبه . وكيف يصرف نفسه عن التأمل في آياته من أيقن بحسن نظامه وقرع سمعه قوله تعالى :

" أفلا يتدبرون القرآن أم على غلوب أقفالها ؟ " (١)

والمقصود أن مجرد ربط الصلاة بالنحر يحثنا على التدبر في وجوه المناسبة بينهما . وذلك يظلمنا على عقائق عظيمة ، ونحن نأكثرون هذه الوجوه لا لمجرد بيان حسن النظم ، بل أيضا للكشف عن تلك العقائق العظيمة . عسى يتضح بعمد النظر فيها أن السور القصار بنيت على عظام الأمور . فلئن صدرت من جهة اللفظ فانها لكبار من جهة المعنى . والأمر نضر ، بمسود الله تعالى ، في ذكر وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر .

الوجه الأول :

ان المناسبة بينهما تشبه المناسبة التي بين الايمان والاسلام . وبيان ذلك يقتضى تهيدا . فاعلم أن الدين بنى على صحة الملم والعمل . فالعلم أن تصرف رهنسا وموقفنا تجاهه ولا نذهل عن هذا الملم الذي تلزمه حالة قلبية من المحبة والشكر تنتهي الى الأعمال . فالعمل متصل بالملم اتصال الأثر بالمؤثر والظاهر بالباطن . فالعلم من باب الايمان والعمل من باب الاسلام .

ثم اعلم أن العمل كما يقابل العلم فكذلك يقابل القول فالقول وسط بينهما وهو

أول ظهور الارادة وتحقيق العمل .

(١) سورة محمد : ٢٤ .

وبعد هذا التمهيد انظر الى ربط الصلاة والنحر .
 أما الصلاة فلا يخفى أنها قول واقرار وجميع أوضاعها من القيام والقعود
 والركوع والسجود ورفع اليدين والاصبع أقوال بلسان الأوضاع . فهي أول خطوة
 بعد الايمان وبها يفتح باب الأعمال . ولذلك قدمت على جميع الشرائع كما دلت
 عليه آيات كثيرة كقوله تعالى :

" الذين يؤمنون بالذئب ويطعمون الصلاة " (١)

وسطناه في تفسير سورة الفاتحة .

وقد بين الله ذلك في قصة ابراهيم حيث ذكر أنه لما عرف ربه بالتوحيد قال :

" انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين " (٢)

والصلاة تحقيق هذا التوجه . ألا ترى أنك تفتح صلاتك بهذا القول .

وكذلك ترى في قصة موسى كيف أمره الله تعالى بعدما أعطاه معرفة التوحيد ،

حيث جاء : " فلما أتاها نودى يا موسى ، انى أنا ربك فأخضع نفسك . انك بالواد
 المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى
 وأقم الصلاة لذكرى " (٣)

ومثل ذلك قال تعالى بعد ابطال الشرك :

" فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبدل لخلق

الله . ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . من بين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة
 ولا تكونوا من المشركين " (٤)

فالصلاة فطرة المخلوقات كلها . ولذلك قال تعالى :

" تسبح له السموات السبع والأرض ومن فهين وان من شىء الا يسبح بحمده " (٥)

(١) سورة البقرة ٣ .

(٢) سورة الأنعام ٧٩ .

(٣) سورة طه ١١-١٤ .

(٤) سورة الروم ٣٠-٣١ .

(٥) سورة الاسراء ٤٤ .

وقال تعالى :

" ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه " (١)

فالصلاة ، من بين جميع الأعمال ، أس بالايمان وأول فيض منه ، وكلها جماع التوحيد والانابة والشكر والتوكل والتهتيل الى الرب وانها فطرة لجميع الخلق .
وأما النحر ، فهو جماع معنى الاسلام فان الاسلام هو الطاعة واذعان النفس لربها وتسليم كليتها لمولاها وهو أيضا فطرة العباد كالمصلاة ، فان المخلوق لم يخلق الا لان عانه لأمره . أمره " يكن " فكان واستجاب لدعوته فى بد " خلقتسه فان عصى بعد ذلك ناقض فطرته .

فلا سلام من هذه الجهة أحاط بجميع الخلق كما قال تعالى :

" وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون " (٢)

أى استجبتم دعوته فى أول خلقكم وكذلك تستجيبونها فى الآخرة فتحشرون اليه كما قال تعالى :

" ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون " (٣) وقال تعالى :

" فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبئثم الا قليلا " (٤)

فلا سلام للرب والتسبيح والسجدة والصلاة له كلاهما فطرة وفى غاية الاتصال .

وان جعل الله تعالى ابراهيم - عليه السلام - امامنا ومسجده قبلتنا وهدى

سنتنا دلنا على حقيقة النحر أيضا بقصته كما دلنا بها على حقيقة الصلاة فذكر تعالى :

" وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين (أى انى مهاجر الى ربى سيهدينى صراطه)

رب هب لى من الصالحين (أى ذرية صالحه لتسلك بهم فتبين للناس سنن الهسدى)

فبشرناه بسلام حلیم (أى اسمعيل وانما سئى اسمعيل أى سمع الله لما أنه كان جوابا

لدعوته) فلما بلغ معه السمس قال يا بنى انى أرى فى المنام انى أذ بحك (أى أذ بحك

لله) فانظر ماذا ترى (انما سأله لى يشركه فى الطاعة فان مقصود ابراهيم كسان

(٢) سورة آل عمران ٨٣ .

(٤) سورة الاسراء ٥٢ .

(١) سورة النور ٤١ .

(٣) سورة الروم ٣٥ .

ضرب طريق واقامة سنة وقد علم من اجابة دعوته أنه يكون عاقلا فأمن مخالفته (قال
 يا أيتها افضل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) ففهم اسمعيل من قول
 أبيه أنه لم يكن ليذبحه الا بأمر وأجاب جواب المتوكلين (فلما أسلما وتله للجيبين
) أى لما حققا بذلك كمال اسلامهما أما الوالد فلأنه أسلم ما كان أحب اليه من
 نفسه وأما الولد فلم يكن له الا نفسه (ونادينا أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا
 انا كذلك نجزي المحسنين . ان هذا لهو البلاء الصين) فلفنا بذلك درجة
 الاحسان وهو كمال الاسلام . وصارا بهذا البلاء الصين امامين تأتم الهداة بهما (
 وقدينا بذبح عظيم ^(١) أى فدينا الفلام بذبح عظيم وهو اقامة سنة التضحية ومفطرة
 المضحين بها .

فبين الله لنا بهذه القصة أن الاسلام أصله الطاعة وتسليم أحب ما عنده للمولى
 حتى النفس . ولا يكون ذلك الا بتعام الايمان والاخلاص . وكما لهما الاحسان . وهو
 " أن تعبد الله كأنك تراه " ^(٢) فتبين ما قد منا أن ربط النحر بالصلاة ك ربط الاسلام
 بالايمان أو ك ربط القول بالعمل وان الاحسان يجمعهما .

الوجه الثانى :

ان النسبة بين الصلاة والنحر كالنسبة بين الحياة والموت . ويان ذلك أن

الصلاة سرهما ذكر الرب لقوله تعالى :

" وأقم الصلاة لذكري " ^(٣) .

وأىضا " ذكر اسم ربه ف صلى " ^(٤) .

وهذا كثير والمطلوب دوام الذكر لقوله تعالى :

" يذكرون الله قياما وقعودا وطمى جنوبهم ^(٥) أيضا :

" يا ايها الذين آمنوا انكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى

يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما " ^(٦) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ١٥٧ .

(٤) سورة الاعلى ١٥ .

(٦) سورة الأحزاب ٤١-٤٣ .

(١) سورة الصافات ٩٩-١٠٧ .

(٣) سورة طه ١٤ .

(٥) سورة آل عمران ١٩١ .

أى كما أنتم تذكرون الله وتسبحونه فكذلك هو يصلى عليكم وملائكته . وكذلك
يزيد نوركم كما قال : " فاذكرونى أن ذكركم " ^(١) أيضا :

" فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسثمون " ^(٢)

ولهذا السرّ مأساياتنا بالصلاة ولم يرخص عنها فى حالة . فظهر أن الصلاة كالتنفس
لا بد منها فبذكر الرب تبقى الحياة المعبّر عنها بالنور والسكينة والايان .

وذلك ظاهر عقلا ، فان توجه الرب ونظر رأفته الى المباد بعد ما أعطاهم

المقل والتعسير لا يكون الا بأن يتوجهوا اليه ، فانه يزيد النعم بالشكر واستتمم
ما أعطى كما قال :

" والذين اهتدوا زادهم هدى " ^(٣) .

والتوجه اليه يكون بذكر اسمه فيتقربون اليه بهذا السبيل ، فانه لا معنى للقرب والبعد
منه تعالى الا ذكره والخفلة عنه أعاننا الله منها فاذا ذكروا ربهم اقتربوا منه كما قال
تعالى :

" واسجد واقترب " ^(٤) .

فحينئذ يتوجه اليهم نظر رحمته ويشرق عليهم نور قدسه . والروح انما يشرب وينصبغ
بالذكر والفكر فهدوا وانصاحه فى ذكره تتنزل عليه حياة وقوة منه .

وعن ذلك أخبرنا النبى - عليه الصلاة - كما روى البخارى :

" ما يزال المعبد يتقرب الى النواغل حتى أحبه فاذا أحبته كنت سمعه الذى

به يسمع وبصره الذى به يبصر ويده التى بها يبطش " .

وما هذا الا بيان الحياة الروحانية التى هى الحياة الحقيقية العليا . فعلمنا

أن الصلاة هى عين الحياة وسلم النجاة من هذه الحياة السفلى .

-
- (١) سورة البقرة ١٥٢ .
(٢) سورة فصلت ٣٨ .
(٣) سورة محمد ١٧ .
(٤) سورة الملق ١٩ .

وأما النحر فحقيقته تسليم النفس لربها كما دلت عليه قصة ابراهيم واسماعيل
وجمل التضحية تذكارا لتلك القصة والبلاء المبين الذي ابتلى به الرب خليله .
والمؤمنون يحققون ذلك التسليم باهراق مهجهم في سبيل الله .
فكما أن الصلاة استعمار حياتنا مع الرب فكذلك النحر موتنا له . وذلك هو الدين
والاسلام كما قال تعالى : " قل اني هدى الى صراط مستقيم . دينا قيما
لمة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي
لله رب العالمين " (١) .

النسك في هذه الآية هو الذبح في الحج والعمرة باتفاق المفسرين . وكذلك
هو في لغة العرب .

فلما قرن الصلاة بالنسك وأتمهما بالحياة والموت دل ينظم الكلام على سرهما
والنسبة بينهما على أسلوب التواطؤ . فالصلاة هي المحيا للمسلم ونسكه هو مماتسه
في سبيل ربه .

ثم هما متحدان فان هذا الموت هو باب الحياة ولذلك قال تعالى :
" ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات . بل أحياء ولكن لا تشعرون " (٢) .

الوجه الثالث:

ان الصلاة والنحر جانبان للنحر الحقيقي . ويبان ذلك أن الله تعالى لما
خلق الانسان ذاعقل وارادة حاكا بالحسن والقبح رفعه أعلى درجة ومع ذلك أقامه
على شفا حفرة كما قال تعالى :

" لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . الا الذين
آمَنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون^(٣) وأيضا :

(١) سورة الانعام ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٤ .

(٣) سورة التين ٤ - ٦ .

" ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد
خاب من دساها " . (١)

وذلك لأن المبدأ إذا قطع النظر عن منعمه واستغنى عن ربه حجب عن نوره ،
وراقه الباطل المزخرف ، واتبع مراد نفسه ، وصار الهوى الهه كما قال تعالى :
" أفرايت من اتخذ الهه هواه وأضلّه الله على علم (أى بمد أن اعطاه
المقل والسمع والبصر كما قال تعالى : (انا خلقنا الانسان من نطفة أشجاج
نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) (٢) أى ان
لم يستعمل ما أعطاه الرب كان كفورا) وختم على سمعه وبصره وجعل على قلبه
غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون " . (٣)

أى بمد أن أعرض عن ربه أطاع نفسه فصرفته الى شهواتها وصارت حجابا على
قلبه كما قال تعالى : " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا انهم
عن ربهم يومئذ لمحجوبون (أى كما حجبا عنه فى الدنيا فكذلك يحجبون عنه فى
الآخرة . والمبدأ يرجع الى ما صمّ عليه فاذا تعبدوا للنفس صارت هى مولاهم
فيرجعون الى حقيقتها فقال) ثم انهم لصالوا الجحيم " . (٤)

فلما كان الانسان على هذه الحالة لزمه أن يكسر هذا الصم .
ولما كان هوى النفس ذا جهتين : سبعية وبهيمية ، لزمنا أن نكسر كلتسا
جناحيها فهذا انا لا هانتها بذبحين : ذبح السبعية وذبح البهيمية .
أما الأول : فبالخشوع لله والتدلل بين يديه وجماعه الصلاة فان بها يقمض
رأس الكبر لأن الخشوع من أعظم جهات الصلاة كما قال تعالى :

" قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون " (٥) وأيضا :

" واذكركم ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالهدوء والآصـال
ولا تكن من الغافلين ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله
يسجدون " (٦) وأيضا :

- | | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة الشمس ٧ - ١٠ . | (٢) سورة الدهر ٢ - ٣ . |
| (٣) سورة الجاثية ٢٣ . | (٤) سورة المطففين ١٤ - ١٦ . |
| (٥) سورة المؤمنون ١ - ٢ . | (٦) سورة الأعراف ٢٠٥ - ٢٠٦ . |

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبیتون لربهم سجدا وقياما " (١)

انظر كيف قدم ذكر التواضع على صلاتهم فان الصلاة تزكية النفس عن كبرها . ولا يخفى أن من كان دائم الذكر لربه وكبرياته ورحمته غشيه التواضع والرحمة . ومثل هذا النظم ترى في قوله تعالى :

" محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . تراهم ركعا سجدا " (٢)

وانما بدأ بذكر صفة الشدة ههنا لا بطلال الرهبانية ، فان المحب لربه كما يعظمه ويكبره فكذلك يكون حبه لذلك الأمر فلا يبالي بمن خالفه ويجاهر به على رغم المماندين . فلم يقدم الشدة الا لدفع توهم ، فان الآية في صفة قوم على غايصة الاعتدال .

وكانت هذه الآية في خصائصهم حسبما جاء في التوراة والانجيل فقدم ما يتنازون به عن أصحاب موسى وعيسى عليهم السلام .

وبذلك أيضا نبه على كمال فضيلة العدل والاعتدال والجمع بين الضدين . ولا فضيلة فوقه . فلم يذكر الشدة الا تأكيدا لتصحيح صفة التواضع والرحمة الناشئة من الخضوع للرب ، فان خوف الرب والتواضع له ينفي كل خوف لسواه كما قال تعالى :

" فلا تخافوهم وخافون " (٣) وأيضا :

" فلا تغشوهم واخشونى " (٤)

وفي ذلك آيات كثيرة .

وأما الثاني : فبالنزوع عما تلتفت به النفس وتحبه في هذه الحياة الدنيوية

ولذلك ثلاث درجات :

-
- (١) سورة الفرقان ٦٣ - ٦٤ .
 - (٢) سورة الفتح ٢٩ .
 - (٣) آل عمران ١٧٥ .
 - (٤) سورة البقرة ١٥٠ .

الأولى : بذل النفس في سبيل الربّ وأكبر منه ذبيح فذبة الكبد . ولذلك ابتلى ابراهيم بذبح بكره وأحب أولاده وهو اسمعيل - عليه السلام - فانه لما بشر باسحق قال " ليحيى اسمعيل " قولا مفصحا عن غاية حبه له .

والثانية : تحمل الشاق والأذى في طاعة الربّ وترك اللذائذ ، فان ذلك أحب الى النفس بعد الحياة . ومن هذا الباب الصوم . وهذه الدرجة الثانية نهاية الضعفاء من باب النحر . ولذلك حين سئل المسيح - عليه السلام - عن أكبر الدرجات ، قال : لا يحصل ذلك الا بالصلاة والصوم .

والثالثة : بذل المال الذي هو مفتاح الملاذ . والزكاة من هذا الباب . فأما الانفاق في سبيل الخير بما يزيد على الزكاة المفروضة ففيه أيضا ابطال آلة الكبر . ولما كان المقصود من ذبح البهيمة فطام النفس عما يعبد له لذتسه لزمه أن يكون ما تحبه النفس . فلذلك قال تعالى :

" لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون " . (١)

وهكذا أمر بتسمين الأضاعي . وبين حقيقة ذلك حين ابتلى ابراهيم بذبح أحب خلق عنده .

ولما كان بذل المهج هو كمال هذا الذبيح جعل اهراق الدم أمارته . فتبين ما ذكرنا أن الصلاة والنحر طرفان لذبيح النفس . والى ذلك يشير ما جاء في الحديث : " قران هذه الأمة بدمائها وصلاتها " .

أى ببذل مهجهم وصلاتهم .

الوجه الرابع :

ان الصلاة والنحر يتضمن أحدهما الآخر . فالصلاة من وجه نحر والنحر صلاة . أما كون الصلاة نحرًا فقد تبين ما مرّنا من كونها ذبيح السبعية . ثم هي أيضا تحمل النفس مشقتها وتكفها عن لذتها وترفعها فذلك من ذبيح البهيمة .

(١) سورة آل عمران ٩٢ .

وأما كون النحر صلاة فقد مر أن حقيقة النحر هي بذل النفس في سبيل الله .
ولا يخفى أنه صلاة في صورة أخرى ، فان بذل المهجة في سبيل الرب اقرار
وتصديق بالايان ولذلك سمي شهادة . وأيضا هو غاية الخضوع والطاعة فتضمن
أوفى حظ من الصلاة اقرارا بالتوحيد وخضوعا للرب .

ثم جعل للتضحية من الآداب ما يدل على كونها صلاة وذلك أمور :

- ١- الذبح بالمصلى .
- ٢- بدؤه بيسم الله والله أكبر .
- ٣- توجيه القربان
والمقرب الى القبلة .
- ٤- رعاية القيام في البدن .
- ٥- والسجود في الكباش .
- ٦- قراءة دعا افتتاح الصلاة كما جاء في القرآن :

" انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين " (١)

وأيضا :

" ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له " (٢)

وقد نبهنا القرآن على هذا الأمر فذكر في قصة تضحية ابراهيم :

" فلما أسلما وتلّاه للجبين " (٣)

أى توجهها الى الربّ ظاهرا وباطنا . ثم جعله ساجدا . وكذلك ذكر في أمر النحر :

" والبدن جعلناها لكم من شعائر الله . لكم فيها خير . فان كروا اسم الله

عليها صواف " (٤) أى قياما كما تصفون في الصلاة .

وكذلك ذكر في أمر الزكاة التى هى من ابواب التضحية كما قال :

" ويؤتون الزكاة وهم راكعون " (٥)

أى يعطون بهيئة تظهر خشوعهم ، لا كمن يعطى رياء وسمعة وفخرا .

الوجه الخامس :

ان الصلاة والنحر كليهما ذكر الله تعالى . أما الصلاة فظاهر أنها للذكر كما

جاء في كثير من الآيات مثلا : " وأقم الصلاة لذكري " أيضا :

(٢) سورة الأنعام ١٦٢-١٦٣ .

(٤) سورة الحج ٣٦ .

(٦) سورة طه ١٤ .

(١) سورة الأنعام ٧٩ .

(٣) سورة الصافات ١٠٣ .

(٥) سورة المائدة ٥٥ .

" وذكروا اسم ربه فصلي " . (١)

وأما كون النحر ذكراً فأيضاً دل عليه القرآن حيث قال :

" ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام " (٢) وأيضاً :

" كذلك سخرنا لكم لتكبروا الله على ما هداكم " . (٣)

أى هداكم الى دين التوحيد والاسلام . فكما نذكر الله بالتكبير في الصلاة ،

فكذلك عند النسك .

الوجه السادس :

ان كليهما شكر . أما الصلاة فكونها شكراً ظاهر حتى عبر عنها به كما قال

تعالى :

" فان كرونى أذكركم واشكرونى ولا تكفرون " . (٤)

ومعظم الصلاة قراءة سورة الفاتحة وبنائها على الشكر .

وأما النحر فانا نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - غنى عن العالين . وهو

" يطعم ولا يطعم " وانما نقرب مما أنعم به علينا اعترافاً بأن ما عندنا ملكه ونعمته .

ولذلك نقول عند التضحية " منك ولك " ولذلك قال تعالى :

" كذلك سخرناها لكم لملكم تشكرون " . (٥)

وكما أن الصلاة شكر عام على جميع نعمه الظاهرة والباطنة فكذلك الذبح ليس

شكراً على ما رزقنا من المنافع الدنيوية بل على ما هدانا الى دين الاسلام . ووقفنا

لطاقته . ولذلك قال :

" لتكبروا الله على ما هداكم " . (٦)

الوجه السابع :

انهما كليهما من التقوى . أما الصلاة فان العبد لا يزال يذكر ما تعلق به

رجاؤه وخوفه . والصلاة لهذا الذكر . فيتضرع العبد ويتخشع لما يينفى رضى به ويخاف

سخطه . والى هذا يشير قوله تعالى :

(٢) سورة الحج ٣٤ .

(٤) سورة البقرة ١٥٢ .

(٦) سورة الحج ٣٧ .

(١) سورة الأعلى ١٥ .

(٣) سورة الحج ٣٧ .

(٥) سورة الحج ٣٦ .

" وأن أقيموا الصلاة واتقوه . وهو الذى اليه تحشرون " . (١)

وأما كون التضحية من التقوى فذلك أن تسلط الانسان على البهائم أشبهه
شيء بالتعبيد . فوجب أن ينفى هذا التوهم بالتخشع والاقرار للعبودية . وأن
النعمة والريوية والملك لله تعالى . وصفة التقوى جماع هذه الأمور فصارت سـ
التضحية . فالمبد فى الحقيقة يتقرب الى ربه بالتقوى . ولذلك لا يتقبل التضحية
الا بها كما قال - تعالى - فى أمر القران :

" انما يتقبل الله من المتقين " (٢) وأيضاً فى الحج :

" وتزودوا فان خير الزاد التقوى " . (٣)

وانما سمي التقوى زادا لأنها تلبفه منازل قرب الرب ، والتقريب للتقرب كسما

نذكره فى الوجه الحادى عشر فلا بد فيه من زاد التقوى .

الوجه الثامن :

انهما من منازل الآخرة ، فان الصلاة رجوع الى الله وصورة لوقوفنا بين يديه
فى المحشر ففيها خلصة من الممار . فمن كان مصليا كان ذاكرا لرجوعه الى ربه .
وهذا ما نفهم من قوله تعالى :

" وانها (أى الصلاة) لكبيرة الا على الغاشمين . الذين يظنون أنهم

ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون " . (٤)

فمن علم بأنه راجع الى ربه ومسئول عن عمله يرجع اليه وتاب وغشيته هيئة الخشوع

والوقوف فى الآخرة كما قال تعالى : " طوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة " . (٥)

وقال تعالى : " قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون " . (٦) . وأيضاً :

(١) سورة الانعام ٧٢ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ .

(٣) سورة البقرة ١٩٧ .

(٤) سورة البقرة ٤٥ - ٤٦ .

(٥) سورة النازعات ٨ - ٩ .

(٦) سورة المؤمنون ١ - ٢ .

" رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار " (١)

ويشبهه قوله تعالى :

" ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى . ان الى ريك الرجى (أى كيف يستغنى وهو محضر) رأيت الذى ينهى عبداً اذا صلى " (٢)

ثم علّمنا القرآن أننا نستجيب دعوة الربّ فنخرج من القبور حامدين لله كما قال تعالى :

" يوم يدعونكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا " (٣)

فهكذا المصلون يستجيبون دعوة الصلاة . ويصفون لله حامدين .

وأما النحر ، فهو أيضا رجوعنا الى الله كما مرفى الوجه الثانى والثالث والآن ننظر اليه من وجه آخر . وذلك أن أجسامنا سخّرت لنا كالبهائم . فهى الركوب والرفق الى أجل مسمى ثم ترجع الى الربّ . فهى كما قال تعالى فى أمر البهائم :

" لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت المتيق " (٤)

وأياها كما نسوق البدن الى ذلك البيت ، نسوق أهداننا اليه كما قال تعالى :

" وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق " (٥)

وكما نحرم الهدايا ونجعل لها شمارا فكذلك نفعل بأجسامنا . وانما لا

تنحرجسونا فاننا نفديها بالبدن كما فدى اسمعيل بما ذبح عوضا منه . ولكن الله

تقبل هدية خليله بما اتخذ اسمعيل - عليه السلام - غادما لهيته ، فكذلك نفسدى

أجسامنا ، ولكن لا تردّ الهنا ، بل نأخذها أمانة فنبدلها ونهريق مهجتها فى سبيل

الله . وقد نبهنا القرآن على هذا السرّ حيث قال :

" ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون فى سبيل

الله فيقتلون ويقتلون . وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن

أوفى بمعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم " (٦)

(٤) سورة الحج ٣٣ .

(٥) سورة الحج ٢٧ .

(٦) سورة التوبة ١١١ .

(١) سورة النور ٣٧ .

(٢) سورة الملق ٦ - ١٠ .

(٣) سورة الاسراء ٥٢ .

فاشته رانا الله بمجرد بيعة الاسلام . ونحضر على باب بيته لتجد يد ذلك بمسّ
الحجر الأسود ونؤكد عهد ابراهيم واسماعيل ، وكوننا قرابين لله تعالى .
ثم اجتماعنا في الحج أظهر تصوير لوقوفنا في المحشر . فصلاتنا واجتماعنا
لذكر الله والحج والنحر يشبه بعضها بعضا اذا ما قيس بالعمار .
الوجه التاسع :

انهما من أبواب الصبر . أما الصلاة فلأن المبد يدوم عليها مطمئنا بوعد الله .
كفارس يقوم على غرسه يسقيه ويغدمه ينتظر ثمره ، وينظر رفاهية الفافلين فلا يهمن
ولا يكل . بل لا يزال يقوم لربه ويحمده ويشكره ، ولا يبالي باستهزائهم برجائه
للغائب الحميد . فكل ذلك لشدة عزمه وصبره على العاقبة .

ولهذه الجهات جمع القرآن الصبر والصلاة في آيات كثيرة ، كقوله تعالى :
" واستمعينوا بالصبر والصلاة " (١) .

ودلّ على ما ذكرنا آنفا قوله تعالى :

" فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آتاء
الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجنا
منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه . ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة
واصطبر عليها لا نسئلك رزقا . نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى " (٢)

وأیضا : " والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة " (٣) وأیضا :

" فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالمشي والابكار .
ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم ، ان في صدورهم الا كبر ما هم
ببالغيه . فاستمذ بالله . انه هو السميع البصير " (٤) .

(١) سورة البقرة ٤٥ .

(٢) سورة طه ١٣٠ - ١٣٢ .

(٣) سورة الرعد ٢٢ .

(٤) سورة المؤمن ٥٥ - ٥٦ .

فنهينا على مواضع الصبر من التمسك بالوعد والتوكل على الرب وتحمل الأذى
وانتظار الفلاح .

وأما النحر ، فهو منى على تعليم الصبر العظيم ، الذي ظهر من ابراهيم
- عليه السلام - فانه رضى بربه وفضله ، ولم يمط ولدا حتى كبر . ثم لما اعطاه الله
الولد ، وجعله قرّة عينه فطرة ولمخائل حسنة ، ابتلاه بذبحه فما تزعزت قدم صبره ،
بل شكر للرب لما طلب منه أحب خلق عنده .

فصبرنا على الصلاة كصبرنا عند احتمال كل مصيبة . ودلّ على هذا الربط
بين الصلاة والصبر عند احتمال ما يبغى الله به عباده من اهانة النفس وما دونهما
قوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا استمينا بالصبر والصلاة . ان الله مع الصابرين . ولا تقولوا
لمن يقتل في سبيل الله أموات . بل أحياء ولكن لا تشعررون . ولنبلونكم بشيء
من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشرات . وشر الصابرين . الذي
ان اصابته مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم
ورحمة وأولئك هم المهتدون . ان الصفا والمروة (المروة هي محل تقرب ابراهيم
- عليه السلام - ابنه كما بيناه تحت هذه الآية في محلها) من شعائر الله . فمن
حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . ومن تطوع خيرا فان الله
شاکر عليم " . (١)

فجمع في هذا الكلام الصلاة والصبر والجهاد والمصاب وذبح ابراهيم
- عليه السلام - لما فيها من الربط الحقيقي .

(١) سورة البقرة ١٥٣ - ١٥٨ .

الوجه العاشر :

اقرار الطك والنعمة لله . وهذا في الصلاة ظاهر ، فانها بنيت على اقرار
الشكر والربوبية .

وأما التوضيح فهي اقرار بذلك بلسان الحال كأننا نقول : ان الملك
والنعمة لله تعالى .

فنفوسنا وأموالنا كلها لله . فلا بد أن نفوضها اليه ونحبسها لطاعته . وتأخذ
منها على سبيل الهبة منه - تعالى - فنقربا احسانه ونضمها حيث أمرنا ، ولا نشرك
فيها أحدا . فنمده ونصلو ونقدم اليه ما أعطانا ، فانه هو الخالق والواهب
كما هدا لنا لقول : " انا لله وانا اليه راجعون " أي نحن وما لنا لله فله الحكم
والمنة ولنا الخضوع والشكر . واليه نرجع كما يرجع الطال الى مالكه .

ولذلك لا يحل لنا التمتع بشي * حتى بأنفسنا الا بذكر اسمه والاقرار

بكونه عطية من الله .

وتعلينا لهذا الأصل العظيم جعل علينا فريضة النسك لنذكر اسمه على

ما رزقنا من الأنعام مسخرة لنا كما قال تعالى :

" ولكل أمة جعلنا منسكا ليزكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام " (١)
 وأيضا : " كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم " (٢)

ولكون التصرف في الحيوانات شبيها بتمبيدهن فرض ذكراسه في الذبائح .
 وكذلك كل ما أخرج لنا من الأرض جعل فيه حقا لكيلا نغفل عن كونه
 من نعم الله كما قال تعالى :

" كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده " (٣)

ولذلك حرم علينا الاسراف ، فان كل ما في أيدينا لرنا . ولذلك جعل
 النسك هنيئا على سنة ابراهيم - عليه السلام - الذي شهد بكون الطك
 لله . فأدى الى الرب أمانته . وصدق بأن كل ما عنده ، حتى نفسه وولده ، فهو
 من الرب تعالى .

الوجه الحادي عشر :

ان المبدأ يتقرب بهما الى الرب . وذلك ظاهر جدا ، فان
 الصلاة من أظهر أمورها أنها توجه الى الرب ورجوع الى حضرته . فالمصلي يرى
 نفسه متعشلا بين يدي الرب ، يناجيه ويخاطبه ويتضرع اليه ولا يلتفت يمينا وشمالا .
 فليس أن الصلاة ذريعة التقرب ، بل هي عين التقرب . ودل على ذلك قوله
 تعالى :

" واسجد واقترب " (٤)

-
- (١) سورة الحج ٣٤
 (٢) سورة الحج ٣٧
 (٣) سورة الأنعام ١٤١
 (٤) سورة الملق ١٩

ولذلك صارت رأس المبادات . وأرى أن الصلاة في أصل معناها القرينة
القرينة ، والاقبال على الشيء ، والدخول فيه . فيقال للفارس المتصل بالسابق :
المطى . ولنجالس حول النار بقربها : الصالى . وكذلك لمن دخل في أمرها .

وهكذا الأمر في القران ، فان المتقرب يأتي بقربانه الى موضع يرى أن
الربّ قدّسه واختصّه لمبادته . ولذلك كان للقران موضع خاص . لا يحلّ في
شريعة اليهود أن يقربوا في غير بيت المقدس . وأما المسلمون ، فكما جعلت
لهم الارض كلها مسجدا ، فكذلك يحلّ لهم التضحية في كل مكان .

ومع ذلك كما أن للصلاة في المسجد فضلا كذلك للنسك فضل في

المطى .

وقد جعل الله لقران ابراهيم مكانا خاصا وأبقاه لنا سنة . فنهدى البدن
الى منحوره كما أنا نأتى مسجده الذي بناه للصلاة .

وكل ذلك ليبرسخ في قلوبنا أننا كالعبيد نسمى الى المطى ، ملين دعوه ،

مقربين قرابيننا كلها لمرضاه ، واقراراً لعبوديتها له .

ولذلك سمى القران قربانا كما سميت الصلاة صلاة .

والى هذا الذى ذكرنا الماع فيما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

" سمّوا ضحاياكم فانها مطاياكم " .

وذلك دل أيضا على أن تقرب الابل مما يختص بهم . راجع الفصل

الثانى .

الوجه الثانى عشر :

ان الصلاة والنحر أعظم طرق المبادات وأقدمها وأرسخها في فطرة
الناس . فترى السجود والركوع وتقديم النذور لآظهار التعمد في كل
ملة ونحلة ، سواء عهدوا الله الواحد ، أو آلهة متعددة ، أو روحا ،

أو صنما ، أو عظموا انسانا كاله عبود .

لا شك أن بين الأقسام المهدبة والوحشية ، وبين أهل الميق والباطل فرقا عظيما . وكذلك بين صلاتهم ونسكهم بمدا شاسعا . ولكن مع ذلك لكلهم نسك وصلاة تامة .

وهذا كما أنهم مختلفون في مفهوم الاله مع اتفاقهم في أمر عام من مفهوم العبود . ولا نرى هذا الاتفاق بينهم في سائر العبادات . وقد مر في الوجه الاول أن الايمان والاسلام يقمان جميع الخلق . وأن الصلاة والنسك صورتان لهما ،

فالآن ترى أن الناس انبعثوا من نقلة واحدة في الدين والعبادة . وانصبا تشعبت بهم الطرق لدخول الظنون والأهواء ، فاختلفوا بافراط وتفریط وافساد وتخليط . (١)

فلننظر الى هذا الامام - رحمه الله - لما تمسك بالنظام كيف انفجرت له السماني وتطوّعت له اللالي ، وانفتحت أمامه آفاق واسعة من العلوم والحكم . وكيف انقاد له هذا الجيش المرمر من العلوم والحكم بمجرد تيممه لوجوه المناسبة بين الصلاة والنحر ، فما ظنك يا ترى ، لو تمسكنا بهذا النظام ، وبحثنا عن مثل هذه المناسبات في جميع السور والآيات ؟

لفتة بارعة :

بعد الاطلاع على هذه الكوز التي اكتشفها لنا الامام الفراهي - رحمه الله - عن طريق تتبع النظام لم يمد عسيرا علينا أن ندرك هذه الاتجاهات :

(١) تفسير سورة الكوثر ص ١٦ - ٢٠

" جميع ما تقوله الأئمة شرح للسنة . وجميع السنة شرح للقرآن " (١)
قاله الإمام الشافعي - رحمه الله - .

وقال : " ما نزل بأحد من الدين نازلة الا وهى فى كتاب الله تعالى " (٢)
وقال : " كل ما حكم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو ما فهمه
من القرآن . لقوله - صلى الله عليه وسلم - : انى لا أحل الا ما أحل الله فى
كتابه ولا أحرم الا ما حرم الله فى كتابه " (٣)
وقال ابن مسعود - رضى الله عنه - : " اذا حدثتكم بحديث أنبأكم
بتصديقه من كتاب الله " (٤)

وقال ابن جبير - رحمه الله - : " ما بلغنى حديث على وجهه الا وجدت
مصادقه فى كتاب الله تعالى " (٥)

نعم ، لم يعد عميرا علينا أن ندرك هذه الاتجاهات ، وندرك أبعادها
ومراميها بعد ما كنا فى شبه غفلة عنها ، فقد أصبح مفهومنا لديننا أن جملة
كبيرة من الصحاح قد تكون مأخوذة من أى القرآن ومستفادة من كلماته أو نظم
آياته .

فكثير من الأحاديث تمر عليها ، وتظن أنها زيادة على القرآن أو أن
القرآن ساكت عنها ، مع أن القرآن لم يسكت عنها ، وإنما دل عليها بنظمه
ورباط آياته وكلماته . والنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يزد على أن أماط اللثام
عما كان مخبواً فى نظامه .

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) قواعد التحديث للشيخ محمد جمال الدين
القاسمى ص ٥٩

ولا نملك الآن أن نرضى للقلم المعنان فان هذا الموضوع يعدنا عمّا نحن فيه . وسوف نجد فيما يأتي بعض الشواهد لمثل تلك الأحاديث . وهي تكون لنا دليلاً ومقياساً للحقبة الأحاديث .

الفصل الرابع

العزيمّة الرابعة

النظام يجلى لنا الأمور في أكمل صورها ، ويكشف عن قدرها — وأهميتها . وإذا لم ننتبه لنظام الآيات ، فقد لا تتجلى لنا تلك الأمور . ونظّل غافلين عن قدرها وأهميتها .

نضرب مثلا صلاة الجمعة . هل يمكننا أن ندرك أهمية صلاة الجمعة ومكانتها في الشريعة بدون أن نعلم النظر في نظام سورة الجمعة ونبحث عن رباط معانيها ؟

وان كان هناك من يشك في هذا ، فلا عليه أن يمرّ على من شاء من لم يهتموا بنظام الآيات وينظروا عندهم . ثم يأخذ هذه السورة مباشرة ، ويهدبرها ، ويبحث عن نظام آياتها ورباط معانيها .

سوف يرى - باذن الله - أن قلبه قد امتلأ بممان تكاد تكون بكرا .

وسوف يجد أهمية صلاة الجمعة قد تجلّت له من جهات لم يكن ليتخيّلها ، لولا أن استرشد بنظام الآيات .

ولا بأس بأن نذكر هنا بعض تلك الجهات ، حتى تكون حافزة لنا لاستطلاع بقيتها . فنقول والله التوفيق :

الجهة الأولى :

قرنت سورة الجمعة بسورة الصف . وهذا النظم يفيد أن صلاة الجمعة اعداد وترويض للجهاد . ألا ترى سورة الصف كيف بدأت بتأنيب وتقرّح للذين فرّوا عن الجهاد ، ولم يقوموا بمهمّتهم العرقيّة في سبيل

عقيدتهم باعتبار أنهم مؤمنون . قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبرفتا عند الله
أن تقولوا مالا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله
صفاكانهم بنيان عرصوص . " (١)

ثم عاد ورغب في الجهاد فقال :

" يا أيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب
أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم
وانفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . " (٢)

ثم كرر وحرّض المؤمنين على القتال ، فقال :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم
للحواريين من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله . " (٣)

ثم جاءت سورة الجمعة مباشرة . وهذه دلالة عن طريق النظم ، على
أن إقامة الجمعة ليست إلا اعدادا وترشيحا للجهاد .

ثم نرى في نفس السورة أن الله قد فنّد دعوى اليهود بأنهم أولياء
لله وشعبه المختار . ورفض أن يقبل هذه الدعوى إلا أن يتمنوا الموت . وذلك
بأن يقدفوا بأنفسهم في معارك الجهاد ويبحثوا عن الموت شوقا إلى الله ؟ فإن
الولي " أحرص ما يكون على لقاء وليه . قال تعالى :

" قل يا أيها الذين هادوا ، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس
فتمنوا الموت إن كنتم صادقين " ثم قال :

(١) سورة الصف ٢ - ٤

(٢) سورة الصف ١٠ - ١١

(٣) سورة الصف ١٤

” ولا يتعنونه أبدا بما قدّست أيديهم ” (١)

تتميزها على أن الجهاد لا يكون الا اذا رسخ الايمان في القلوب ، ولم يبق للانسان ميل الى الذنوب . ثم أمر باقامة الجمعة . وهل الفاية من اقامة الجمعة الا شحن النفوس بشحنات الايمان وتحليلتها بأداب القرآن ؟

ومن هنا كانت الجمعة كعلاج للنفوس . حتى تصد في الحروب ولو قطعت الرؤوس . وثبتت للمواصف وكأنها بنيان مرصوص .

الجهة الثانية :

قرنت هذه السورة بسورة المنافقون . وهذه لمحة الى أن الخفلة عن صلاة الجمعة من أمارات النفاق ولقد نبّه النبي - صلى الله عليه وسلم - على هذا الأمر فقال :

” من ترك الجمعة عن غير ضرورة كتب منافقا في كتاب لا يمحي ولا يبدل ” (٢)

وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة - رضى الله عنه - قال سمعت عمر - رضى الله عنه - ولم أر رجلا منا به شبهها - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

” من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها ، ثم سمعه فلم يأتها ، ثم سمعه ولم يأتها طبع الله على قلبه وجعل قلبه منافقا ” (٣)

ويشبهه ما قاله - صلى الله عليه وسلم - :

-
- (١) سورة الجمعة ٦-٧
 (٢) التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٢٧٤
 (٣) الترغيب والترهيب ١/٥١٢

" اعلموا أن الله - عز وجل - قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا ،
 فى عامى هذا ، فى شهرى هذا ، الى يوم القيامة حياتى ومن بعد موتى ،
 فمن تركها وله امام فلا جمع الله له شمله ولا بارك له فى أمره . ألا ولا
 حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا برّ له . " (١)

ويغلب على ظننا أن هذه الأحاديث وما فى معناها مستنبطة من
 نظم هاتين السورتين ، فإن قران سورة الجمعة مع سورة " المنافقون " له
 دلالة واضحة .

الجهة الثالثة :

ذكرت فى بداية السورة بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - وأهدافها
 من تلاوة الآيات وتركية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة .
 ثم التفت الخطاب الى اليهود بتبكيتهن على عدم كفاءتهن وسوء
 موقفهن من كتاب الله ثم جاء الأمر مباشرة ؛
 " يا ايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسموا الى
 ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . "

ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من دلالات وإيحاءات ، فان الجمعة
 لها صلة خاصة بأهداف هذه البعثة . وشاء الله لرسوله أن يقوم
 بطك الأهداف من منابر الجمعة . فكان احترام الجمعة من احترام
 هذه البعثة وأهدافها .

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٥٣

ولذلك نرى أن الله - تعالى - رفع من شأن خطبة الجمعة حتى جعلها من نفس الصلاة . ولم يصرح بذكرها حتى يقال : ان لها حكما يخطف عمن حكم الصلاة .

ولعل النبي - صلى الله عليه وسلم - استتبط الخطبة وعظم قدرها من نظم الكلام ، فان الله تعالى لما ربط صلاة الجمعة بذكر هذه البعثة ، اقتضى الأمر أن تسبق هذه الصلاة خطبة تذكّر الناس بأهداف هذه البعثة وتعلّمهم الكتاب والحكمة وتركّيبهم .

وان كان يوحى المقام أن الله - تعالى - وضع الخطبة موضع الصلاة وجعلها في حكمها جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الصلاة شطرين - وغسّ الشطر الأول لتذكير الناس والشطر الثاني لذكر الله . فكانت الصلاة ركعتين ، مع أنها كانت في الحقيقة أربع ركعات كما هي في الظهر ، وجاءت مكان الركعتين الأُوليين خطبة الجمعة ، حتى لا يتهاون الناس بهذه الخطبة . ويضموا فسوس حسابهم أنها ليست أقل أهمية من ركعتي الصلاة .

وقد نستأنس هنا بما روى عن سعيد بن جبير - رحمه الله - حيث قال :

" كانت الجمعة أربعا فجعلت الخطبة مكان الركعتين " (١)

ثم قسمت هذه الخطبة قسمين وشرع بينهما الجلوس ، حتى تكون الخطبة في مظهرها أشبه ما تكون بركعتي الصلاة .

ولذلك نرى الأمر بالسكوت والانصات في أثناء الخطبة كمثلته في الصلاة .

ولقد شدّد فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - وشدّد حتى قال :

(١) السنن الكبرى للبيهقي - رحمه الله - ١٩٦/٣

" من تكلم يوم الجمعة والامام يخطب فهو كمثل العماري يحمل أسفارا . والذي يقول له : " أنصت " ليس له جمعة . " (١)

وروى عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - لرجل : لا جمعة لك . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يا سعد ؟ قال : لأنه كان يتكلم وأنت تخطب . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - صدق سعد . (٢)

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال :

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب يوم الجمعة إذ تلا آية ، فقال رجل - وهو إلى جنب عبد الله بن مسعود - متى أنزلت هذه الآية ؟ فاني لم أسممها الا الساعة . فقال عبد الله : سبحان الله . فسكت الرجل . ثم تلا آية أخرى . فقال الرجل لعبد الله مثل ذلك . فقال عبد الله : سبحان الله . فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصلاة قال ابن مسعود للرجل : انك لم تجمع معنا . قال سبحان الله . قال : فذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكر له ذلك . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " صدق ابن أم عبد . صدق ابن أم عبد " (٣)

الجهة الرابعة :

أسرنا الله - تعالى - بالسمن إلى صلاة الجمعة بعدما نذر باليهود

- (١) رواه احمد والبخاري والطبراني (نقلا عن الترغيب والترهيب للمندري ١/٥٠٥)
 (٢) رواه ابو يعلى والبخاري (نقلا عن الترغيب والترهيب للمندري ١/٥٠٦)
 (٣) صحيح ابن خزيمة ١٥٥/٣

أنهم حملوا التوراة فلم يحطوا بها .
وهذا النظم يوحى إلينا أن اليهود قبلنا أعطوا هذه الجمعة ولكنهم
ضيعوها فأصبحت هذه النعمة العظيمة من خصائص هذه الأمة . ولقد
نبه عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :

" نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد
أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهم من بعدهم ، فاختلفوا فهدانا الله
لما اختلفوا فيه من الحق . فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله
له قال : يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وغدا غدا للنصارى . "

وفى رواية أخرى : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة . بيد أنهم
أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهم من بعدهم . وهذا يومهم الذي فرض
عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له . فهم لنا فيه تبع . فاليهود
غدا والنصارى بعد غد . " (١)

الجهة الخامسة :

لاقت اليهود أسوأ المواقب لما أنهم كانوا يعدون في السبت . قال
تعالى : " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم
كونوا قردة خاسئين . فجعلناهم نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة
للمتقين . " (٢)

ولقد أمرنا الله بتمتيز يوم الجمعة بعدما توعد اليهود على سوء

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ١٤٣ ، ١٤٤

(٢) سورة البقرة : ٦٥-٦٦

موقفهم من كتاب الله وأوامره ، وعندما ضرب لهم أسوأ المثل . ولا يخفى
 ما لهذا النظم من دلالات وإيحاءات . فان فلاح هذه الأمة منوط
 باحترامها للجمعة كما أشار إليه - تعالى - في آخر السورة حيث قال :
 " واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (١)

أما اذا عطلت الجمعة أو أميتت فسيكون هذا نذيرا لها بنفس
 الخزي والدمار الذين حلّ باليهود بسبب اعتدالهم في السبت .
 وما جاء في الروايات أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
 " لا تقوم الساعة الا في يوم الجمعة " (٢)

فلا يستبعد أن يكون مستفادا من هذا النظم ، فان هذه الأمة خاتمة
 الأم ، كما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء . وليس بعد
 هذه الأمة أمة تخلفها .

فاذا انصبّ سوط العذاب على هذه الأمة بسبب تعطيلها للجمعة
 أو اعتدالها فيها ، فسيكون هذا ايدانا بخراب الدنيا وقيام الساعة .

الجهة السادسة :

يوحى إلينا نظم الآيات أن هذا هو اليوم المبارك الذي تمت فيه
 هذه البعثة الكريمة . وخلع على نبينا - عليه الصلاة والسلام - تاج النبوة
 والكرامة .

فترى أن هذه السورة استشهدت بلفظة " يسّح " بينما كانت السور

(١) سورة الجمعة . ١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي - رحمه الله - ج ٦ ص ١٤٢ .

بلفظة
السابقة بدوثة / " سبَّح " وسلموم أن صيغة المضارع تكون لتصويـر
الحال كما أن صيغة الماضي تفيد القطع والاستمرار .

وهذا التصريف يصور لنا كيفية هذا الكون ومدى انتماشه وارتياحه ،
ثم مدى تعجبه وتسبيحه لخالقه يوم أغدق عليه هذه النعمة ، وأفـاض
عليه هذا النور .

فما هو ذلك اليوم يا ترى ؟ وهل هو غير يوم الجمعة ، الذي تتدجج
اليه الكلام وعليه انتهى ؟

فترى أن بعد ذكر هذه النعمة المظيمة السابقة يتوجه السياق
الى تقرير أهمية يوم الجمعة وتحريض المؤمنين على تخطيمه والاهتمام
به .

وفيه اشعار بأن هذا اليوم نورا وان نزول هذه النعمة . فلا يسد
أن يعظموا هذا اليوم ويحتفلوا به شكرا لهذه النعمة ، واستشـامارا
لأهميتها وكرامتها .

ومن هنا نرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جعل هذا اليوم
عيداً للمسلمين وأمرهم أن يفرسوا فيه ويهدنوا ويتطيبوا ويلبسوا أفخر ما
عندهم من الثياب حتى يشاركوا الكون في الفرح والارتياح السـدى
يستشعره لمقدم هذا اليوم .

ولقد أمر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن يجرّ مسجد المدينة
كل جمعة حين ينتصف النهار (١) .

(١) زاد المعاد للإمام ابن القيم - رحمه الله - ج ١ ص ١٠٢

وبالغ النبي - صلى الله عليه وسلم - في تعظيم هذا اليوم حتى جعله
سيد الأيام . وقال :

" ان يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من
الأضحى ويوم الفطر " (١)

ثم جاء في خصائص هذا اليوم ما يجعله ماثلاً لشهر رمضان ، فان
جهنم تسبح في كل يوم ولا تسبح في هذا اليوم .

فقد روى ليث عن مجاهد عن أبي الخليل عن أبي قتادة عن النبي
- صلى الله عليه وسلم - أنه كره الصلاة نصف النهار الا يوم الجمعة وقال " ان جهنم
تسبح الا يوم الجمعة " (٢)

ونفس الشيء ورد في شأن رمضان فقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه -
أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

" اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين " (٣)

فهذا التشابه بين يوم الجمعة وشهر رمضان يدعم ما استنبطناه من نظم
هذه السورة ، وهو أن القرآن أنزل في يوم الجمعة كما أنه أنزل في شهر رمضان .
وهذا الشرف هو الذي جعل رمضان سيد الشهور وجعل الجمعة
سيد الأيام .

وهناك جوانب أخرى تستنبط من نظم السورة . وهي تبرز أهمية يوم
الجمعة ، ولا يهتأ الا ان نتقصى هذه الجوانب كلها ، فهذا القدر

(١) زاد المصنف ج ١ ص ١٠٢

(٢) زاد المصنف ج ١ ص ١٠١ - السنن الكبرى للبيهقي ج ٣ ص ١٩٢

(٣) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٨٧

يكفى لاثبات مانحن بصدده . وهو أنّ تتبع النظام يجتلى الأمور ، ويضعها في مكانها ، ويمطئها قدرها وأهميتها .

ولكن اذا أهملنا النظام ورضينا فيه بالهويننا فقد تفتتت عنا أمور وتغفقت جوانب . ولا نكاد نشمر بينها فضلا عن أن ندررها .

والآن نختم هذا الفصل بكلمة جميلة للامام الفراهي - رحمه الله - حيث قال :

” قد عظم بيان الجمعة عندى اذا علمت كيف شهد الله قبلها من ذكر تسبيح ما فى السموات والأرض وصفاته الحسنى وفضله على الأمة ، وخسران اليهود على استخفافهم بحكم الله . فقد رغب ثم رغب ثم رغب ثم ذكر أحكام الجمعة . وكانت الجمعة هكذا حين كان شمل المسلمين مجتمعاً برسولهم فيأمرهم وينهاهم ويذكرهم ويلوعليهم آياه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وهكذا كانت مكانتها فى أيام الخلفاء الراشدين . ثم هبطت هذه المكانة يوما فيوما ، حتى انها صارت فى يومنا مجمع الفاضلين . وما أشبه الغطيب الجاهل بحامل الأسفار ، المذكور فى القرآن .

ولا تسأل عن قوم بهذا الحال فالى الله المفزع .

واعلم أن ذكر الجمعة ههنا بمد سورة الصف وآية تنبئ الموت يشير الى

أنها من أسباب القيام بالجهاد . (١)

(١) مذكرات القرآن للامام الفراهي - رحمه الله - (مخطوطة) .

الفصل الخامس

المزينة الخاصة

النظام هو الذي يشخص معاني الآيات المكررة ، ويحدّد مراميها . لكن الذي يغفل عن النظام يتعثر ، ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر .

نأخذ - على سبيل المثال - هذه الآية :

" ان الذين يكتنون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب . أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " (١)

ثم جاءت في نفس السورة بعد ١٤ آية ، آية أخرى تماثلها :

" ان الذين يكتنون ما أنزل الله من الكتاب ويشترتون به ثنا قليلا ، أولئك ما ياكلون في بطونهم الا النار . ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ، ولهم عذاب أليم " (٢)

كل من يمرّ على هاتين الآيتين ، يجد نفسه أمام سوءالين :

- ١- ما المراد بالكتمان في هاتين الآيتين ؟
 - ٢- هل هو واحد في كلا الموضعين ، أم هناك نوع من الفرق ؟
- فلنترك جلة المفسرين - رحمهم الله - يشرعون الحال ويجيبون على

السؤال .

(١) سورة البقرة آية ١٥٩

(٢) سورة البقرة آية ١٧٤

الامام ابن جرير - رحمه الله - :

قال الامام ابن جرير - رحمه الله - في تفسير الآية الأولى :

" يقول : ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات علماء اليهود وأخبارها وعلماء النصارى لكتمانهم الناس أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وتركهم اتباعه ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل من البينات التي أنزلها الله ما بين من أمر نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وبمعنى وصفته في الكتابين اللذين أخبر الله - تعالى ذكره - أن أهلها يجدون صفته فيهما " (١)

ويقول - رحمه الله - في تفسير الآية الثانية :

" يعنى - تعالى ذكره - بقوله : " ان الذين يكتُمون ما أنزل الله عن الكتاب " أخبار اليهود الذين كتّموا الناس أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - ونبيوتهم ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة برُشاً كانوا أعطوها على ذلك . " (٢)

الامام الرازى - رحمه الله - :

قال الامام الرازى - رحمه الله - وهو يفسر الآية الأولى :

" في قوله : " ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية " قولان : (أحدهما :) أنه كلام سدّانف يتناول كل من كتم شيئاً من الدين . (والثانى :) أنه ليس يجرى على ظاهره في العموم . ثم من هؤلاء من زعم أنه في اليهود خاصة . قال ابن عباس : ان جماعة من الأنصار سألوا نفراً ممن

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٢ ص ٢٢

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٢

اليهود عمّا فى التوراة من صفات النبى - عليه الصلاة والسلام - ومن الأحكام
فكتموا فنزلت الآية . وقيل : نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، عن
ابن عباس وسجاءد والحسن وقتادة والربيع والسدى والأصم . والأول أقرب السى
الصواب (١) .

ويقول - رحمه الله - فى تفسير الآية الثانية :

" قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رؤساء اليهود كعب بن الأشرف
وكعب بن أسد ومالك بن الصيف وهى بن أخطب وأبى ياسر بن أخطب ، كانوا
يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث محمد - عليه السلام - خافوا انقطاع تلك
المنافع ، فكتموا أمر محمد - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية .

واخطفوا فى أنهم أى شىء كانوا يكتمون ؟ فقيل : كانوا يكتمون صفوة
محمد - صلى الله عليه وسلم - ونعمته والبشارة به . وهو قول ابن عباس وقتادة
والسدى والأصم وأبى مسلم وقال الحسن : كتموا الأحكام وهو قوله تعالى :
" ان كثيرا من الأحرار والرهبان لىأكفون اموال الناس بالمبايعة ويصدون عن سبيل
الله " (٢)

الامام الألبوسى - رحمه الله - :

وقال الامام الألبوسى - رحمه الله - وهو يفسر الآية الأولى :

" أخرج جماعة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سأل معاذ بن
جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفرا من أحرار يهود عن بعض عاقى التوراة

(١) التفسير الكبير ج ٤ ص ١٦٢
(٢) التفسير الكبير ج ٥ ص : ٢٥ ، ٢٦

فكتموهم اياه وأبوا أن يخبروهم فأنزل الله - تعالى - فيهم هذه الآية . وعن قتادة أنها نزلت في الكاثمين من اليهود والنصارى . وقيل : نزلت في كل من كتم شيئا من أحكام الدين لعموم الحكم للكلمة ، فقد روى البخارى وابن ماجه وغيرهما عن أبى هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثت أحدا بشيء أبدا . ثم تلا هذه الآية . وأخرج أبو يعلى والتبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من سأل عن علم فكتمه جاء يوم القياسه طجما بلجام من نار . والاقرب انها نزلت في اليهود والحكم عام كما تدل عليه الأخبار . وكونها نزلت في اليهود لا يقتضى الخصوص ، فان المبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب فالموصول للاستفراق ويدخل فيه من ذكر دخولا أوليا . (١)

وقال - رحمه الله - وهو يفسر الآية الثانية :

" والآية نزلت - كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - في علماء اليهود كانوا يصيبون من سفلتهم هدايا . وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم . فلما بعث من غيرهم كتموا وغيروا صفة - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يتبع فستزول رياستهم وتنقطع هداياهم . " (٢)

الامام ابو حيان : وقال ابو حيان - رحمه الله - وهو يفسر الآية الأولى :

" نزلت في أهل الكتاب وكتماهم آية الرجم وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - وذكر ابن عباس أن معاذا سأل اليهود عما في التوراة من ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - فكتموه اياه فأنزل الله هذه الآية . والكاثمون هم أخبار اليهود وعلماء النصارى وعليه أكثر المفسرين . " (٣)

(١) روح الممانى ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) روح الممانى ج ٢ ص ٤٣

(٣) البحر المحيط ج ١ ص ٤٥٨ .

صفته - صلى الله عليه وسلم - ومن الاحكام فكتموا فنزلت . والأول أولى
لمعوم اللفظ الخ " (١)

وقال - رحمه الله - وهو يفسر الآية الثانية :

" عن ابن عباس : نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم كعب بن
الأشرف وحبي بن أخطب ونحوهما . كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضول
وكانوا يرجون أن يكون النبي البصوت منهم . فلما بعث من غيرهم خافوا نهب
ما كتبتهم وزوال رلاستهم فعمدوا الى صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففيروها
ثم أخرجوها اليهم وقالوا هذا نعت نبي آخر الزمان ، لا يشبه نعت هذا النبي
الذي بمكة . فاذا نظرت السفلة الى النعت المخير وجدوه مخالفا لصفة النبي
- صلى الله عليه وسلم - فلا يتبعونه . " (٢)

الامام القرطبي - رحمه الله - :

وقال الامام القرطبي - رحمه الله - وهو يفسر الآية الأولى :
" أخبر الله تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى طعون .
واختطفوا من المراد بذلك . فقيل : أحمار اليهود ورهبان النصارى الذين كتتموا
أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد كتتم اليهود أمر الرجم .
وقيل : المراد كل من كتتم الحق . فهي عامة في كل من كتتم علما من دين الله
يحتاج الى بيته . " (٣)

وقال - رحمه الله - وهو يفسر الآية الثانية :

-
- (١) غرائب القرآن ج ٢ ص ٤١
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٧٥
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ١٨٤

" قوله تعالى : (ان الذين يكتفون ما أنزل الله من الكتاب) يمسنى علماء اليهود ، كتبوا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحة رسالته " . (١)

هذا ما نجده عند جلة المفسرين - رحمهم الله - فى تفسيرها تين الآيتين . ونحن أثبتنا لك هذه الأقوال كلها - مع كونها متقاربة - حتى يتجلى الأسر وينكشف الوضع - كما هو - فى دقة وأمانة .

فهل تجد فرقا بعدد به فى تفسير الآية فى كلا الموضعين ؟ واذ لم يكن هناك أى فرق بينهما فهل يتصور أن يكون مفسر الآيتين واحدا ؟ وان كسان واحدا فما الذى دعا الى هذا التكرار ؟ ثم لو أخذنا الأمر من ناحية أخرى لوجدنا أنه ليس هناك مفسر واحد . وانما هى احتمالات . احتمالات لا يترجح بعضها على بعض .

بعد ما قضينا مع هؤلاء المفسرين - رحمهم الله - فترة لا بأس بها نرى من واجبنا أن نرجع الى النظام ونسترشده فى تعيين مفسر الآيتين ، فقد عهدناه خير دليل وخير مرشد كلما وقفنا فى حيرة . ولم نكد نسيطر على المشكلة .

فان أردنا أن نأخذ هاتين الآيتين فى ضوء نظامهما ، فلنترجع قليلا ، ولنلق نظرة شاملة على ما بين أيديهما وما خلفهما من الآيات . ولنضع فى حسابنا تلك الملايسات التى تحيط بهما .

فكل من يتدبر هذه المجموعة من الآيات تسترعى اهتمامه هذه الحقائق

لا محالة :

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢٢٤ .

حقائق في ضوء الآيات :

الحقيقة الأولى : قبلة ابراهيم - عليه السلام - وذريته الطاهرة بنى الكعبة . وهي التي تم بناؤها على أيدي ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - في جو كله تضرع وانابة واسلام واغبات الى الله ، فان الأيدي كانت ترص اللبنة والقلوب كانت تخفق بهذه الكلمات :

" ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا . انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم . " (١)

فهذا البيت هو الذي بناه ابراهيم واسماعيل . وهذا النبي - صلى الله عليه وسلم - هو الذي بعث استجابة لدعائهما . وهذه الأمة هي التي أنشئت حتى تتحقق فيها أمنيتها . وهذا الدين هو الذي كان ميزتهما وكان عليه معياهما ومماتهما .

وانما انعرف اليهود عن هذا البيت الى بيت المقدس ، واتخذوه قبلة لهم لما أنهم يحسدون بنى اسمعيل على ما آتاهم الله من فضله . ولقد صرح به القرآن حيث قال :

" ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك " (٢)

(١) سورة البقرة آية ٢٧ - ١٢٩

(٢) سورة البقرة آية ١٤٥

" ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل ان هدى الله هو الهدى " (١)

" ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم " (٢)

وبذلك آثروا السفاهة على الهداية . وصدق عليهم قوله تعالى :
" ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه " (٣)

واستحقوا - عن جدارة - بأن يلقبوا بالسفهاء حيث قال تعالى :
" سيقول السفهاء من الناس : ما وآتهم عن قبلتهم التي كانوا عليها .
قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم " (٤)

الحقيقة الثانية : القلة المشروعة ضد الهداية هي الكعبة . وقد كان اليهود والنصارى مأمورين بأن يولّوا وجوههم شطرها . وهذا كما أنه يظهر من هذه الآيات ، التي نحن فيها ، فكذلك تشهد به صحفهم ، على الرغم من تلك الجهود المشلومة ، التي بذلها أهل الكتاب لكتمان أمر الكعبة . ولقد تناول الاسام الفراضى - رحمه الله - هذا الموضوع وأشبعه بحشاشا . ولكن المقام لا يسمح لنا الا بأن نذوقه نواقا . يقول - رحمه الله - :
" اعلم أنهم أمروا من أول أمرهم باتخاذ جانب مكة قبلة لأكبر قرابينهم . وبيان ذلك أنه كان من الواجب فى أمر القرى أن يؤتى الى المميد أمام الرب . وكان قدس الأقداس (وهو أكبر قرابينهم) يوجه الى الجنوب . كما مرّ فى حرف الياء من الفصل الثانى .

(١) سورة البقرة آية ١٢٠

(٢) سورة البقرة آية ١٠٥

(٣) سورة البقرة آية ١٣٠

(٤) سورة البقرة آية ١٤٢

وكذلك الضحية السنوية التي هي أكبر الأضاحي عندهم توجهت الى الجنوب . ولم يعرف أهل الكتاب حكمة ذلك . راجع الفصل الثانى (١) .

فنقول : الأغلب أنهم لم يحسبوا البحث عنها وكتموها تعسداً ، فان خيمة عبادتهم كان من البداية وجهها الى الشمال . سفر الخروج (٢٢ : ٩) : " وتضع دار المسكن الى جهة الجنوب نحو اليمن " .

أيضا فيه : " وجعل المائدة فى خيمة الاجتماع فى جانب المسكن نحو الشمال خارج الحجاب (٢٣) ورتب عليها ترتيب الخبز أمام الرب (أى أمام المصعد) كما أمر الرب موسى (٢٤) ووضع المنارة فى خيمة الاجتماع مقابل المائدة فى جانب المسكن نحو الجنوب " (٢٢ : ٤٠) وذلك ليكون من يأتى الى الرب متوجهاً الى الجنوب أى الى مكة المكرمة والمنهر الابراهيمى .

ويؤكد ذلك أنه فى داخل الخيمة كان المسكن المقدس الربانى فى الجنوب وكان المذبح بين يديه الى جهة الباب . ولذلك كان المقرب بقدرس الأقداس يقوم على شمال المذبح ، ليكون متوجهاً الى المسكن فيكون متوجهاً الى الكعبة . وعندنا المروة التى هى الضحى الأول وعنده مسكن اسمعيل - عليه السلام - (١)

فعلما أن القبلة المشروعة منذ البداية هى الكعبة . أما المسجد الأقصى فهو مسجد من المساجد ليس الآ . وانما جعله الله قبلة لفترة

(١) رأى الصحيح فيمن هو المذبح ص ٢٨

من الزمان حتى يميز الخبيث من الطيب ويملم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، حيث قال تعالى :

" وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله . وما كان الله ليضيع ايمانكم . ان الله بالناس لرؤوف رحيم " (١)

الحقيقة الثالثة : ليس فقط أن أعمل الكتاب جعلوا المسجد الأقصى قبلة لهم في

الصلاة . بل بذلوا أقصى جهودهم ليقطعوا صلة ابراهيم عن الكعبة . وحاولوا أن يثبتوا أن البيت الذي بناه ابراهيم - عليه السلام - للصلاة ، هو المسجد الأقصى . مع أن المسجد الأقصى بنى بعد ابراهيم - عليه السلام - بمئات السنين . والذي بناه هو سليمان لا ابراهيم - عليهما السلام - ولكنهم قلبوا الأمر وكتبوا الحق .

ولذلك لما جاء الوحي بتحويل القبلة قالوا :

" ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ " (٢)

أى ما صرفهم عن هذه القبلة مع أنها قبلة ابراهيم - عليه السلام - وهذا النبي يزعم أنه بعث على طة ابراهيم . واليه يشير قوله تعالى :
" ولئن اتهمتم أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم . انك اذا لمن الظالمين " (٣)

أى تكون ظالما لا محالة ان اتهمتم أمرهم استجابة لهواهم ، وجعلت

(١) سورة البقرة آية ١٤٣

(٢) سورة البقرة آية ١٤٢

(٣) سورة البقرة آية ١٤٥

القبلة قبلتهم بعدما اتضح الأمر وجاءك الخبر اليقين أن قبلتهم ليست
قبلة ابراهيم .

ولقد فضحهم القرآن حيث نسيه على كتمانهم هذا سره بعد مرة .
فقال : " وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون " (١) وقال :
" وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم . وما الله بخافل
عما يعملون " (٢)

وجاء الرد على هذه الدعوى بما هو أشد وأصرح في سورة آل عمران
حيث قال :

" ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للمالين . فيه
آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج
البيت من استطاع اليه سبيلا . ومن كفر فان الله غني عن العالمين " (٣)

الحقيقة الرابعة :

وكان من محاولاتهم المشلومة لابعاد البيت عن ابراهيم أنهم تفوهوا
- بكل وقاحة - أن ابراهيم لم يكن يمت بصلة الى الاسلام . وانما كانت
ديانته اليهودية - حسبما زعمت اليهود - والنصرانية - حسبما زعمت
النصارى - وأرادوا من وراء ذلك أن يوهوا أن هذا البيت ليس من بناء
ابراهيم .

وانما الذي بناه ابراهيم هو المسجد الأقصى ، الذي هو قبلة اليهود
والنصارى . وعلى هذا توعدهم ربهم فقال :

-
- (١) سورة البقرة آية ١٤٦
(٢) سورة البقرة آية ١٤٤
(٣) سورة آل عمران آية ٩٦ ، ٩٧

* أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويمقوب والأسباط كانوا يهودا
أو نصارى . قل انتم أعلم أم الله ! ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده
من الله . وما الله بغافل عما تعملون * (١)

وتمد ذلك مباشرة ذكر تحويل القبلة ، فقال :

* سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . قل
لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم * (٢)

وهذا النظم يفصح عما كانوا يقصدونه من اصرارهم على يهودية ابراهيم
ونصرانيه - لمنهم الله - ومثل هذا النظم ترى في سورة آل عمران ، حيث
قال :

* قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . ان
أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للملئين . فيه آيات
بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من
استطاع اليه سهيلا . ومن كفر فان الله غني عن العالمين * (٣)

الحقيقة الخاصة :

الصلحاء من أهل الكتاب كانوا على علم بهذه المحاولات العاكسة
الخبثية ، التي قامت بها طوائف اليهود . ولذلك لما تم تحويل
القبلة اطمأن هؤلاء الصلحاء وازدادوا ارتياحا الى هذا الدين الجديد
فانهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

-
- (١) سورة البقرة آية ١٤٠
(٢) سورة البقرة آية ١٤٢
(٣) سورة آل عمران آية ٩٥-٩٧

ولا تدري كيف تصور لك ما يموج به هذا التعبير القرآني من أنسهم
وحنينهم ولهفتهم الى المسجد الحرام فهم كانوا يعرفون مال هذا الهيئت
من مكانة وكرامة عند الله . وكانوا يحنون اليه كما يحنّ الوالد الحنون
الى وحيده الذي يفقده :

• الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم • (١)

الحقيقة السادسة :

لما جاء أمر تحويل القبلة لم يقابله اليهود بالهدوء والرضا ، بل هاجوا
وماجوا ، وقاموا وقعدوا ، وهزّوا المسلمين هذا ، ودبّروا لهم البلايا
والمحن كما يشير اليه قوله تعالى :

• الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني • (٢)

وهذه الظروف الحرجة القاسية استوجبت أن يقف الكلام هنا وقفة ،
ويصف للمسلمين ما يقوى عزائمهم ، ويذكى عواطفهم ، ويثبت أقدامهم
حتى يسيطروا على الظروف ويملكوا زمام الموقف . فجاءت هذه الآيات :

• فاذكروني أنكرتم واشكروا لي ولا تكفرون . يا أيها الذين آمنوا
استمعيوا بالصبر والصلاة . ان الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في
سبيل الله أموات . بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من
الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين
إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات
من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون • (٣)

(١) سورة البقرة آية ١٤٦

(٢) سورة البقرة آية ١٥٠

(٣) سورة البقرة آية ١٥٢-١٥٧

ثم عاد الكلام الى نصابه فقال تعالى :

" ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه
أن يطوف بهما . ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم " (١)

الحقيقة السابعة :

تشى هذه الآية بأن اليهود كما أرخوا سدول الكتان على بيت
الله الحرام ، فكذلك أرخوا على كل شىء يوشك أن يبوح بسرّتهم
ويكشف عن دسيساتهم .

فكتموا " المروة " التى اختارها الله لأن تكون موضع قربان اسمعيل
- عليه السلام - وحرفوها فى كتبهم عن " مروة " التى " موريا " و " صوره "
" ومرياً " وادّعوا أن هذا السكان يوجد فى اورشليم لا فى مكة التى يعمرها
بنواسمعييل .

لفات بارعة للامام الفراهي - رحمه الله - :

وللامام الفراهي - رحمه الله - لفات بارعة وجولات رالعة فى هذا
الموضوع . ونذكر بهذا منها فيما يلي . يقول - رحمه الله - :
" قد مرّ آنفاً أن " صوره " هى تحريف " مروة " . وقد اعترف
المحققون منهم بأن هذا الموضوع لم يكن فى الشام فى ساكن اليهود .
وانما أدخلوا هذا الاسم فى صحفهم واخترعوا له موضعاً لم يثبت عند
المحققين وجوده . بل نصوص صحفهم قد دلّت على أنه فى أرض الحجاز
فى ساكن بنى اسمعيل .

(١) سورة البقرة آية ١٥٨

فبعد ذلك أي شيء بقي من دعواهم بأنه على جبل أورشليم ؟ أم أي شيء
يدفع مالم يزل الاسمهليين يعرفونه بالعروة ، وكانت عندهم أشهر من نار على
علم . وكانوا يطوفون بها في حجهم ؟
وحين خاطبهم القرآن في أمر الطواف لم يحتج الى تعريفها ولكن بين أنها من
شماثر الله . وهناك أشار الى تعريف أهل الكتاب في أمرها وسوء صنيمهم فيما
يكتنون من آيات الله ، من بعد ما بينها الله تعالى في كتابهم . وسأتيك
ذكره في القسط الثاني .

وقد جاء في صحيح الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أشار الى
العروة حين رأى البدن واقفة عندها ، فقال :

" هذا المنحر وكل فجاج عكة منحروطرقها منحرا . "

وقال مرة لني : " هو منحرا " (١)

ومثل ذلك بين أن " منى " من طريق مكة .

وانظر كيف سعى النبي - صلى الله عليه وسلم - كل ذلك منحرا رأساً

العروة فسماها المنحر (مع لام التصريف) أي من المنحر الحقيقي .

ثم على ذلك دلالة من القرآن حيث قال تعالى في أمر البدن :

" ثم صلها الى البيت العتيق (٢) " وأيضاً " هديا بالغ الكعبة " . (٣)

أي لا بد للبدن أن تبلغ الكعبة ، فان حلها جانب الكعبة التي هي

البيت القديم الذي وضع لذلك أولاً كما صرح به في موضع آخر . والعروة هي

بجانب الكعبة وهي المنحر الأول . ولكن لما توسع نطاق الأمة جعل للمنحر

سمة .

(١) الموطأ للإمام مالك - رحمه الله - ٣٩٣/١

(٢) سورة الحج : ٣٣

(٣) سورة المائدة : ٩٥

وان لا خلاف بيننا وبين أهل الكتاب أن المنحرف الابراهيمي عند بيت
الله الذي بناه ابراهيم .

ثم ان هذه المروة هي التي تصدق عليها الصفات المذكورة في قصة الذبح
التي لا تصدق باعترافهم على جبل الهيكل الذي سمّوه " موريا " و " سوره " و
" العريّا " مرآء وكتمانا للحق .

فتطابق الأمور يدل على أن ابراهيم - عليه السلام - جاء من جهة
الشرق وترك غلاميه على جبل قريب . وذهب بابنه الوحيد اسمعيل - عليه السلام -
الى المروة ساعيا وطهيا لدعوة الرب .

وكان سكن ابراهيم الى جانب الصفا كما جاء في سفر التكوين (١٢ : ١-٨)
حيث جاء ذكر رحلته الى أرض موره في رواية أخرى لقصة الذبح . ولكنهم أسقطوا
منها ذكر هذا الذبح واكتفوا بذكر رحلته . فلم تنزل الصفا والمروة في سبب
اسمعيل قائلتين من لدن ابراهيم - عليه السلام - الى يومنا هذا مع الاسم والرسم ،
والمناسك الدالة على طيبة ابراهيم للرب وسعيه لاتعام أمره .

وليس لليهود ولا للنصارى شيء من هذه المناسك . وسياتيك تفصيل
ذلك في الفصل الرابع عشر (١)

هذه هي سبع حقائق بارزة التي تسفر عنها هذه المجموعة من الآيات .
وسمى ما لوح السياق بهذه الحقائق السبع بخصوص الكمية جاءت هذه

الآيات :

(١) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح ص ٢١-٢٢

" ان الذين يكتفون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . الا الذين تابوا وأصلحوا وينوا فأولئك أئوب عليهم وأنا الثواب الرحيم . ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدون فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون " (١)

فما هو هذا الكتمان يا ترى ؟ وهل هو غير كتمان القبلة وما حولها ؟
لا شك أن نظام الآيات يدحّ علينا بأن المراد بهذا الكتمان هو كتمان القبلة وكتمان الصفا والمروة .

كلمة موقفة لفضيلة الشيخ عبد الله د راز - رحمه الله - :

وما يسرنا أن الشيخ عبد الله د راز - رحمه الله - أيضا وصل عن طريق نظام الآيات الى ما وصلنا اليه ، وله الحمد . يقول - رحمه الله - في كتابه العظيم " النبأ العظيم " وهو يتكلم عن نظام هذه الآيات :
" ولطف ينشر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد ، فيقول ان تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان الا اختارا لايمان المهاجرين ليهتدين من تتبع الرسول من ينقلب على عقبه . وأما تشريع هذه القبلة الباقية فانه ينطوي على الحكم البالغة والمقاصد الجليلة ، فهي القبلة الوسطى التي تليق بكم أيتها الأمة الوسطى ، وهي القبلة التي ترضاها بأبيها النبي ، والتي طالما قلبت وجهك في السماء مستشرفا الى الوحي بها ، وهي القبلة التي يعلم أهل

الكتاب أنها الحق من ربهم ، وان كانوا يكتُمون ذلك حسداً وعناداً ،
وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده ، وأخيراً هي القبلة
التي لا يبقى لأحد من المنصفين حجة عليكم . أما الظالمون فلن يتقلع
جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم :

ولكن لا تخشوهم ، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله . واصبروا
ولا تعزّنوا على من سيقتل منكم في هذه السبيل ، فان الموت فيها هو
الحياة الباقية .

ثم أوما إلى أن الجدل في هذه القبلة ليس صداً عن الشعائر التي في
داخل المسجد الحرام فحسب . بل هو كذلك صداً عما حوله من الشعائر (ان
الصفاء والعروة من شعائر الله) .

ثم أكد أمرين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتحريض بأهل
الكتاب الذين يعلمون أصلها في تاريخ ابراهيم ، ولكنهم يكتُمون ما أنزله اللسنة
من الجينات وهم يعلمون . (١)

وهي هذه الآيات بطبيعتها :

ثم طبخمة هذه الآيات وصياغتها أيضاً توحى لنا بهذا المراد وتؤكد
لنا أن هذا الكتمان هو كتمان القبلة وما حولها .

ألا ترى هؤلاء الذين زاطوا هذا الكتمان كيف صاروا ، بحيث تنصب
عليهم اللعنة من كل جانب . كأن كل شيء في العالم يقذفهم باللعنة :

(١) النبأ العظيم ص ١٨٧-١٨٨

• أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " (١)

• أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " (٢)

وذلك لأن فيوض الكعبة وخيراتها تصمّ العالم كله ، حيث قال تعالى :

" ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين " (٣)

" جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس " (٤)

فالذين تجرّوا على كتفان القبلة كأنهم أساءوا الى العالمين أجمعين .

واستحقوا منهم الويل واللعنة الى يوم الدين . فالعنهم اللهم لعنة دائمة مستمرة

الى ابد الابد !

المراد بالكتفان في الآية الثانية :

ونظام ما سبقها من الآيات :

ثم لما انتهى موضوع القبلة ، وقد أعطى حقه من الهيان والتفطية ، انساق

الكلام الى التوحيد الذي وضع عليه أساس هذه القبلة . والذي تركهم عليه

أبوهم يعقوب - عليه السلام - وأخذ عليه منهم العهد والميثاق ، حيث قال تعالى :

" أم كنتم شهداء " ان حضري يعقوب الموت ان قال لهنيه ما تعبدون

من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آباك ابراهيم واسماعيل واسحق

الها واحدا ونحن له سلمون " (٥)

ولم يكن كتفانهم لهذه القبلة وعداؤهم لهذه النبوة الا نتيجة لانخلاعهم

عن هذا العهد ، وعدهم عن التوحيد وانفاسهم في الشرك .

-
- (١) سورة البقرة ١٥٩
 (٢) سورة البقرة ١٦١
 (٣) سورة آل عمران ٩٦
 (٤) سورة المائدة ٩٧
 (٥) سورة البقرة ١٣٣

فذكّرهم الله تعالى هذا العهد حيث قال :

" والهيكم اله واحد . لا اله الا هو الرحمن الرحيم " (١)

ذكّرهم بأسلوب كله نصح ومودة ورقة وحنان .

ثم ذكر طائفة من نعمه الجسام ، التي ينعمون بها ويتقلبون فيها . والتي تدعو كل من كان فيه ذرة من حياء أو ومضة من فكر سليم الى الالتصاق به والحرص على طاعته ، والخضوع لأوامره واللجوء الى حبه والشكر لنعمه :

" ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون " (٢)

ثم تصعب من حماقتهم التي يرتكبونها حيث ينهلون من نعم الله ثم يجهلون له أنذارا (٣) ، ويحبونهم كحبّ الله ، مع أن هذا الحبّ كان من حقّ الله .

ومثل هذا جاء في سورة التوبة حيث قال تعالى :

" اتخذوا أربابهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو . سبحانه عما يشركون " (٤)

ثم ذكر أن هؤلاء الانذار لا يطكون لهم ثوابا ولا يدفعون عنهم عذابا ويتهرؤون منهم يوم القيامة ، وتمرد أعمالهم كلها حسرات عليهم . ويريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها .

(١) سورة البقرة : ١٦٣ (٢) سورة البقرة ١٦٤
 (٣) ذكر الامام القرطبي - رحمه الله - عن ابن عباس - رض الله عنه - والسدي - رحمه الله - أن المراد بالانذار الرؤساء المتبصرون ، يطيفونهم ففى معاصي الله . انظر الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢٠٣
 (٤) سورة التوبة آية ٣١ .

وهذه النديّة كانت لها أشكال وألوان ، منها أنهم حرموا كثيرا ما أحل الله لهم من الطيبات .

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن عدي بن حاتم - رضى الله عنه - قال :
 " أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقى صليب من ذهب فقال :
 يا عدي ، اطرح هذا الوثن من عنقك . قال فطرحته . وانتهيت اليه وهو يقرأ
 فى سورة براءة فقرأ هذه الآية : اتخذوا أحياءهم ورهبانهم أربابا من دون الله " قال قلت يا رسول الله انا لسنا نمهدهم فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلّون ما حرم الله فتحلونهم قال قلت بلى قال فتك عبادتهم . واللفظ لحديث (١)
 أبى كريب "

وعلى هذا فجاء الأمر الإلهى :

" يا أيها الناس ، كلوا ما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان
 انه لكم عدو مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " .
 ثم تحسّر على بلائهم وشدة غفلتهم ، أنهم كلما دعوا الى الحق والهدى
 يرفضونه لمجرد أنه لم يوشر عن آباءهم . حيث قال تعالى :

" وإذا قيل لهم (٢) اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه
 آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهدون . ومثل الذين كفروا
 كمثل الذى يئسق بما لا يسمع الا دعاء ونداء . صم بكم عى فهم لا يعقلون " .
 ثم وعظ المؤمنين حتى لا يقوموا فيما وقع فيه أهل الكتاب من تحريم ما أحل
 الله ، فان هذا ينافى الشكر وينافى العبادة ، قال تعالى :

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن ج ٦ ص ٨١
 (٢) ذكر الامام القرطبي - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن هذه
 الآية نزلت فى اليهود . انظر الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢١٠ .

" يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه
تعبدون . انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .
فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم . " ثم قال تعالى :
" ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثنا قليلا اولئك
ما يأكلون في بطونهم الا النار . ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب
أليم "

فما هو السراد بهذا الكتمان يا ترى ؟ أليس هو كتمانهم في مجالس
التحليل والتحرير ؟
أليس أن نظام الآيات يحدّد لنا هذا الكتمان ، ولا يترك لنا الخيار حتى نميل
الى ما سواه ؟

بيان ذلك أن اليهود قد حرّم عليهم كثير من الامنيات . وكان ذلك جزاء
لبيعتهم واعتدالهم كما قال تعالى :

" وعلى الذين عادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والخنزير حرّمنا عليهم
شحمها الا ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اخطط بهنّ . ذلك جزيناهم
ببيعتهم وانا لصادقون " (١)

الا أن رافة الله بهم لم تجعل هذا الجزاء دائما مستمرا الى يوم
القيامة . بل جعلته محدودا بفترة معينة . وشترتهم بمجيبى نبي الرحمة .
وجعلت مجيبه مغلاقا لباب المحنة ومفتاحا لباب الخير والنعمة . وأعلمتهم مسبقا

(١) سورة الانعام : ١٤٦

بكل وضوح وصراحة أنه يحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم
الأصّر والأغلال^١ حيث قال تعالى :

* قال عذابي أصعب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء . فساكنتها
للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يهتمون الرسول
النبى الأسمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف
وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصهرهم
والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزّروه ونصره واتبعوا النور الذى
أنزل معه أولئك هم المفلحون * (١)

فكان من واجب هؤلاء الأعيان والرهبان أن يخروا سجدا لله شكرا وامتنانا
على هذه النعمة التى أفيضت عليهم ، ثم يكونوا أول الناس ايمانا بهذا النبى - صلى
الله عليه وسلم - وأشدّهم سعادة واستبشارا بمقدسه ، وأسبقهم الى ساندته فى
سبّته ، وأرضعهم فى الانضمام الى كتبه .

ولكنهم نكسوا على رؤوسهم ، فكذبوه وخالفوه ، وشككوا الناس فى نبوته ،
ونفروهم عن دينه وشريعته . وقالوا : ما بال هذا النبى ؟ فإنه ما ترك شيئا الا
وخالفنا فيه وخالف رسلنا . خالفهم فى دينهم ، وخالفهم فى قبلتهم ، وخالفهم
فى شريعتهم ، فأحل ما حرّموه وحرّم ما أحلوه .

مع أنهم كانوا يعرفون حقيقة الأمر . كانوا يعرفون أن هذا النبى جاء رحمة
لهم . جاء ليدخلهم فى رحمة ربهم بعد ما طال حرمانهم ، وطال شقاؤهم . فهو

(١) سورة الاعراف: ١٥٦-١٥٧

يحرّم عليهم الخبائث ويحل لهم الطيبات . ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

كانوا يمرفون هذا وهذا جيدا ، ولكنهم ما أرادوا أن يفرجوا من شقائهم ، فتعادوا في غيبهم وأصروا على كتمانهم .

فجاءت هذه الآيات تنذرهم ما ينتظرهم من سوء المصير وعذاب السعير !
فترى أن التمسك بالنظام كيف حدّد لنا نوعية الكتمان في هاتين الآيتين .
وجعل الفرق بينهما واضحا شاخصا ، بينما ترى الذين لم يتمسكوا بالنظام ، لم يهتدوا إلى هذا الفرق . وجعلوا الأمرين أمرا واحدا .

الفصل السادس

المزفة السادسة

النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن . لكن الذي لا يهتتم
بالنظام فقد يتمدّد عليه أن يتدّوق بلاغة القرآن . أو يدرك سيزتها التي أعجرت
فرسان الكلام .

نأخذ - على سبيل المثال - سورة القمر . فهذه السورة - كأغواتها -
تتلم على أبواب متوّعة من البلاغة وحسن العبارة . ولكن هذه الأبواب كأنها -
ما زالت مفلقة لقلّة من طرقها ، وقلّة من عالجها فأحسن علاجها .

ولا نرى من المفسرين والكتاب - رحمهم الله - من تدوّق هذه السورة
واستمع بها مثلما تدوّقها الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - واستمتع بها حيث
يقول :

" هذه السورة من مطلعها الى ختامها حطة رعيية مفزعة عنيفة على قلوب
المكذبين بالنذر ، بقدر ما هي طمانينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصقفة . وهي
مقسمة الى حلقات متتابعة ، كل حلقة منها مشهد من شاهد التعذيب (المكذبين ،
يأخذ السياق في ختامها بالحسّ البشري فيضطره ويهزّه ويقول له : فكيف
كان عذابي ونذري ؟ " . ثم يرسله بعد الضبط والهزّ ويقول له :

" ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ "

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى . فهي مشهد من
شاهد القيامة في المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد في الختام . وبينما
عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد . وشمود . وقوم لوط . وفرعون وملوك . وكلها
موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى . .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تبرز في هذه السورة عرضا خاصا ، يعيها
 جديدة كل الجدة . فهي تبرز عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ، يفيض منها
 الهول ، ويتناثر حولها الرعب ، ويظلمها الدمار والغزع والانبهار !
 وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة
 سريعة لاهثة مكروية . يشهدا المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ،
 ويحسون ايقاعات سياتها . فاذا انتهت الحلقة هدوءا واستردون أنفاسهم
 اللاهثة المكروية عاجلتهم حلقة جديدة أشد عمولا ورعبا . . وهكذا حتى تنتهي
 الحلقات السبعة في هذا الجو المغزع الخائق . فيظل الشاهد الأخير فسي
 السورة وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة
 والسكينة . انه شهد المتقين : " ان المتقين في جنات ونهر . في عقم
 صدق عند عليك مقدر " . . في وسط ذلك الهول الراجف ، والغزع المزلزل ،
 والمذاب المهيئ للمكذابين : " يوم يسحبون في النار على وجوههم . ذوقوا
 من سقر " .

فأين وأين ؟ شهد من شهد ؟ ومقام عن مقام ؟ وقوم عن قوم ؟ ومصير
 من مصير ؟ (١)

ولكن هذا الذي نجده عند سيد قطب - رحمه الله - على روعته وجلالته
 قدره - لا يزيد على أنه لمحة خاطفة وإشارة عابرة الى محاسن هذه السورة وميزاتها .
 والا فالسورة تزخر بمحاسن التعبير ولطائف البلاغة بحيث يمتلئ بها الصدر ولا
 ينطلق بها اللسان .

(١) في ظلال القرآن المجلد السابع ص ٧٩ ، ٨٠

ومما يجدر بالذكر والانتباه أن هذه البلاغة يرجع معظمها الى حسن

النظام .

فمن كان حريصا على أن يدرك هذه المعاسن ، ويتذوق تلك البلاغة فعليه أن يتدبر السورة متمسكا بنظامها . فالنظام يمده بكثير مما لم يخطر بباله ، ولم يشم رائحته عند غيره .

ونذكر هنا بعض ما لسنناه من لطائف البلاغة في هذه السورة ، حتى يكون ذلك حافزا لمن تتلحح الى الفحص عن بقيتها .

فكلما تدبرنا هذه السورة ، وأنعمنا النظر في نظامها ، وجدنا ما مثالا رائعا لبراعة الاستهلال ، وندرة الاستدلال ، وروعة التخلص ، وسرعة الالتفات ، وحسن التلميح ، وجمال المقطع ، ودقة التصوير وشدة التأثير ، وكمال الإبلاغ وعجيب الاستدراج ، وما الى ذلك من دلائل الاعجاز .

براعة الاستهلال :

فمن أراد أن يتذوق براعة الاستهلال في هذه السورة ، فليتككرا واغسر سورة النجم ، حيث قال تعالى :

" هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا " (١)

فلما كان أعداء الله في غاية السمود ، حيث كانوا يعجبون اذا قيل

لهم : " أذفت الازفة ، ليس لها من دون الله كاشفة " وكانوا يضحكون ولا يبكون .
ويستهزؤون ولا يخافون ، قرعتهم سورة القمر وهزتهم هزاً عنيفاً حتى ينتهبوا من
رقدتهم ويفيقوا من هوسهم :

" اقتربت الساعة وانشق القمر "

أى جاءت الساعة - الساعة التى كنتم تصجبون منها وتضحكون . جاءت
بكل ما فيها من الشرور والآفات . وهذى أشراتها ، قد ظهرت وتحققت ، ففسد
انشق القمر . ولم يبق مجال لانكار من أنكر .

واختير هذا الأسلوب - أسلوب المفاجأة أو المباغته ، حتى يدركوا أن
الساعة هكذا تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون . وعند ذلك
يندمون ويضطربون ، كما قال تعالى :

" واقترب الوعد الحق . فإذا هن شاخصة أبصار الذين كفروا . ياويلنا
قد كنا فى غفلة من هذا . بل كنا ظالمين " (١)

ولكن ماذا يجديهم الندم ، وقد فاتهم أوانه !
وكان هذا الأسلوب - ولا شك - بهيئته تخشع له الجبال وتتصدع لسهبه
الصخور . ولكنه لم يكن لينجع فى قوم أعماهم الجهل والسمود عن النظر فى
عواقبهم . وكانوا كما قال الله فيهم :

" انّا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا . وان تدعهم
الى الهدى فلن يهتدوا اذا اهدا . " (٢)

(١) سورة الانبياء : ٩٧

(٢) سورة الكهف : ٥٧

فلم يكونوا ليفيقوا من هوسهم . وانما الذى كان يخشى منهم أن يزدادوا
عنادا الى عنادهم ويقولوا كما قال أشياعهم من قبل :

" فأت بآية ان كنت من الصادقين " (١)

فجاءت الآية : " وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " .

وهذا من عجيب أسلوب القرآن ، أنه كثيرا ما يأتى بمعنيين ترى أن بينهما
فجوة ، وما هى فجوة ، وانما هى من لطائف بلاغة القرآن ، أنه يأتى بمعنيين
متساويين فى بادى النظر ، ويترك للذهن أن يملأ الفراغ بينهما . وان شدت
فقل ، انه يجعل الخيال جسرا بينهما .

ومثل هذه المواطن تكون مظنة العمرة . إلا أن رعاية النظام تعالجها
بسهولة .

فكانه قيل : انهم يندرون الان ويلاط الساعة فلا ينتبهون ولا يرتعدون
ويدعون بآية يسئلون بها على صدق هذه النبوءة . ولو ظهرت لهم الاية
استجابة لرغبتهم لأعرضوا وقالوا : " سحر مستمر " . كما جاء فى موضع آخر :
" وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه . وان لسم
بيهم وا به فسيقولون هذا افك قديم " (٢)

" فلما جاءهم الحق من عندنا ، قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ؟

أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون " (٣)

ثم قال : على أية حال ، فانهم كذبوا بالساعة . ولم يركنوا فى تكذيبهم

(١) سورة الشعراء : ١٥٤

(٢) سورة الأحقاف : ١١

(٣) سورة القصص آية : ٤٨

هذا الى دليل رصين أو أساس متين . وانما اتبعوا أهواءهم .
 فهل تكذب بيهم هذا يغير الوضع ويبدل القول ؟ كلا ! فكل أمر له موعده
 مضروب وأجل محتوم . فان جاء الموعد وحان الأجل فلا بد أن يثبت الأمر
 ويستقر .

ثم هم كيف يمرضون ، مع أنهم قد جاءهم من الأنبياء ما يكفي لرد عنهم وزجرهم ؟!
 جاءتهم أحاديث كلها حكمة ومعظة بالفرة . ولكن هذه النذر كلها
 ضاعت . وعادت صحيحة في واد ، ونفخا في رماة !

ضع هذه الملابس في الذهن . ثم ارجع البصر كرتين . تجد هذه الآيات
 نموذجاً رائعاً لبراعة الاستهلال : " اقتربت الساعة وانشق القمر . وان يروا آية
 يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم . وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم
 من الأنبياء ما فيه مرد جبر . حكمة بالفرة فما تفن النذر " .

روعة الالتفات :

وهنا يلتفت الغطاب الى النبي - عليه السلام - :

" فتول عنهم . يوم يدع الداع الى شيء نكر . خشما أبصارهم . يخرجون
 من الأجدات كأنهم جراد منتشر . مهطمين الى الداع . يقول الكافرون هـذا
 يوم عسر " .

ولعمري هذا التفات عجيب . فان الكلام مازال متعلقاً بالكافرين ومتوجهاً
 اليهم . فكأنه من قبيل : " اياك أعنى واسمى يا جارة " .

ولا يخفى ما لهذا الالتفات من وقع وتأثير في النفوس ، ان كان قد بقي فيها
 رمق من حياة !

حسن المقابلة :

ثم نلاحظ في هذه الآيات مقابلة عجيبة ، لا ينتبه لها الا من يهتم بنظام الآيات .
 فاليوم هم " سامدون " . وغدا تراهم " خشما أبصارهم " .
 اليوم هم معرضون عن الداعي : " وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " .

وغدا تراهم " مهطمين الى الداع " .

اليوم هم يكذبون " وكذبوا واتبعوا أهواءهم "

وغدا يصدقون حين لا ينفسهم تصديقهم : " يقول الكافرون هذا يوم عسر "

اليوم هم يقولون : " نحن جميع منتصر "

وغدا يخرجون من الأعداء كأنهم " جراد منتشر "

وما أعجب المقابلة بين " جميع منتصر " و " جراد منتشر " !

ثم تبلغ هذه المقابلة فايتها من الحسن والبراعة حين نستمع الى القرآن مرة

أخرى وهو يقول : " أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر "

وما أشبه الجيش المنهزم بالجراد المنتشر !

ثم نجد أنفسنا أمام هذه الآيات :

" كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عهدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنسى

مفلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بما " منهمر . وفجرنا الأرض عيوننا فالتقى الماء

على أمر قد قدر . وحطناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا . جزاء لمن كان

كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا

القرآن للذكر فهل من مدكر ؟

كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ؟ انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم

نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقصر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد

يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟

كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أهشرا منا واحدا نتبعه ؟ انا انزلنا لقي ضلال وسحر .

ألقي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيملمون غدا من الكذاب الأشر .

انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونهئهم أن الماء " قسمة بينهم . كل شرب

محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ انا أرسلنا

عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من

مدكر ؟

كذبت قوم لوط بالنذر . انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط . نجيناهم بسحر .
 نعمة من عندنا . كذلك نجزي من شكر . ولقد أخذهم بطعنتنا فتماروا بالنذر .
 ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكسرة
 عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟
 ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .
 ينظر الناظر الى هذه الآيات فيزعم أنها جاءت لمجرد توعيد الكافرين على سوء
 مصيرهم فى الدنيا شأن من خلوا من قلوبهم . كما صرح به القرآن بعدما انتهى من
 هذه القصص ، حيث قال :

" أفأركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟
 سيهزم الجمع ويولون الدبر "

ولكننا حين نأخذ هذه الآيات فى ضوء نظامها ، نقضى منها العجب لكسرة
 ما تشتمل عليه من عجائب البلاغة : من ندرة الاستدلال على مجيئ الساعة ، وعجيب
 الاستدراج الى هذه الحقيقة المرة ، ثم من سرعة الالتفات وعجيب التخلص ، ودقة
 التصوير ، وشدة التأثير وأشياء أخرى قد يعجز الانسان عن التعبير عنها .
 وهنا نلحح الى بعض ما تتضمنه هذه الآيات من عجائب البلاغة :

ندرة الاستدلال :

ننظر أولا الى ندرة الاستدلال على مجيئ الساعة . وذلك من ناحيتين :
الناحية الأولى : انهم كانوا يستبعدون الساعة من جهة امكانها . وكانوا يطلبون
 آية يستدلون بها على وقوعها .

انهم كانوا يقيسون القدرة القادرة على قدراتهم الضئيلة العاجزة . وكانوا
 يتمسجون ويمسوا لون : كيف ينشق هذا القمر ؟ وكيف تنفطر هذه السماء ؟ وكيف

تسير هذه الجبال ؟ وقد أشار القرآن الى شبهاتهم هذه حيث قال :
 " ويسئلونك عن الجبال . فقل ينسفها ربي نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى فيها
 عوجا ولا أمثا . يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وغشمت الاصوات للرحمن . فلا
 تسمع الا همسا " (١)

فقد جمع القرآن في ثنايا هذه القصص عددا من الحوادث الكونية ، التي
 تظهر حين قيام الساعة . فان كان الله قادرا في فترة قوم نوح على أن يفتتح
 أبواب السماء ، وعلى أن يفجر الأرض عيوننا ، فما وجه الاستفراب اذا قيل فسي
 أشرط الساعة : " وفتحت السماء فكانت أبوابا " أو " واذا البحار فجرت " ؟
 ثم ان كان الله قادرا على أن يرسل صيحة واحدة على ثمود فيكونوا كبهشيم
 المحتظر فما وجه الاستفراب اذا قيل : " ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع
 لدينا محضرون " ؟

ثم فلق البحر على يد موسى ليس أقل غرابة من انشقاق القمر ، فما وجه الاستفراب
 اذا قيل : " اقتربت الساعة وانشق القمر " ؟
الناحية الأخرى :

ان هذه الحلقات المتتابعة المتلاحقة للأمم والأحزاب التي حلّ عليها سخط
 الله بسبب عصيانها وطفيانها دليل صارخ على أن صاحب المرش ليس يفاضل عن رعيته .
 وانما هو يراقبهم ويماطلهم حسب تصرفاتهم . فيهلك المصاة الطاغين . ويرحمهم
 عباده الشاكرين .

فهى نماذج وشواهد للدينونة الكبرى ، التي تظهر حين قيام الساعة . على
 وجه أتم وأشمل . فان هذه الدنيا ليست دار الجزاء . وانما هي دار البلاء . وما
 يظهر فيها من وقائع الجزاء ، فهو ليس الا ظمها الى ما يتبعه من الجزاء الأوفى .
 الذي لا يفاد رصغيرة ولا كهيرة الا أحصاها .

عجيب الاستدراج :

ثم هذه الآيات كما أنها نموذج لندرة الاستدلال على مجيء الساعة ، فهي نموذج كذلك لعجيب الاستدراج .

فهي لا تصح بدلائل وقوع الساعة حتى ينفر منها من لا يؤمن بها ، بل تتضمنها في ثناياها وتخفيها في غشونها . وان شئت فقل : ان هذه الدلائل تنشى في عروقها كما ينشى الماء في عروق الشجر وأغصانها .

فالسامع يسمع هذه القصص واحدة بعد أخرى . وما ينتهي منها حتى يلسين وينكسر من حيث لا يشعر . ويتوجس في نفسه خيفة الجزاء مع أنه كان منكرا للجزاء . ثم حين ينتهي السياق من هذه القصص لا يفاجئهم بتوعد الساعة . بل يراعى هذا الاستدراج . ويأخذ الجانب الذي كان ^{من}الوضوح بحيث لا يحتفل المرء . ويوجه المهم سؤاليين :

" أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براة في الزبر ؟ "

وكان هذان السؤالان من القوة والزام الحجة بحيث لا يسعهم الا أن يجيبوا عليهما " بلا " . فأردفهما سؤالا آخر بدون أن يقف عليهما :

" أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ "

وكان الموقف يحتل أن تستيقظ فيهم نوازع الأنفة والهمة الجاهلية ، ويسارعوا

بالجواب عليه " بنعم " . فأزاح عنهم حجاب الضرور وصد مهبم بالواقع المر :

" سيهزم الجمع ويولون الدبر "

براعة التخلص :

ثم يخطو السياق خطوة أخرى بكل سرعة وبراعة . ويقرعهم بما هو أشد وأقسى .

ولا يعطى الفرصة حتى ينهت أشقى القوم ويقول : اذا كان هذا هو كل شيء ،

ثم ينتهي الأمر فمن نقبل هذه الهزيمة ونرفض أن نفارق ما وجدنا عليه آباءنا . فيقطع

لقرآن دابر هذا الوهم قبل أن ينجم :

" بل الساعة موعدهم . والساعة أدهى وأمر "

أى ليس هذا نهاية المطاف . بل موعدهم فى الحقيقة هى الساعة . فإن كانوا يزعمون أنهم يتحطون مرارة هذه الهزيمة ، فليعلموا أنهم لا يطيقون تلك المرارة التى تنتظرهم بعدها . وهى مرارة الساعة . وما أمرها وأدهاها !

سرعة الالتفات :

والشيء الذى نلاحظ هنا مع عجب الاستدراج ، هو سرعة الالتفات من الغيبة الى الخطاب ثم الى الغيبة حيث قال تعالى :

" ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر . أكفركم خير من أولئكم أم لكم براة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر "

علما بأننا أول مرة نرى فى هذه السورة هذا الخطاب المباشر الى الكفار بعد ما قطعنا ثلاثة أرباع هذه السورة ودخلنا فى الشوط الأخير منها . ثم هذا الخطاب يأتى بسرعة عجيبة ويضى بسرعة عجيبة كذلك ، بحيث يتحرك له الوجدان ، وتهتز له المشاعر . فما هو السر فى هذا التحول السريع ياترى ؟ ما نظن أن هذا السؤال يمكن عليه الاجابة الا بعد الرجوع الى النظام . لقد أسلفنا القول بأن الله راعى فى هذه القصص نوعا عجيبا من الاستدراج . فما يكاد ينتهى السامع من هذه القصص - بشرط أن لا يكون مطموسا - الا وهو يستشعر الروع ويداخله الفزع من حيث لا يشعر . ويجد نفسه مضطرا الى أن يراجع سلوكه ويفكر فيما يثول اليه أمره .

وهنا ينتهز السياق هذه الفرصة السانحة ، ويوجه اليه هذا السؤال بكسر الهمزة وسرعة وبراعة ، حتى يكون ذلك معاونانا له فى مراجعة نفسه :

" أكفركم خير من أولئكم أم لكم براة فى الزبر ؟ ! "

علما بأنه لم يكن مهيبا نفسيا قبل هذا حتى يوجه اليه هذا الخطاب المباشر .

هذا ، وكان هناك بجانب هؤلاء الجاهيل فريق من قادة الكفر . الذي قد بلغ من السموم غايته . ولم يكن مهيبا بعد حتى يوجه اليه الخطاب المباشر فانه على الرغم من هذا القرع العزلزل العنيف مصرّ على سموده واستكباره ، مغمور بقوته وشدة بطشه . ويتلوى ويتججج في غروره :

" على أية حال ، فنحن جميع منتصرا ! "

وهنا يبادر النص القرآني برد هذا الغرور في وجه أصحابه مع الاعراض عنهم :

" أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم . والساعة أدهى وأمر ! "

ولاشك أن هذا الاعراض يزيد أحيانا في شدة العتاب ويكون أوقع في النفس وأنجع في العلاج .

وسا يشير الى هذا الفرق أن السياق لا يقول في آية الخطاب :

" أيها الكفار ، أنتم خير أم أولئكم ؟ "

وانما يعدل عنه الى قوله :

" أكفاركم خير من أولئكم ؟ "

ويمكن أن نفسر الآية بقولنا :

أيها الناس ، هل تنظرون الى قادةكم وطفاتكم هؤلاء ؟ أم خير وأقسوى من أولئكم الذين سحقوا ودّروا ؟ وهل يفلتون من عذابنا اذا أخذوا وحوسبوا ؟ والا فكيف أخذتم طريقهم وربطتم مصيركم بمصيرهم ؟ أم هل تحسبون أن ربكم كتب لكم براءة من خطه ، وأعطاكم " الرخصة " في عصيانه ؟ !

سراة الترجيع :

نرجع مرة أخرى الى القصص ، ونتأمل من خلالها في الترجيع . ترجيع قوله تعالى :

" ولقد يسرنا القرآن للذکر فهل من مدکر ؟ "

فقد رجعت هذه العبارة في هذه السورة أربع مرات . بعد كل مشهد من مشاهد

المذاب . فما الفائدة من هذا الترجيع ؟ وهل يضيف هذا الترجيع شيئا جديدا

الى موحيات هذه السورة ؟ وهل له دور ملموس فى جمال السورة وفى ايقاعاتها ؟
أم هو تكرر محض لا يبتغى من وراءه شيء من هذا ؟

هذه الأسئلة تفرض علينا أن نضمن النظر فى نظام الآيات ، فان جوابها
مخيبو تعبت نظامها . ومن أراد أن يجيب عليها ساهيا عن نظامها ، فلا نضمن
أن جوابه يختلف عن جواب الامام الشوكانى - رحمه الله - حيث يقول :

" لعل وجه تكرر تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الاشعار بأنه منسمة
عظيمة لا يبتغى لأحد أن يفغل عن شكرها " (١) .

بينما التأمل فى نظام هذه الآيات يشخص لنا جمال هذا الترجيع ، ويفصح
عن بلاغته واعجازه بحيث نعبز عن اظهاره . واليك بعض وجوهه فيما يلى :

١ - هذا الترجيع يسبغ على هذه المشاهد الرهيبة المخيفة المفزعة ثوبا ضافيا
فضاضا من الرقة والمدونة والرحمة . فنشمر كلما ينتهى مشهد من هذه
المشاهد المرجفة كأن ربنا تجلّى لنا فى موكب الرأفة والمودة والحنان . ويحذرنا
أن نتورط فيما تورط فيه أولئك المتمردون من الخنزى والمذاب والهلاك . وينادينا
بحنو وتأكيد واصرار :

" ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ "

٢ - هذا الترجيع - مع ما فيه من تكرر ضمير الجلالة (نا) - يلقى فى روعنا
مدى رأفة الله بعباده . ويقربنا اليه ويقربنا حتى يجعلنا نستشمر كأننا فى
كنف ربنا ، ويرنّ صوته فى آذاننا ، وهو يدعونا :

" هل من مدكر ؟ هل من مدكر ؟ "

٣ - هذا الترجيع يوهى الينا أن كل حلقة من هذه الحلقات مشهد مستقل بنفسه .
وكل مشهد بحفره يكفى للمظة والتذكار . وكما كان الله بعباده رحيمًا ،
ان قصّ عليهم هذه القصص تباعا ، بحيث لو تفتوتهم قصة توقظهم أخرى .

(١) فتح القدير ج ٥ ص ١٢٧ .

ولقد صدق نبينا - عليه السلام - ان قال : " ولا يهلك على الله الا هالك " .
 ٤ - هذا الترجيع يشمرنا أن كل حلقة من هذه الحلقات متميزة من صاحبها .
 ولكل واحدة منها ايحاء يخصصها . فلا بد أن نقف على كل واحدة منها
 وقفة متأنية حتى نستوعب ايحاءاتها .
 ثم اذا رجعنا الى هذه الحلقات وتأملنا فيها من هذه الناحية وجدناها
 كذلك . وسيأتى تفصيله من قريب .
 فانت ترى أن التأمل في نظام هذه الآيات كيف كشف لنا عن نواحي الجمال
 في هذا الترجيع وليست هذه كلها . بل هي بعضها . وبعضها الأخرى لا ندرى
 كيف نمبر عنها .
 جملة القول أن هذا الترجيع تمرّض في هذه السورة " تعرض أئنا* الوشاح
 المفصل " وان شئت فقل ، انه يتلأأ فيها كما يتلأأ الشرا في كبد السماء . وان
 شئت فقل ، انه منح هذه السورة حياة شاخصة وحركة مقبلة . فجعلها شاخصة
 حاضرة ، فيها الحياة وفيها الحركة .
تميز وتماثل :

والآن أتى لنرى تميز هذه القصص في ايحاءاتها مع تماثلها في جوها وصياغتها .
 وهذه ناحية عجيبة من بلاغة أسلوب القرآن . وما يغفلن لها الا من يهتم
 بنظام الآيات . فنقول وبالله التوفيق :
 القصة الأولى - قصة قوم نوح - يغلب عليها لون رعاية الله لمباداه المرسلين .
 ألا ترى كيف بدأ القصة بقوله : " وكذبوا عهدنا " .
 ولا ندرى كيف نمبر عما تفيض به كلمة " عهدنا " من حفاوة تأخذ القلوب وتطك
 لشعور ، خاصة في هذا الجو الخائق المكروب ان " قالوا مجنون وازدجر " .
 ثم نلاحظ كذلك أنه ما تتحرك شفتا نوح - عليه السلام - باظها زضعفه وعبيسه
 مام ربه ، حتى يسرع اليه ربه بمطفه ورعايته ، ويحرك الكون للانتصار من أعدائه :

" فدعا ربه أنى مقلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بما منههم . وفجبرنا الأرض عيوننا فالتقى الماء على أمر قد قدر " .

ولننتبه لضمير الجلالة هنا : " ففتحنا " و " فجبرنا " . فان تصريح ضمير الجلالة لنا يشعر بأنه - تعالى - قد تولى موضوع نوح - عليه السلام - بنفسه . ولم يكلف به غيره اهتماما بشأن عهده !

ثم نرى نوحا يحمله ربه على ذات ألواح ودسر . يحمله بنفسه ! لا يكلف به غيره . يحمله ربه على ذات ألواح ودسر . وهى تجرى بأعينه وفى ظل رعايته ! وكان هذا جزاءً وكراماً لمن كفر به قومه ، فأكرمه ربه وأسبغ عليه فضله : " وهملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا . جزاءً لمن كان كفر " . والمراد " بذات ألواح ودسر " هو السفينة كما هو معروف . ولكن النص القرآنى يمدل عن السفينة الى " ذات ألواح ودسر " حتى يدور لنا ذلك المشهد الفسيفسائى الجميل .

فنشعر كلما نزلوا هذه الآية كأننا واقفون أمام تلك الألواح ، وهى تحمل نوحا - عليه السلام - فى رعاية ربه . والأمواج الصاخبة حوله لا تستطيع أن تصل اليه . فانه فى رعاية ربه . ورده يراه بنفسه !

وهكذا نرى السياق يبرز فى هذه القصة مشهد الحماية والرعاية والكرامة .

أما المشهد الآخر - مشهد الاهلاك والافراق - فيطويه طيا ويكتفى بالاشارة اليه : " فالتقى الماء على أمر قد قدر "

ثم تأتى الحلقة الثانية : قصة قوم عاد . وهذه القصة بأكملها تتل سو عاقبة المستكبرين كما أن القصة الأولى كانت عبارة عن تأييد الله للمرسلين .

فهى تنبه أن من يفترقوته يصرع صرعا فظيحا وما يستطيع من قيام ولو طرفة عين . فان جنود الله الجبارين يمرغون أنوف المستكبرين هما يلفت قوتهم ، وتلصق جياشهم بالتراب هما عظمت شوكتهم . فتلك عاد شمخوا بأنوفهم أمام ربهم " وقالوا من أشد منا قوة ؟ " (١) فسلط الله عليهم ريحا صرصر عاتية ، فألقتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل

خاوية :

"كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ؟ انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم

نحس مستمر .

تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ "

فترى أن القصة تذكر هلاكهم الفظيع بكل سرعة وإيجاز وتنتهى . ولا تتعرض
لشيء بعد هذا . ثم تأتى الحلقة الثالثة : قصة ثمود . وهى وان كانت فى لونها
العام شبيهة بقصة عاد ، إلا أنها متميزة منها من جهة ، فانها تحسب نذير
للكافرين على طلبهم آية العذاب . وتنبه على أن الأمة اذا طلبت آية المذاب ،
ثم هتكت حرمتها ، فلا تمهل بعدها . فالآية دائما تكون حسرة وندامة على من
يطلبها . ويكون موعد ظهورها هو موعد هلاك تلك الأمة :

"كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرنا واحدا ننبهه . انا اذا لقي ضلال
وسمر . ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من
الكذاب الأشر . انا أرسلوا لناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة
بينهم . كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فمقر . فكيف كان عذابسى
ونذرا انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن
للذكر فهل من مدكر ؟ "

ثم تأتى الحلقة الرابعة : وهى قصة قوم لوط . وهى وان كانت شبيهة بقصة
قوم نوح على طريق العمود على الهدى إلا أنها متميزة منها بحيث أنها تبشر بتنجيسة
المؤمنين وحسن جزاء الشاكرين ، فانها تصرح بتنجية آل لوط مع سيدنا لوط - عليه
السلام - علما بأن القصة الأولى لا تذكر الا نجاة نوح - عليه السلام - :

"وحطناه على ذات ألواح ودسر "

وكذلك هى تناولت هلاك المجرمين بنوع من التفصيل بينما القصة الأولى لم

تناوله الا باجمال وتلميح :

" كذبت قوم لوط بالنذر . انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط . نجيناهم
بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر .
ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبّهم بكرة
عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر . "

ثم تأتي الحلقة الخامسة : وهي قصة آل فرعون . وهي تنبيه الى أن وفرة
العتاد والأوتار أو كثرة الجيوش والجنود لا تغنى من صاحب الجلال والجيروت ،
فانه يقصف الطغاة ، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر :
" ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر "
الا أن هذه الحلقة تختلف عن أخواتها ، بحيث أنها ليست - في الحقيقة -
حلقة مستقلة . وإنما هي معبرة لطيفة للتخلص من حديث الفاهرين الى واقسح
الحاضرين .

ولذلك ترى الآيات والأذهان تتنذر بعد ذكر آل فرعون ذلك الترجيح
المألوف : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ "
فإذا بهأقد فوجئت بسؤال يهز الوجود ويريف القلوب :
" أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزور ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟
سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة مرعد بهم . والساعة أدهى وأمرأ . "

وقد نستأنس لهذا القول بأواخر سورة النجم حيث قال تعالى :
" وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل . انهم
كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفة أهوى . ففساها ما غشى . فبأى آلاء ريك تتمازي ؟ "
ومعلوم أن سورة القمر جاءت بعد سورة النجم . وهي تفصل بعض أمـسور
أجطت فيها . ومن ضمنها هذه القصص ، فانها ذكرت في سورة النجم اجمـالا ،
ثم فصلت في سورة القمر تفصيلا .

فترى أن سورة النجم ذكرت أربعة أم فقط . وهي الأمم التي ذكرت في سورة
القمر بالترتيب . ثم أضافت سورة القمر الى هذه الأمم أمة أخرى . ولكن بايجـاز
عجيب وبدون ترجيح .

ولا نرى لذلك سببا إلا ما أشرنا إليه سابقا . وهو أن السياق يجعل هذه
الصفة معبرة لطيفة للانتقال من حديث الخابرين الى واقع الحاضرين بشكـل
غائب * وثوى .

ولو كان هذا الانتقال بعد الترتيب لما أفاد السياق تلك القوة ، فان هذا
الترتيب - كما مرّنا - يصبح الجبر بلون الرأفة والرقّة .

وأیضا لو كان الانتقال مع الترتيب لغلّت العبارة من تلك المفاجأة ، التي
تهزّ النفوس هزّا ، وتلهوها عوفا ورعيا .

ثم هناك ظاهرة أخرى تميّز المشهد الأخير من أقرانه . وهي أن المشاهد
الأخرى جاءت مفصلة بعضها من بعض ، بحيث لا تربطها رابطة الوصل . فقال :

" كذبت قهلبهم قرم نون كذبت عاد كذبت شعوب

كذبت قرم لوط " بينما نرى المشهد الأخير جاء بواو الوصل فقال :

" ولقد جاء آل فرعون الذّار " .

وهذه لمحة طيبة الى أن المشهد الأخير يختلف عن بقية المشاهد في نوعيته
وبإيمته ودلالته . وتلك لطائف عجيبة من لطائف أسلوب القرآن ، بحيث يتمسك
لها الوجدان وتمتدّز لها هاسة الهيان . ولا يمكن العثور عليها - ولا شك - إلا بعد
ترداد النار في تصاريق المنام .

براعة الترتيب في القصص :

لا يخفى على الباحث أن القرآن ليس له عادة معلومة ، أو قاعدة متكررة فسي
ذكر القصص والأخبار ، بل له في ذلك مناج وأساليب في غاية الدقة .

فأحيانا يراعى ترتيبها في الزمان . وأخرى يعدل عنه الى ترتيب آخر تقتضيه

حكمة الهيان .

نأخذ - مثلا - سورة الصافات . فقد جاء فيها ذكر الرسل وذكر أقوامهم

على غير ترتيبهم في الزمان . فنذكر أولا نوحا - عليه السلام - وقومه فقال :

" ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم " (١)

ثم ذكر ابراهيم - عليه السلام - وقومه فقال :

" وان من شيعته لابراهيم . ان جاء ربه بقلب سليم . ان قال لأبيه وقومه

ماذا تعبدون ؟ " (٢)

ثم ذكر موسى - عليه السلام - وهارون - عليه السلام - وقومهما فقال :

" ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم " (٣)

ثم ذكر الياس وقومه فقال :

" وان الياس لمن المرسلين . ان قال لقومه ألا تتقون ؟ " (٤)

ثم ذكر لوطا - عليه السلام - وقومه فقال :

" وان لوطا لمن المرسلين . ان نجيناه وأهله أجمعين . الا عجزا فسى

لغابرين . ثم دمرنا الآخرين " (٥)

ثم ذكر يونس - عليه السلام - وقومه فقال :

" وان يونس لمن المرسلين . ان أبق الى الفلك المشحون " الخ (٦)

وكذلك نرى في سورة الذاريات . فقد ذكر فيها الأنبياء وقومهم على غير ترتيبهم

في الزمان . فذكر أولا ابراهيم - عليه السلام - وقوم لوط فقال :

" قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين " .

(١) سورة الصافات : ٧٥-٧٦ .

(٢) آية ٨٣-٨٥ .

(٣) آية ١١٤-١١٥ .

(٤) ١٢٣-١٢٤ .

(٥) ١٣٣-١٣٦ .

(٦) ١٣٩-١٤٠ .

ثم ذكر فرعون وجنوده فقال :
 " وفي موسى ان أرسلناه الى فرعون بسُلطان حين . فتولى بركنه وقال ساحر
 أو مجنون "

ثم ذكر عاداً فقال :

" وفي عاد ان أرسلنا عليهم الريح العقيم "

ثم ذكر ثمود فقال :

" وفي ثمود ان قيل لهم تمتعوا حتى حين "

ثم ذكر قوم نوح فقال :

" وقوم نوح من قبل . انهم كانوا قوما فاسقين "

وهكذا نرى القرآن لا يتهيج في ذكر الأنبياء وقومهم منها خاصة . بل يأخذهم

بتقديم وتأخير . ويذكرهم ، اذا ذكرهم ، حسبما توجه الحكمة ، وتفرضه الضرورة ،
 وتقتضيه البلاغة .

وهذه البلاغة لا يمتد الى اليها الا من يهتم بنظام الآيات .

والحاقم لا يتحمل أن يعم النقاش بجميع هذه الآيات . فلنرجع الى ما كنا فيه

من سورة القمر . ولننمّن النذر في ترتيبها في القصص . عسى أن ندرك فيه من
 البلاغة ما تسكن اليه النفس .

من المعلوم أن هذا الترتيب الذي نجده في هذه السورة جاء على وفق الزمان .

فذكر أولاً قوم نوح ثم عاداً ثم ثمود ثم قوم لوط ثم آل فرعون .

ولاشك أننا اذا مررنا على مصارع هؤلاء المستكبرين هكذا ، على ترتيبهم فسوف

الزمان ، حيث يتبع بعضهم بعضاً ، تمثلت لنا سنة الله التي عطت عملها دائماً .

وطلب على حسنا أن أي أمة من الأمم - على مدار التاريخ - حين ركبت مركب الكفر

والمصيبة ، ذاقته وبال أمرها . ونان عاقبة أمرها خسراً .

فهذا النظم له بـ وركبير في اعداد هذا الجو الرهيب المفزع .

والآية التي وردت بعد هذه القصص مباشرة ، قد نجد فيها نوعاً من التأييد

لهذا القول .

فانه لما تهيأ هذا الجو ، وتمنن من القلوب الروح ، تقدم النص خطوة أخرى .
وهز أعداء الله هزاً عنيفاً :

" أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براة في الزبر ؟ "

أى اذا كانت هذه سنة الله في الأمم . وكانت سنة قائمة دائمة على مر الزمان ،
بحيث لم تتركب أمة من الأمم هذا المركب الخشن الا جنت الندم . ودارت عليها
دائرة المحن . فما بالكم ياطغام الأعلام ، حتى أنتم على أنفسكم ، وتجراتم على
ربكم ؟ !

أنتم خير من أولئك ، فلا تمسكم نفحة من عذاب ربكم ؟ أم كتب لكم ربكم
صك البراءة ، فلا تقطفون ثمار كفركم ؟ !

ولمثل هذا النظم نظائر أخرى في القرآن . ولكن الأمر ليس بحاجة الى أن

نفيض فيه الكلام .

براعة المقطع:

وأخيراً نأتى على مقلع السورة ، فانه غاية في الحسن والبرعة :

" ان المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر "

ولكى ندرك روعة هذا المقطع لا بد أن نضع في اعتبارنا ذلك الجو الرهيب

السكهر ، الذى يسود هذه السورة ، الذى مرنا عليه قبل قليل .

ويزيد هذا الجو شجها حين تستقبلنا هذه الآيات :

" ان المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم . ذوقوا

مس سقر . انا كل شي خلقناه بقدر . وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر .

ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر ؟ وكل شي فعلوه في الزبر . وكل صغير

وكبير مستطر .

يا الهول المصير ! ! وبالخطورة الموقف ! !

" كل شي فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر "

فكان هذا المذاب الهئيس ، الذي دمرهم ومزقهم وجعلهم كهشيم المحتظر ،
لم يحسب في حسابهم ولم ينقص من أوزارهم . بل كل صغير وكبير مسطور في زبر أعمالهم .
وهم سيحاسبون عليه واحدا بعد واحد .

والنتيجة معلومة . فهم يسحبون في النار على وجوههم . وكل شيء

حولهم يسخر منهم ويقرعههم : " ذوقوا أيها السامدون ، ذوقوا من سقرا " .

في مثل هذا الجو العبوس التملطير ترد هاتان الآيتان :

" ان ^{المتقين} في جنات ونهر . في مقعد صدق عند طيكم مقتدر " .

بالروعة هذه الكلمات في هذا الجو القاتم ! فلعمري انها لأروع من كوكب

درى يضيء في ليل بهيم . وهي أعلى في نفس المؤمن من كل كنز ثمين ، ومن كل
سعة ونعيم .

وتزيد روعة هذا المقطع وترتفع عين نتوسع قليلا ، ونتنسم وبعوه الرطب بين هذه

السورة وبين جارتيهما القريبتين ، نحى سورة النجم وسورة الرحمن .

سورة النجم - كما يظهر من سياقها - رد وإبطال للشفاعة الباطلة ، التي

كان يحلم بها المشركون . فانهم كانوا يعبدون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .

وكانت هذه - عندهم - أسماء الملائكة . وقد سماوا الملائكة تسمية الأنثى زاعمين

أنهم بنات الله ! والعيان بالله .

وكانوا يزعمون أنهم بحبادتهم هذه يكسبون رضا الملائكة . فهم يشفعون لهم

عند الله . ويدفعون عنهم الهلاك والشقاء . ويحيطون عنهم أوزارهم يوم القيامة .

فجاءت هذه الآيات تفندهم فيما زعموا ، معتمدين على الخلق والهوى :

" أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك

إذا قسمة ضيزى . ان هي الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم . ما أنزل الله بها من

سلطان . ان يتبعون الا الدين وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

أم للانسان ما تمنى . فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم

شيئا ، الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ان الذين لا يؤمنون
بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم . ان يتبعون الا الظن .
وان الظن لا يفتى من الحق شيئا * (١)

ثم نبههم السياق أن الله هو الذى يملك الأرض والسماء . وهو المتصرف
فى الكون . يتصرف فيه كيف يشاء .

ثم هو الذى يتولى بنفسه الجزاء . فليس لأحد أن يتدخل فى قضاءه اذا قضى .

* فلا تزور وزارة وزر أخرى . وليس للانسان الا ما سمى *

والتاريخ حافل بالحوادث والعبر لمن أراد أن يعتبر . فقد مضت أمم لم تتعلق

بأهداب الممل . وزعت أن هناك من يشفع لها عند الله . فجرت أذيال اليأس
والشقاء . وما أغنت عنها شفاعة الشفعا * ألم يشهد التاريخ :

* أنه أهلك عاد الأولى . وشمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل . انهم نادوا

هم أظلم وأطغى . والمؤثقة أهوى . ففشاها ما نشئ * (٢)

فأين كان أولئك الشفعا ، ان كانوا يملكون الشفاعه ، أو كانوا يعظمون

لهم ضرا أو نفعا ؟ ثم جاءت سورة القمر . وفصلت هذه الصارع بأسلوب ينطلق

بقدره الله وملكه وتفرد به بالسندان دون غيره . فله الملك وله الحكم . يعطكم ما يشاء

ويعفل ما يريد . يبدل الليل نهارا وينتصر من الغداة . يأخذ من يشاء أخذ عريس

مقدر .

ثم هذا ليس نهاية المطاف . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . فهم

يسحبون فى النار على وجوههم ولا يجدون لديهم من يشفع لهم أو يخفف من عذابهم .

اما المتقون . فهم ينصمون اليوم ويفرحون :

* فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر *

(١) سورة النجم ١٩ - ٢٨ .

(٢) سورة النجم ٥٠ - ٥٤ .

فاليوم يومهم والطيك مليكهم .

فهم اليوم في عز وسرور ، وسعادة وخبور .

والطيك يتوجهم تاج العز والكرامة . ويخلع عليهم ملابس الشرف والسعادة .

ويرفع من شأنهم ويرفع ، حتى يجلسهم حول عرشه ، وينزلهم في كنفه .

فانهم عرفوا لصاحب الطيك ملكه . وعشمو له وسجدوا ، وأوذوا في سبيلسه

نصبروا . وقتلوا وقتلوا . أما الذين عدلوا عن الطيك . وتملقوا بأهداب الشفخاء ،

فلهم الويل كل الويل . فهم أسغطوا الطيك . ولم ينفصمهم البديل .

وما أروع مشهد المتقين حيث ينعمون * في جنات ونهر . في مقعد صدق

عند مليك مقتدر * ، اذا قسناه الى مشهد الكفار ، وهم يسحبون في النار . يسحبون

على وجوههم . وكان الملائكة الذين كانوا يحلمون بشفا عنهم يتبرؤون منهم ويحنقونهم :

* ذوقوا من سقر ! *

ثم تد هشنا روعة هذا المقطع من ناحية أخرى ، اذا وضعناه في جنب سورة

* الرحمن * .

تفصيل ذلك أن سورة القمر تدلج بلهيب الانذار . فقد تكررت فيها كلمة "الندار"

و "الانذار" اثنتي عشرة مرة وتكررت كلمة "العذاب" سبع مرات .

وهذا شي * يخص سورة القمر . فانك لا تجد تكرار هاتين الكلمتين بهكذا

القدر في أي سورة من السور . ثم تجيى * سورة الرحمن . وهي سورة تلونها الرحمة

والنعمة والانعام والاحسان . فهي استهلكت بكلمة "الرحمن" . وتنفست في ذكر

آلاء الرحمن . حتى أن كلمة الآلاء * تكررت فيها احدى وثلاثين مرة .

ثم نصفها الأخير كلها روح وريحان . وهور وجنان . هرد وسلام . وانعام

واكرام .

فانظر أن هذا المقطع كيف يجمع بين النياتين . وأصبح معبرا لطيفا انتقل

عليه الكلام من لهيب الانذار الى آلاء الرحمن .

هذه اشارات سريعة ولمحات خاطفة الى محاسن هذه السورة ورواعمها البلاغية .

وكلها مستنبطة - كما رأيت - من نظام الآيات . فله الحمد والمنة على ما هدانا

اليها . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ولعل هذا القدر يتقينا للاقتناع بأن هناك جوانب وأطرافاً من البلاغة ، لا يطلع عليها الا من يتأمل في نظام الآيات . ويربط المعاني بعضها برقاب بعض . لقد كنا نقرأ في كتب السيرة أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليفاً بنى زهرة ، خرجوا ليلسة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلى من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه .

فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : " لا تصودوا . فلو رأيكم بعض سفهاكم لأوقعتكم في نفسه شيئاً " . ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم الى مجلسه . فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : " لا تصودوا " . ثم انصرفوا .

حتى اذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : " لا تصودوا " . فتصادوا على ذلك ثم تفرقوا . (١)

لقد كنا نقرأ هذه القصة وأمثالها في كتب السيرة . فكنا نتحير أن هؤلاء الأعداء - مع شدة عداوتهم وحققتهم على الاسلام - كيف كانوا يحرضون على سماع القرآن ؟ وما الذي كان يسوقهم اليه سوقاً في جنح الظلام ؟ وكيف كانوا يؤخذون بروعة آياته وجمال أسلوبه ؟ مع أن العداوة تحمى العميون وتعم الآذان .

(١) الروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ٦٦ .

ولكن لم يطل بنا الزمان ، بعدما تعرفنا على فكرة النظام ، حتى انقشمت عنا
 الحيرة . وعرفنا أنّ هذا القرآن ينطوى في نظام آياته ورياط معانيه على عالم عجيب
 من الروعة والجمال ، بحيث لا يكاد يصبر عنه من يتذوق اللسان ، ولو قد جعلتسه
 العداوة من أعمى الحميان .

فسبحان ربنا الرحمن . الذي كرّمنا بهذا القرآن . وفضلنا به على سسائر
 الأنام .

الفصل السابع

الميزة السابعة

رعاية النظام تفتح على الانسان ما تقر به عينه ويستتير به قلبه ، وتورثه
برد اليقين ، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع .

الشاهد على هذه الميزة :

ويكفينا شاهدا على هذا ما رواه أصحاب السير في تصطب أبي بكر
- رضى الله عنه - واصراره على قتال قوم امتنموا عن الزكاة ، مع أن فضلاء الصحابة
قاطبة لم يوافقوه أولا في هذا القرار . وأرادوا صرفه عنه الى اتخاذ موقف الملاينة
ممنهم . ولكنه رضى الله عنه لم يفتح برأيهم ، وصمم على اقامة علم الشهبان ،
ونظم جيشا كبيرا لتأديب هؤلاء المارقين . واليك ما رواه ابن كثير - رحمه الله -
في هذا الموضوع :

" وجمعت رفيد الحرب تقدم المدينة ، يقرؤون بالصلاة ويمتنعون من أداء
الزكاة ومنهم من استنح من دفعها الى الصديق

" وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وماهم عليه من منع الزكاة .
ويتألفهم حتى يتمكن الايمان في قلوبهم ، ثم بعد ذلك يزكون . فاستنح الصديق
من ذلك وأباه .

وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن أبي هريرة أن عمر بن
الخطاب قال لأبي بكر :

علام تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

فاذا قالوها عصوا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها .

فقال أبو بكر :

والله لو ضمنوني عناقا - وفي رواية عقالا - كانوا يؤءونه الى رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - لأقاتلنهم على منعبها . ان الزكاة حق المال . والله
 لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . " (١)

ولا يمكن تفسير هذا الموقف الصارم الجازم ، الذي وقفه أبو بكر في شأن
 ما نعى الزكاة - مع كونه وحيدا متفردا برأيه - الا بأنه كان يمتد في رأيه هذا
 على نظم القرآن . فاذا ثبت له شئ من نظم القرآن فماذا يضره ان يبقى وحيدا
 متفردا لا يوافقه أحد من الناس !
 ولقد أشار - رضى الله عنه - الى سبب اصراره على موقفه مع عدم تأييد الناس له ،
 فقال :

" والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة "

أى ما يكون لئان نفرق بين الصلاة والزكاة ، مادام ان الله لم يفرق بينهما
 في وحيه وقرن بينهما في تنزيله .

فاذا كان تارك الصلاة يمتدحها عن الاسلام ، وكان صاح القتال
 فلا بد ان تطبق نفس الحكم على مانع الزكاة ، ونظرا ليهبتك النظرة ، فانه لا يعقل
 ان نفرق بينهما في الحكم ان لم يفرق الله بينهما في الذكر .

فسيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - اسطهم موقفه من نظم القرآن . ولا شك
 أنه كان أعلم الناس بنظم القرآن .

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣١١

وهذا الشيء أورثه الثقة بصحة رأيه وسداد خطوته . وأورثه برد اليقين ،
الذى لا يزول ولا يتزلزل عن مكانه .

شاهد آخر :

ونرى مثل هذا الوضع فى سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمع الأنصار
وأرادوا أن يختاروا لهم أميراً منهم حتى قال قائلهم :
" أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . منا أمير ومنكم أمير يا ممشر
قريش " (١)

حتى كثر اللفظ واحتمد النقاش . وكان أن يتفاهم الأمر ويتسع الخرق .
فى مثل هذا الوضع الدقيق والموقف الخطير قام فيهم سيدنا ابوبكر - رضى
الله عنه - حتى يمداركهم قبل فوات الأمر . فقال فيما قال :
" أيها الناس ، نحن المهاجرون . أول الناس اسلاماً أسلمنا
قبلكم وقدّنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى :

" والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان " (٢)
فنحن المهاجرون وأنتم الانصار ، اخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفيق " (٣)
استهبط سيدنا ابوبكر - رضى الله عنه - أولوية المهاجرين وأحقّيتهم
بالأمانة من نظم القرآن فقال : " وقدّنا فى القرآن عليكم "

فظهر له الأمر كقلق الصبح . فاقتنع وأقنع . وأيقن وأيقن معه الجميع .

(١) الروض الأنف للسهيلى - رحمه الله - ٢٦٢/٤

(٢) سورة التوبة آية ١٠٠

(٣) جمهرة خطب العرب ١/٦٣

وغفتت أمام صوته الأصوات التي كانت تشوش الأذهان . وتأخذ باهتمام الكثيرين :
وأصبح هذا القول المستهبط من نظم القرآن هو القول الفيصل الحاسم
ليوارد الخلاف .

فاجتمع عليه الناس . واجتمعت عليه الأنصار . واستقر عليه الأمر .
ونامت هذه الفتنة الى الأبد .

وأيقن الانصار بما استلهمه ابو بكر - رضى الله عنه - من نظم القرآن
بحيث لم يتزلزل يقينهم هذا ولم يتزعزع . فلم يعودوا لعاقله أول مرة . ولم
يعودوا لتلك الخلافات أبدا .

هذان مثالان . وفيهما كفاية ومقنع .

ولو شدنا لأوردنا بخصوص تلك المزية أسئلة أخرى ، يتلو بعضها بعضها :
ولكن ليس من الرأي أن نستنفد الجهد ، وقد خرج الحوض عن الزبد ، فإنه
استنفاد الجهد بلا جدوى . والحبر العاقل يستكف عن ذلك ويأبى .

الفصل الثامن

المزلة الثانية

رعاية النظام هي التي تمكّن من فهم أسباب النزول . ولكن الذي يغفل عن النظام يتحير في فهمها ، ويضعها في غير موضعها ، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها .

بيان ذلك أن أسباب النزول ، التي وصلت إلينا عن طريق الرواية لا تكون دائما هي السبب الحقيقي لنزول الآية . بل كثيرا ما تكون تطبيقا للآية على الواقع .

أقوال في سبب النزول :

يقول الامام الزركشي - رحمه الله - في البرهان :

" وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم اذا قال نزلت هذه الآية في كذا ، فانه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها . وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من العرف العسند كما في قول ابن عمر في قوله - تعالى - :
 " نساؤكم حرث لكم " وأما الامام أحمد فلم يدخله في المسند وكذلك مسلم وغيره . وجعلوا هذا ما يقال بالاستدلال والتأويل . فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع " (١)

وقال ابن تيمية - رحمه الله - :

((قولهم " نزلت هذه الآية في كذا " يراد به تارة أنه سبب النزول . ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وان لم يكن السبب كما نقول : عن بهذه

الآية كذا .

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي : " نزلت هذه الآية في كذا " ، هل
يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجرى مجرى
التفسير منه ، الذي ليس بمسند ؟ فالبخاري يدخله في المسند . وغيره لا يدخله
فيه . وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند احمد وغيره))

سؤال في سبب النزول :

فإذا كانت أسباب النزول - على ما ذكره هؤلاء الأعلام - بحيث
أنها لا تترجم دائما عن السبب الحقيقي لنزول الآية أو السورة . هل كثيرا ما تكون
من قبيل التفسير أو التطبيق للآية على ما وقع ، فكيف نصرف أحد النوعين من
الآخر ؟ وكيف نحكم على ما نحكم عليه بأنه سبب حقيقي لنزول الآية أو السورة ،
أو من جنس التفسير أو الاستدلال على الحكم بالآية ؟

الرد على هذا السؤال :

لقد وقف على هذا السؤال الامام السيوطي - رحمه

الله - وقال بعدما أفاض فيه الكلام :

" تأمل ما ذكرته لك في هذه المسألة ، واشدد به يدك ، فاني حررتّه

واستخرجته بفكرى من استقراء صنيع الأئمة ومتفرقات كلامهم ولم أسبق اليه " (١)

فلننظر كيف عالج هذا الامام - رحمه الله - تلك المشكلة ، فان وثوقه

(١) الاتقان في علوم القرآن ١ / ٢٤

من كلامه يشيرنا بأنه غلب عليها ، وجاء لها بحلول ناجحة رائعة . يقول - رحمه الله :-

(١) كثيرا ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسبابا متعددة . وطريق الاعتماد فى ذلك أن تنظر الى العبارة الواقعة . فان عبر أحدكم بقوله : نزلت فى كذا ، والآخر نزلت فى كذا ، وذكر أمرا آخر فقد تقدم أن هذا يراد به التفسير ، لا ذكر سبب النزول . فلا منافاة بين قولهم ما اذا كان اللفظ يتناولهما .

(٢) وان عبر واحد بقوله : نزلت فى كذا . وضح الآخر بذكر سبب خلافه فهو المعتمد كما قال ابن عمر فى قوله تعالى : " نساؤكم حرث لكم " أنها نزلت رخصة فى وطء النساء فى أديارهن ، وضح جابر بذكر سبب خلافه ، فاعتمد حديث جابر .

(٣) وان ذكر واحد سببا ، وآخر سببا غيره فقد تكون نزلت عقب تلك الأسباب كما سيأتى فى آية اللعان .

(٤) وقد تكون نزلت مرتين كما سيأتى فى آية الروح ، وفى غواتيم النمل وفى قوله : " ما كان للنبي والذين آمنوا " الآية

(٥) وقد يعتمد فى الترجيح النادر الى الاسناد وكون راوى أحد السببين حاضر القصة ، أو من علماء التفسير كابن عباس وابن سمعود .

(٦) وربما كان فى إحدى القصتين " فتلا " فوهم الراوى فقال " نزلت " كما سيأتى فى سورة الزمر " (١)

(١) لهاب النقول فى أسباب النزول ص ١٥-١٦

تلك هي ست نقاط ذكرها الامام السيوطي - رحمه الله - في كتابه
 " لباب المنقول في أسباب النزول " لعلاج هذه المشكلة . وتلك النقاط
 هي نفسها التي ذكرها في كتابه : " الاتقان في علوم القرآن " مسج
 فرق يسير وشيء من التفصيل .

نقاط لا تفي بالحاجة :

ونحن نعترف للامام السيوطي - رحمه الله - بفضله وأسبقية فني
 هذا المضمار . حيث أنه بذل جهده لتذليل هذه العقبة . وجاء لنا بنقاط قد
 تساعدنا في حل هذه المشكلة ولكن مع هذا كله فالأمر ما زال بحاجة الى بحث
 ودراسة ، فان هذه النقاط لا تفي بالحاجة كلياً ، ولا تحسم المشكلة نهائياً .

وانما هي تفيد أحيانا وأحيانا تفقد من المشكلة عاجزة .
 ولا يمكننا في هذه المجالة أن نتكلم على جميع هذه النقاط واحدة واحدة ،
 فنأخذ - على سبيل المثال - احد من تلك النقاط ، وهي النقطة الثانية ،

ونرى من الأفضل أن نضيف الى العبارة التي مضت معنا من " لباب المنقول "
 عبارة " الاتقان " حتى يزداد الأمر وضوحا . يقول - رحمه الله - :

" وان عبر واحد بقوله نزلت في كذا ، وصرح الآخر بذكر سبب خلافه
 فهو المتمد . وذاك استتباط . مثاله ما أخرجه البخاري عن ابن عمر ، قال :
 " أنزلت نساؤكم حرث لكم " في اتيان النساء في أدبارهن . وتقدم عن جابر
 التصريح بذكر سبب خلافه فالمتمد حديث جابر لأنه نقل . وقول ابن عمر
 استتباط منه . وقد وشمه فيه ابن عباس . وذكر مثل حديث جابر كما أخرجه
 ابوداود والحاكم . " (١) .

سبب نزول الآية : " نساؤكم حرث لكم " :

- ثم يذكر لنا الامام السيوطي - رحمه الله - سبب نزول هذه الآية فسي
- " ليا ب النقول " بشي " من التفصيل حيث يقول :
- (١) قوله تعالى : " نساؤكم حرث لكم " ، الآية . روى الشيخان وأبو داود
والترمذي عن جابر . قال : كانت اليهود تقول : اذا جامعها سن
ورائها جاء الولد أحول . فنزلت : " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم
أنى شئتم "
- (٢) وأخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس قال جاء عمر الى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، هلكت . قال : وما أهلكك ؟ قال :
حولت رحلي الليلة ، فلم يردّ علي شيئا ، فأنزل الله هذه الآية :
" نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم " أقبل وأدبر واتق الدهسر
والحيضة .
- (٣) وأخرج ابن جرير وأبو يعلى وابن مردويه من طريق زيد بن اسلم عن علي
ابن يسار عن أبي سعيد الخدري : أن رجلا أصاب امرأة في دبرها
فأنكر الناس عليه ذلك فأنزلت :
" نساؤكم حرث لكم الآية "
- (٤) وأخرج البخاري عن ابن عمر قال : أنزلت هذه الآية في اتیان النساء
في أدبارهن .
- (٥) وأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عنه قال : انما أنزلت على رسول
الله - صلى الله عليه وسلم " نساؤكم حرث لكم " رخصة في اتیان الدبر .
- (٦) وأخرج أيضا عنه أن رجلا أصاب امرأة في دبرها في زمن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فأنكر ذلك الناس . فأنزل الله : " نساؤكم حرث لكم " .

(٧) وأخرج ابوداود والحاكم عن ابن عباس قال : ان ابن عمر - والله
يفخر له - وهم .

انما كان أهل هذا الحمى من الأنصار وهم أهل وثن ، مع هذا الحمى
من يهود ، وهم أهل كتاب . كانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم . فكانوا
يقصدون بكثير من فعلهم . وكان من أمر أهل الكتاب أنهم لا يأتون النساء الا على
حرف . وذلك أستر ما تكون المرأة ، وكان هذا الحمى من الأنصار قد أخذوا
بذلك . وكان هذا الحمى من قريش يشرحون النساء شرها ويتلذذون منهن مقبلات
ومدبرات ومصطفيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من
الأنصار . فذهب يصنع بها ذلك فأكره عليه . وقالت انما كنا نؤتى على
حرف . فسرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله :

” نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ”

أى مقبلات ومدبرات ومصطفيات ، يعنى بذلك موضع الولد .

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى :

السبب الذى ذكره ابن عمر في نزول الآية مشهور . وكان حديث

أبي سعيد لم يبلغ ابن عباس ، ولفه حديث ابن عمر فوجهه فيه (١)

انتقض قول السيوطى - رحمه الله - بقوله :

تلك هى الروايات التى ذكرها الامام السيوطى في سبب نزول تلك الآية .

وعلى هذا فينتقض قوله بقوله ، فان تلك الروايات - أعنى الرواية الثانية والثالثة

والسادسة - تقول أن ما قاله ابن عمر ليس استنباطاً منه . وإنما هو تصريح يذكر سبب خلاف ما ذكره جابر ، فإنه لا يفسر الآية من عنده ، وإنما يمتد في قوله على ما حدث فعلاً فنزلت عليه الآية .

ولعل الحافظ ابن حجر - رحمه الله - كان يريد أن ينبّه على هذه النكتة حيث قال مقاله الذي سبق معنا .

فإذا اجتمع هذان السببان لنزول هذه الآية ، وكلاهما قويان ووجيهان ، فما الذي يحكم بينهما ؟ وهل نأخذ واحداً منهما دون الآخر ؟ أم نجتمع بينهما ونفسر الآية بكليهما ؟ أم ماذا نفعل ؟

الحق أن أى نقطة من تلك النقاط الست لا تحضرنا الآن لتحل هذه المشكلة وتتقدنا من هذه الورطة .

فما الحيلة إذا ؟ وما هو الطريق لعلاج هذه المعضلة ؟ الموقف يفرض علينا بكل صراحة وجدّ أن نرجع إلى النظام ، فإنه هو الذى يحلّ هذه العقدة . ويكشف لنا الأمر بعدما أصبح علينا غمة .

تأمل فى نظم الآية :

فالآن نرجع إلى الآية مباشرة حتى نندبرها ونستلهم معناها فى ضوء نظمها .

يقول الله - تبارك وتعالى - :

" ويسألونك عن المحيض . قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض . ولا تقربوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب المتطهرين . نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم . وقد سألوا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملائقوه ومشر المؤمنین " (١)

حين نذكر هاتين الآيتين نخلص الى الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى : أمر الله - تعالى - باعتزال النساء في الحيض . ونهى عن غشيانهن قبل أن يطهرن . وهذا الحيض وهذا الطهر لا علاقة لهما بالدهر . فالأمر باعتزال النساء في الحيض ، وحظر غشيانهن قبل الطهر تصریح بأن موضع الغشيان واحد لا غير ، فهجوز الغشيان اذا كان موضعه صالحا وقابلا للغشيان والآن فلا .

الحقيقة الثانية : رخص الله - تعالى - في الاتيان بعد الطهر بشرط أن يكون هذا الاتيان من حيث أمر الله :

" فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله "

والمراد بهذا الأمر هو الأمر التكويني . أي فاتوهن من المأني السدى برأ الله - تعالى - الفطرة على السبل اليه . وضحت سنة بحفظ النوع به وهو موضع النسل . (١)

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فاتوهن من حيث أمركم الله) يقول : في الفرج ولا تمدوه الى غيره فمن غسل شيئا من ذلك فقد اعتدى . (٢)

الحقيقة الثالثة : " ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " والمراد بالتوابين المتطهرين في هذا السياق هم الذين يذكرون ربهم ويخافون سخطه . ولا يلوثون فطرتهم السليمة النظيفة الطاهرة بأن يستلمسوا

(١) انظر تفسير المنار ٢ / ٢٦٠ ، ٢٦١

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦٠

لسلطان الشهوة ويسترسلوا لنزوة الجسد المعارضة . وياتوا نساءهم نفسى
 زمن المحيض أو فى غير المأتى الذى أمر الله به .

هوؤلاء الذين يسميهم الله التوابين المتطهرين ويرضى عنهم . والثالثى
 هو ييفرض الذين يغالفون هذا الحكم ، ولا يهتّمهم الا أن يحققوا لذتهم
 الحيوانية كيفما اتفق .

الحقيقة الراهمة : " نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم " أى النساء حرث
 لكم وليست لهن ولا علالة تتعللون بها . وما دام أنهن حرث لكسهم
 فأتوهن كيفما شئتم ، ولكن بشرط أن يكون هذا الاثيان فى موضع
 الاخصاب الذى يحقق غاية الحرث .

يقول صاحب المنار - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية :
 " بين فى الآية السابقة حكم المحيض ، وأحل غشيان النساء بمصده .
 وبين فى هذه الآية حكمة هذا الغشيان ، التى شرع الزواج لأجلها
 وكان من مقتضى الفطرة ، وهى الاستنتاج والاستيلاد ، لأن الحسرت
 هو الارض التى تستتبت ، والاستيلاد كاستتبات . وهذا التعبير على
 لطفه ونزاهته وبلاغته وحسن استعارته تصریح بما فهم من قوله عز وجل
 " فاتوهن من حيث أمركم الله " أو بيان له . فهو يقول أنه لم يأمر
 باتيان النساء الأمر التكوينى الا لأجل حفظ النوع البشرى بالاستيلاد كما
 يحفظ النبات بالحرث والزرع . فلا تجعلوا استلذان المباشرة مقصودا
 لذاته فاتوا النساء فى المحيض حيث لا استعداد لقبول زراعة الولد وعلى
 ما فى ذلك من الأذى . وهذا يتضمن النهى عن اتيانهن فى غير المأتى
 الذى يتحقق به معنى الحرث .

وقوله - تعالى - : " أنى شئتم " معناه كيف شئتم " وأنى " تستعمل
 غالبا بمعنى " كيف " وتستعمل بمعنى " أين " قليلا . ولا يظهر هنا

لأن الحرث له مكان واحد لا يتمداه ، والأمر مقيدٌ به . ولذلك أعاد ذكر الحرث مظهراً ولم يقل " فأتوهن أنى شئتم " فكانه يقول :

لا حرج عليكم في اتيان النساء بأي كيفية شئتم مادتم تقصدون بها الحرث في موضعه الطبيعي ، لان الشارع لا يقصد الى اعنائكم ومنعكم من لذاتكم ، ولكن يريد ليقفكم عند حدود المصلحة والمنفعة كيلا تضيعوا الأشياء في غير مواضعها فتفوت المنفعة وتحل محلها المفسدة * (١)

الحقيقة الخامسة :

" فأتوا حرثكم أنى شئتم " هذه العبارة وان كانت - في ظاهرها - تفيد الاطلاق والتعميم ، ولكننا حين نأخذها في سياقها نجد أن الهدف ليس هو التعميم بشكل نجده في سبب نزول هذه الآية ، حتى نقول : انها جاءت لتبيح شرح النساء شرها وتفيد اتيانهن مقيلات ومدببرات ومصطقيات ، فان العبارة التي جاءت بعد هذه العبارة لا تلامس هذا الجو بل هي تصرف الكلام الى جو آخر . تدبر معنى هذه التحذيرات :

" وقد موا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنین "

يقول صاحب "الذلال" ويؤيصر هذه الآية :

" وفي الوقت ذاته تذكروا الغاية والهدف . واتجهوا الى الله فيه بالعبادة والتقوى فيكون عملاً صالحاً تقربونه لأنفسكم ، واستيقنوا من لقاء الله ، الذي يجزيكم بما قدمتم .

ثم يختم الآية بتبشير المؤمنين بالحسن عند لقاء الله . وفي هذا الذي يقدمونه من الحرث . فكل عمل للمؤمن خير وهو يتجه فيه الى

الله . " (٢)

(١) تفسير المنار ٢ / ٣٦١ ، ٣٦٢

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ١٨٩

فهذا السياق وهذا الجوّ - الذي تلوّنه التقوى وتذكر الآخرة واستشمار
 لقاء الله واحساس المسؤولية أمام الله - هذا السياق وهذا الجوّ لا يسمح لنا
 بأن نفسر الآية بما فسّر به عامة المفسرين ، من أنها جاءت لتؤكد للمهاجرين
 ما لوفهم في أمر النساء . وإنما نرى ما نرى في الآية من لون التعميم في مقابل
 التخصيص الذي سبق هذا التعميم حيث قال :

" فاعتزلوا النساء في المحيض . ولا تقربوهن حتى يظهن . فإذا تطهرن
 فأتوهن من حيث أمركم الله "

فهذا التعميم في مقابل ذلك التخصيص يعنى اشعار المسلمين بأن ربهم
 - ان أمرهم باعتزال النساء في المحيض وأمرهم بأن يأتوهن من حيث أمرهم -
 ما أراد ليجعل عليهم من حرج ولكن أراد ليظهرهم وليتم نعمته عليهم .
 فهو لم يمنع عنهم الا ما هو أمر لهم ويطلب الضرر عليهم والا في حساب
 السعادة والهناء مفتوح أمامهم . فليدخلوا فيه كيفما شاؤوا . وليتصرفوا فيه
 كيفما شاؤوا .

فهذه الآية - في طبيعتها وفي ايحاءاتها - تشبه الآية التي جاء في
 سورة المائدة بعد ما أمرهم الله بأشياء ونهاهم عن أشياء فقال :
 " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته
 عليكم لعلكم تشكرون " (١)

وهكذا قال في سورة البقرة ، بعد ما أمر بالصيام وذكر شيئا ما يتعلق
 به من الأحكام :

(١) سورة المائدة آية ٦

" يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكفروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون " (١)

نظرة على سبب النزول في ضوء هذا النظم :

ومعد ما اتضح لنا نظم هذه الآية لم يعد عسيرا علينا أن نفهم ما روى

لنا في سبب نزولها .

فرواية جابر - رضى الله عنه - التى تقول : كانت اليهود تقول :

" اذا جاءها من ورائها جاء الولد أحول . فنزلت : " نسأؤكم حسرت

لكم فاتوا حرسكم أنى شئتم "

هذه الرواية لا تترجم عن السبب الحقيقى لنزول هذه الآية . بل هى من

مضمونات هذه الآية . فالآية تلقى ضوءا على هذه القضية . وتفيد أن ما نقله

اليهود قول لا يلتفت اليه فان المهم هو أن تلقى البذرة فى منبتها . فان وصلت

البذرة الى منبتها فلا يضر ان ألقيت من اليمين أو من الشمال .

أما كون الولد أحول أو غيره فهو موكول الى شيلة الزارع أو العنبت . وهو

الله - ولا تأثير فيه لأى شىء آخر .

فالآية تتمم فى هذه القضية . أو تحسم هذه الشبهة . ولكن لا نقول :

انها نزلت لهذا السبب بالذات .

فكلمة " نزلت " فى هذه الرواية جاءت فى المعنى الذى أشار اليه الامام

الزركشى - رحمه الله - حيث قال :

* قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم اذا قال : نزلت هذه الآية في كذا فانه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها . (١)

وكذلك نقول في رواية ابن عباس - رضى الله عنه - .
ورواية ابن عباس نفسها تؤيد بصيغتها ما نقول . فقد جاء فيها :
" فسرى أمرهما . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل
الله : نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم "

جاءت ثلاث جعل مطوفا بعضها على بعض بحرف " الفاء " " فسرى - فبلغ
فأنزل " " والفاء " - كما هو معروف - تدل - في أصلها - على الترتيب
مع التعقيب . أى حصلت هذه الأفعال كلها على الترتيب بدون أن يكون
بينها فاصل من الزمان .

فكان أن انتشر هذا الخبر . فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم -
فتلا هذه الآية وكانت قاضية بين الزوجين ، وحاسمة لما حصل بينهما من خلاف .
والا فالوحي ما كان ينزل هكذا مباشرة بعد كل حادث يحدث . خاصة
والأمر لم يكن بتلك الدرجة من الخطورة .

وأیضا لو كانت الآية قد نزلت في تلك القضية بالذات ، لم يكن السراوى
لمیصرح في الرواية بسرمان الأمر وولوجه الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فان نزول الآية لم يكن يتوقف على ذلك . والذي ينزل الآيات يعلم كل شئ
قبل أن يعلمه الناس . ويعلم كلما خفي ودق ويعلم السر وأخفى .

(١) الهرهان في علوم القرآن ١/٣١، ٣٢

فالتصريح بسرمان الأمر وبلوغه الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 يشير الى أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو الذى تولّى هذا الأمر وقضى
 بينهما . وتلا هذه الآية . وكانت الآية قد نزلت قبل أن تحدث هذه
 الحادثة .

أما رواية الطبرانى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال :

" إنما أنزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " نساؤكم حرث لكم "
 رخصة فى اتيان الدبر " فالامام السيوطى - رحمه الله - يصرّح بأنها جاءت بسند
 جيد ، مع التمليق عليه بأن " قول ابن عمر استتباط منه . وقد وصّته فيه ابن
 عباس . "

ومعبارة أخرى فالامام السيوطى - رحمه الله - يعترف بوجاهة هذه الرواية
 من جهة السند ، ولكنه لا يعترف بصحة مضمونها ، بدليل أنه استتباط ناتج
 من الوهم .

ولكن الاطلاع على نظم تلك الآيات يجعلنا نجزم بأن هذا افتراء على
 ابن عمر . وسيدنا ابن عمر برىء منه .

علما بأن هناك من الروايات ما يصرّح بخلاف ذلك . ويصرّح أن ابن عمر
 - رضى الله عنه - كان يرى تكفير من يتعمد ذلك . (١)

وان كانت تلك الرواية جيّدة من جهة السند - على حسب قول السيوطى
 - رحمه الله - فهي رديلة من جهة المتن .

(١) انظر " المحرر الوجيز " للقاضى بن عطية الأندلسى ١٨٣/٢

وكم من متون واهية رديئة ركبت عليها أسناد جيدة قوية !
 وأيضاً فالأمر لا يخلو من احتمال أن تكون هذه الرواية معلولة من جهة
 السند . ولكن السيوطي - رحمه الله - لم يذكر السند . ومصدر هذه الرواية
 غير متوفر تحت اليد ، فليس أمامنا إلا أن نحصر الكلام عليها من جهة المتن .
 ولا ندري كيف يتصور عن ابن عمر - رضى الله عنه - مثل هذا القول ،

مع أن القرآن لم يترك مجالاً لأن يقول قائل مثل هذا القول !
 ويزداد الأمر فداحة حين ينسب مثل هذا القول إلى رجل كابن عمر ،
 الذي كان من الفطنة والذكاء بحيث ذكره الامام البخاري - رحمه الله - إذ قال :
 " حدثنا قتيبة قال حدثنا اسمعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن

ابن عمر قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ان من الشجر شجرة لا
 يسقط ورقها وأنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي
 قال عبد الله ووقع في نفسى أنها النخلة فاستحييت . ثم قالوا ، حدثنا ما هي
 يا رسول الله ، قال هي النخلة . "

وفي رواية نافع : " ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما
 قمنا قلت لمعمر يا أبتاه . وفي رواية : فحدثت أباي بما وقع في نفسى فقال : لأن
 تكون غلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا " (١)

والذي كان في الولوع بالقرآن والاهتمام بتدبر آياته ومعايشة معانيه بحيث
 مكش على سورة البقرة ثمانى سنين . (٢)

(١) فتح الهاري (١/١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥)

(٢) موطأ الامام مالك ٢٠٥/١

أم يبرّ ابن عمر على تلك الآيات حين نكث على سورة البقرة ثمانى سنين ؟
 أم خفيت عليه تلك المعانى مع أنها من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تأمل عميق .
 وتدرك بمنظرة خاطفة عابرة ؟ !

ولقد سأل مالك - رحمه الله - عن ذلك فقال : ما أنتم قوم عرب . هل
 يكون الحرث الآ موضع الزرع ؟ (١)

فهل نقول - على حسب قول مالك - رحمه الله - ان ابن عمر - رضى
 الله عنهما - لم يكن من قوم عرب أم ماذا نقول ؟ !

وصعد رواية التبرانى نصح الى رواية البخارى - رحمه الله - فقد ذكر
 السيوطى - رحمه الله - فيما ذكر فى سبب نزول هذه الآية :

" أخرج البخارى - رحمه الله - عن ابن عمر قال : أنزلت هذه الآية
 فى اثمان النساء فى أذربيجان "

بينما نرى البخارى - رحمه الله - لم يصرح بهذا القول فى صحيحه حيث
 قال :

" حدثنى اسحق أخبرنا الضمر بن شعيب أخبرنا ابن عون عن نافع قال
 كان ابن عمر - رضى الله عنهما - اذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه . فأخذت
 عليه يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى الى مكان . قال عدوى فيما أنزلت ؟ قلت :
 لا . قال : أنزلت فى كذا وكذا ثم مضى .

وعن عبد الصمد حدثنى أبى حدثنى ايوب عن نافع عن ابن عمر " فاتوا
 حرثكم أنى شئتم " قال ، يأتيها فى .

يقول ابن حجر - رحمه الله - :

" هكذا وقع في جميع النسخ . لم يذكر لمبعد الظرف وهو المجرور ووقع

في الجمع بين الصحيحين للحميدى يأتيها في الفرج

قال : ثم وقفت على سلفه فيه وهو المبرقاني فرأيت في نسخة الصفاي زياد

المبرقاني يعني الفرج

وقال ابو بكر بن العربي في سراج المرديدين :

أورد البخاري هذا الحديث في التفسير فقال ، يأتيها في . وتترك

بهاضا .

وقد عاب الاسمعيلى صنع البخاري فقال : جميع ما أخرج عن ابن عمر

سهم لا فائدة فيه " . (١)

ومع ذلك فلو أخذنا الرواية كما ذكرها الامام السيوطي - رحمه الله - فانها

لا تغيد أبداً أن ابن عمر - رضي الله عنهما - كان يرى أن هذه الآية نزلت باباحة

اثيان النساء في أدبارهن . وإنما يكون معنى الكلام أن هذه الآية جاءت تحكم في

موضوع اثيان النساء في أدبارهن ، أنه يجوز أم لا يجوز ؟ والآية واضحة ففى

حكمها أنه لا يجوز .

أما رواية أبى سعيد الخدرى أن رجلاً أصاب امرأه في دبرها فأنكر الناس

عليه ذلك فأنزلت " نساؤكم حرث لكم " .

فهذه الرواية أيضاً - كسابقتها - لا تغيد أن تلك الآية جاءت لاقترار ما فعله

الرجل . وإنما الذى يستفاد منه أن رجلاً وقع في هذا الخطأ فالتناس أنكروا عليه .

(١) فتح البارى ٨ / ١٤٠ - ١٤١

والآية وردت لتهمة على هذا الخطأ . وترشد الى المنهج الصحيح في اثبات النساء .

ولقد كان الامام الشوكاني - رحمه الله - موقفاً في مقاله ان قال :

" من زعم ان سبب نزول الآية ان رجلا أتى امرأته في دبرها ، فليس في هذا ما يدل على ان الآية أحلت ذلك . ومن زعم ذلك فقد أخطأ - بل الذي عدل عليه الآية ان ذلك حرام . فكون ذلك هو السبب لا يستلزم ان تكون الآية نازلة في تحليله . فان الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه . " (١)

وهكذا الوضع فيما أخرجه الدهراني عن ابن عمر ان رجلا أصاب امرأة في دبرها في زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنكر ذلك الناس فأنزل الله : " نساؤكم حرث لكم " .

فابن عمر - رضى الله عنهما - لا يرى جواز اصابة المرأة في دبرها ولا يبرهن ان يقول ، ان هذه الآية جاءت لتصويب هذا العمل .

وانما هو يريد - كما أسلفنا - ان هذه الحادثة حدثت . فأنكرها الناس . وجاءت الآية لتهمة على هذا الموقف الجائر ثم ترشد الى ما هو اقوم وأبر وأزكى وأطهر .

وأما ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال :

" ان ابن عمر - والله يفتقر له - وهم "

(١) فتح القدير ٢٢٩/١

فلا يخلو من حالتين :

(١) اما هو مدسوس على ابن عباس من جهة أعداء القرآن ، حتى يلتبس الأمر على الناس ويتبادر الى الأذهان أن ابن عمر كان يحفل بهذا الرأي . فيقعوا في الخطأ ويعدوا عن الصواب وحدث ذلك فعلا . فكثير من العلماء اشتبه عليهم الأمر . وزعموا أن القرآن رخص في اتیان الناس في أدبارهن ، أو أنه يهتل هذه الرخصة . ولولا أن الحديث خصص الآية لبقیت الرخصة بدون كراهية .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! !

ومن أراد التفصيل فليراجع ما أورده ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباری ، والشوكاني - رحمه الله - في فتح القدير (١)

(٢) واما أن ابن عباس رضي الله عنه - لم يبلغه الخبر على وجهه ، فقال ما قال . وما يشير الى هذا الاحتمال ما روى عن سعيد بن يسار عن ابن عمر أنه قال (أى حين بلغه أنه أشيع عنه هذا القول القائل بجواز اتیان المرأة في دبرها) :

" أفّ ! أو يقول ذلك مسلم " ؟ ! (٢)

جماع القول : لعل هذا القدر من الكلام يكفي للاقتناع بأن التأمل في نظام الآيات يساعد على فهم أسباب النزول . لكن الذي يفغل عن التأمل يتحير في فهمها ، ويضعها في غير موضعها ، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها .

(١) فتح الباری ٨/١٤٢، ١٤٣ ، فتح القدير ١/٢٢٩

(٢) فتح الباری ٨/١٤٢

وهذا ما حصل مع رواية ابن عمر ورواية أبي سعيد الخدري فان الناس لم يكونوا جادين في فهمها . ولو أنهم آمنوا النظر في سياق النص ، واسترجعوا معنى الآيات ثم نظروا فيهما لما حصل ما حصل .

ولأمكنهم التوفيق بين روايتيها ورواية جابر وابن عباس - رضى الله عنهم - فان هذه الروايات كلها ما تتضمنه الآية وتنطبق عليه ، ما خلا رواية واحدة ، قد سبق عليها الكلام .

وليئنته القارى* الى هذه النقطة ، فان هذه الروايات من متضمنات هذه الآية ، وليست هى السبب الحقيقى لنزولها .

وانما السبب الحقيقى لنزولها أعم وأعظم ما تترجم عنه هذه الروايات . وهو لا يدرك الا بعد ترداد النظر في نظام الآيات . ولقد ضمت اليه بعض الاشارات .

ولو أن الناس راوا هذه النقطة اما وقموا في حيرة . وسقطوا على السقيمة بميدان عن الهفوة ،

قال خاطى* للواحدى :

ولعل القارى* الكريم لا يستغرب الآن اذا قلنا ان الواحدى - رحمه الله -

لم يكن دقيقا في مقالته ان قال :

" قال الأمرئنا الى افادة الصددين المتسترين بعلوم الكتاب ابانة ما أنزل فيه من الأسباب ، ان معنى أوفى ما يجب الوقوف عليها ، وأولى ما تصرف العناية اليها . لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها ، دون الوقوف على قصتها وهان نزولها . ولا يجعل القول فى أسباب نزول الكتاب ، الا بالرواية والسماع من شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وحثوا عن علمها وجدوا فى الطلاب . وقد ورد الشرع بالوحيد للجاهل ندى المثار فى هذا العلم بالنار " . (١)

(١) أسباب النزول ص ٤ .

فان الأمر ليس على هذا الاطلاق كما رأينا آنفا ، فان أسباب النزول التي وصلت اليها عن طريق الرواية هي نفسها لا تكاد تفهم في أكثر الأحيان الا بعد الوقوف على نظم الكلام . فكيف يجوز أن تكون هي العمدة - على الاطلاق - في طريق فهم القرآن ؟

والشيء الذي نلاحظ في أسباب النزول - بشكل عام - هو أنها لا تفسر السبب الحقيقي لنزول الآية الا نادرا . والا فهي تكون - في أغلبها - عبارة عن عموما والآية ومتضمناتها . فلو حصرنا القول في أسباب النزول على ما روي لنا بهذا العنوان - مع ما يوجد في معظمه من الضعف الشديد - نكون قد أقمنا حجة واضحة على غفلتنا عن الواقع ، وعلى تفريطنا في جنب القرآن . وبالتالي نكون قد وقفنا من القرآن موقفا لا يليق بحاطي القرآن .

ونذكر هنا نموذجين لأسباب النزول ، التي ذكرها الواحدى في كتابه ، حتى يبلغ الأمر غايته من الوضوح ، وان كان فيما قدمنا كفاية لمن أراد أن يقنع .
نموذج لما ذكره الواحدى من أسباب النزول :

يقول الواحدى - رحمه الله - وهو يذكر سبب النزول لمطلع سورة الممتحنة :
قوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء)
الآية . قال جماعة من المفسرين : نزلت في حاطب بن أبى بلتعة وذلك أن سارة مولاة ابى عمر بن صهيب بن هشام بن عبد مناف أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة الى المدينة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتجهز لفتح مكة . فقالت لها : أمسمة جئت ؟ قالت : لا ، قال : فما جاء بك ؟ قالت : انتم الأهل والمشيخة والموالى ، وقد احتجبت عابدة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسونى ، قال لها : فأين أنت من شباب أهل مكة ، وكانت مفتية ، قالت ما طلب منى شىء بعد وقعة بدر . فحث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنى عبد المطلب فكسودا وهملوها وأعطوها ، فأتاها حاطب بن أبى بلتعة وكتب معها الى أهل مكة وأعطاهم عشرة دنانير على أن توصل الى أهل مكة . وكتب في الكتاب : من حاطب الى أهل

مكة ، ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريدكم فخذوا حذرکم . فخرجت سارة ونزل جبريل - عليه السلام - ، فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بما فعل فلان ، فحاطب . فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليا وعمارا والزبير وطلحة والمقداد ابن الأسود وأبا مرثد وكانوا كلهم فرسانا وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان فيها دليحة معها كتاب من حاطب الى المشركين . فخذوه منها واخلوا سبيلها ، فان لم تدفعه اليكم فاضربوا عنقها ، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان . فقالوا لها : اين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب . ففتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا ، فهجموا بالرجوع . فقال علي : والله ما كذبنا ولا كذبتنا ، وسل سيفه وقال : أخرجني الكتاب والا والله لأجزرنك ولأضربن عنقك ، فلما رأت الجدي أخرجته من دوابها قد خبأتها في شجرها . فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى حاطب فأتاه ، فقال له : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : فما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله ، والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم . ولكن لم يكن أحد من المهاجرين الا وله بيعة من يمنة عشيرته وكنت غريبا فيهم وكان أهلي بين ناهرانهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم بيعة . وقد طمعت أن الله ينزل بيعة باسمه وكتابي لا يفتر عنهم شيئا . فصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعذره ، فنزلت هذه السورة - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء - فقام عرب بن الخطاب فقال : دعني يا رسول الله ، أضرب عنق هذا المنافق . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعلموا ما شعتم فقد غفرت لكم * . (١)

هذا ما ذكره الواحدى - رحمه الله - في سبب النزول لمطلع سورة الممتحنة .

(١) أسباب النزول ص ٢٨١ - ٢٨٣ .

فهل الواقع هكذا ؟ وهل نقول : ان هذا الحادث هو السبب الحقيقي لنزول هذه الآيات ؟ مع أن نظام الكلام وسياق الآيات يجرتنا جرّاً الى غير ما ذهب اليه الواحدى وأراد منا أن نذهب اليه .

نظرة فى الآيات فى ضوء نذامها :

فاننا حين نتدبر هذه الآيات ونضعها فى سياقها نجد أن وجه الكلام ليس فيها الى أهل مكة ألبتة . وانما هو ناظر الى يهود المدينة وما حولها . وليس هذا مقصورا على هذه الآيات فقط ، بل هذه المجموعة من السور — التى تبدأ من سورة الحديد وتنتهى على سورة التحريم — هذه المجموعة — فى أغلبها — تتعرض لليهود وأشياعهم من المنافقين وتكشف عن عوارهم ، وتفضح عن سخاوتهم ، وتحذر المسلمين من ولائهم والوقوف فى حبالهم . والهدغا من ذلك تطهير المسلمين وتزكيتهم حتى ينالوا ما وعدهم ربهم ولا يحلّ بهم ما حلّ باليهود لعنادهم وسوء انقيادهم . وكادت هذه الظاهرة تتبدل — بان الله — بكل ظلالها وسماتها لو تفرغنا لهذه السور وخصنا فى نظامها ورباط معانيها .

ولكن يكفينا الآن لفهم هذه الآيات ولهيئتها أن نمرّ بيمض نظائرهما فى

هذه المجموعة . قال — تعالى — فى سورة المجادلة :

* ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم . ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يملكون . أعد الله لهم عذابا شديدا . انهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * (١)

ما أشبه هذه الآيات بالآيات التى نحن بصددها . فهى تعنّف المنافقين

على أنهم يتولون الميمود مع ظمهم بأن الله غضب عليهم .

(١) سورة المجادلة : ١٤ - ١٦ .

ثم تكرر هذا الحتاب بنفس الأسلوب في السورة التي تليها ، وهي سورة الحشر . قال - تعالى - : " ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا . وان قوتلتم لننصرنكم . والله يشهد انهم لكاذبون " (١)

ثم جاءت سورة الممتحنة تصهد الى المؤمنين أن لا يتخذوا هؤلاء اليهوس أولياء . ما دام أنهم أعداء الله وأعداؤهم :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموادة " (٢) .
ثم أذرعهم في سورة المجادلة فقال :

" لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (٣) .

وجاء مثل هذا الانذار في سورة الممتحنة حيث قال :

" لن تغفكم أن ماكم ولا أولادكم يوم القيامة يفسد بينكم . والله بما تعملون بصير " (٤) .

ثم أمر المؤمنين بأن يتأسوا بأبيهم ابراهيم وصديه ان جاهروا قومهم بالهجرة وكاشفهم بالمدادة وواصلوهم مفاصلة كاملة حتى يؤمنوا بالله وحده :

" قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين آمنوا ان قالوا لقومهم انا برآء

منكم وما تعبدون من دون الله كقرنا بكم هذا بيننا وبينكم المدادة واليفضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده " (٥) .

(١) سورة الحشر : ١١ .

(٢) سورة الممتحنة : ١ .

(٣) سورة المجادلة : ١٧ .

(٤) سورة الممتحنة : ٣ .

(٥) سورة الممتحنة : ٤ .

وما أشبه هذه الآيات بالتي جاءت في سورة المجادلة حيث قال :

" لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الایمان وأيديهم بروح منه " . (١)

ان تعرض هذه الآية مميزة دقيقة صارمة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهو أن يكون دائما حربيا على أعداء الله ولا يبذل نصحه ومودته لقوم يحادون الله . ثم تأتي سورة الممتحنة وتشخص تلك الميزة بنموذج على رائع . وهو الموقف الذي وقفه لمراهيم وصحبه من قومه أعداء الله .

وكما أن هذه السورة جعلت مفاصلة الأعداء من لوازم الايمان بالله واليوم الآخر فكذلك نرى سورة الممتحنة تنبه على هذه الظاهرة :

" لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر " . (٢)

ثم مقطع هذه السورة يكفى للتلحاح بأن المراد " بعدوى وعدوكم " هم اليهود حيث قال : " يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور " . (٣)

وما جاءت هذه الآية الا على طريق الصدق على الهدى . وهذا أسلوب

شائع في القرآن وفي كلام العرب .

فبدأ السورة بقوله :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء "

ثم عاد اليه مرة أخرى - بعدما تجانب أطراف الكلام بهذا الخصوص

وعندما رغب ورهب وأمر ونهى - فقال :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم " .

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

(٢) سورة الممتحنة : ٦ .

(٣) سورة الممتحنة : ١٣ .

ولسنا بحاجة الى التدليل على أن المراد بقوم غضب الله عليهم هم اليهود .
 فهم أشهر بهذا الوصف من نار على علم .
 والآن تمّ القران بين السورتين ، نعى سورة المجادلة وسورة الممتحنسة ،
 حيث قال فى الأولى : " ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم " .
 ثم قال فى الثانية : " يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم " .
 ثم انظر القرابة بين هذه السورة وسورة المنافقون ، حيث قال فى هذه السورة :
 " يخرجون الرسول وأياكم أن تؤمنوا بالله ربكم " .
 وقال فى سورة المنافقون :

" يقولون لكن رحمتنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " .

ومما لا يخفى على المتأمل النهيه أن النص هنا ورد بصيغة المضارع : " يخرجون
 الرسول " أى يريدون ليخرجوا .^(١) ومعلوم - بالطبع - أنهم هم اليهود وعملاءهم . ولو
 كان المراد بهم قريش لورد النص بصيغة الماضى كما جاء فى موضع آخر :
 " وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أنملكناهم فلا ناصر لهم " .^(٢)
 " الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الحار " .^(٣)
 تلك هى لمحات سريعة من نظم الكلام وسياق السورة . وهى تجرنا جرا الى
 القول بأن وجه الكلام فى هذه الآيات الى اليهود .

أما أن نقول ان هذه الآيات ناظرة الى قريش أو الى أهل مكة ، فهذا لا يمكن
 الا اذا صرفنا الكلام عن وجهه وأغضنا العين عن نظمه وسياقه .
 شهادة الحادث نفسه :

ثم ليس هذا مقصورا على نظم الكلام وسياق السورة فحسب . بل الحادث نفسه

(١) والفعل كثيرا ما يطلق على محاولة الفعل وإرادته كقوله - تعالى - : " الا من
 استرق السمع فأتبعه شهاب مبين " أى أراد أن يخطف السمع كما روى عن ابن
 عباس (انظر تفسير الطبرى ٧ / ١١) وكقوله - تعالى - : " انا كنا نقعد منها
 مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " قال ابن كثير : أى من
 يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له (تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٩) .

(٢) سورة محمد : ١٣ .

(٣) سورة التوبة : ٤٠ .

— الذى روى كسبب النزول لهذه الآيات — ينطق عن نفسه وينادى عليه بأنه لا ينهض سببا حقيقيا لنزول هذه الآيات .

اللهم الا أن يقال انه داخل فى عموم هذه الآيات . وهى تنطبق عليه

جزئيا ، ان لم تكن تنطبق عليه كليا .

فترى فى القصة — مثلا — أن حاطب بن أبى بلتمة يقول فيما يقول :

* ولا أحببتهم منذ فارقتهم *

فكيف نوفق بين قول حاطب هذا وبين قوله — تعالى — :

* تلقون اليهم بالمودة *

* تسرون اليهم بالمودة *

هل نقول : ان حاطبا — رضى الله عنه — لم يكن صادقا فى قوله ؟ !

نقول هذا بحمدنا صدقته النبى — صلى الله عليه وسلم — ومذره ؟ !

أم ماذا نقول ؟

هذه مشكلة لا نجد لها حلا مريحا مادامنا نفسر هذه الآيات بهذا المعنى ،

أما اذا فسرناها فى ضوء تعليلها انجلى المشكلة ، فان النظم يقول ، ان قوله

— تعالى — :

* تلقون اليهم بالمودة *

* تسرون اليهم بالمودة *

حكاية عن حال المنافقين ومودتهم لأهل الكتاب ، ان مضى قولهم فى السورة

التي قبلها : * لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم

لننصرنكم * . (١)

نكتة أخرى :

ثم هناك نكتة أخرى لابد أن نقف عندها ونمطئها حقها من التأمل والامعان .

وهو أن هذا الحادث حدث حين كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يتجهز لفتح

مكة بينما جؤالسورة ، بل جؤ هذه المجموعة يوهى الينا أنها نزلت فى فجر الصهد

(١) سورة الحشر : ١١ .

المدنى أو وسطه حين كان الوحن يركّز على اعداد الجماعة المسلمة وترويضهم على الجهاد والتضحية .

فأول سورة من هذه المجموعة تطلع علينا بهذه الآيات :

" لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " . (١)

" وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصسره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز " . (٢)

ثم ترى هذه السورة نفسها كيف تعرض أمام المسلمين أسوة ابراهيم وصحبه بعبارة موحية ومثيرة ثم تحرضهم من خلالها على البراءة الفاصلة والمداوة الكاشفة مع الذين يحاربون الله ورسوله .

معنى ذلك أن النفوس لم تكن قد تجردت بعد من مودة أعداء الله . وكانست مازالت فى فترة اعداد وتربية .

ثم تأتي بعد هذه السورة سورة الصفا . وهى تندد بالذين نكصوا عن الجهاد :

" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولسوا ما لا تفعلون . ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله مفا كأنهم بنيان مرصوص " .

ثم تشوقهم الى الجهاد فتقول :

" يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون " .

ثم تهالغ فى تحريفهم وتشويقهم فتقول :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله . قال الحواريون نحن أنصار الله " .

(١) سورة الحديد : ١٠ .

(٢) سورة الحديد : ٢٥ .

هذا الوضع يدل على أن هذه السور كانت - في طبيعتها - سوراً تروية وترويضية . وكلها جاءت لتذكى عواطف المسلمين وتشهد عزائمهم ، وتفسرس في قلوبهم حب البذل والتضحية وتسيطر بهم على فتنة الأرحام والأولاد ، حتى يشمروا عن سيقان الجد ويندفعوا الى درب الجهاد مغممين بروح الاستماتة في سبيل الله .

فإذا كانت هذه السور سوراً تروية - ومنها سورة الممتحنة ، التي نحن بصدد الحديث عنها ؛ وكانت كلها قد نزلت في أبان المهدي المدني ، فكيف يسوغ لنا أن نقول ، ان تلك الآيات كان سبب نزولها ذلك الحادث الذي حدث بعدها بعدة سنوات ؟

ألهم الا أن يقال ان تلك الآيات تصدق على ذلك الحادث ، وتنطبق عليه بحكمها ومضمونها وان كانت قد نزلت قبله بفترة طويلة . ولقد أجمع أهل التأويل أن الآيات الأخيرة من تلك السورة كانت قد نزلت وقت صلح الحديبية فلر وفقنا الى تأويل الآيات الأولى بحيث لا يبقى بينها وبين أواخر السورة كبير فارق من الزمن وتكون الأولى هي الأولى نزولاً وتكون الأخيرة هي آخرهن نزولاً يكون ذلك أقرب الى الانسجام وأوفق بالنظام وأدعى الى الالتئام .

والآن ننتقل من هذا المثال الى مثال آخر ذكره الواحدى - رحمه الله - في

كتابه .

نموذج آخر :

يقول - رحمه الله - وهو يذكر سبب نزول سورة الفيل :

" نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصد هم تخريب الكعبة وما فعل الله - تعالى -

بهم من اهلاكهم وصرفهم عن البيت وهو مرفوعة " . (١)

(١) أسباب النزول ص ٣٠٦ .

هذا ما ذكره الواحدى فى سبب نزول هذه السورة . فما رأى القارىء الكريم فيما ذكره الواحدى ؟ وهل نقبله عن اقتناع بأنه سبب لنزول هذه السورة ؟ بينما نرى أن هذا من تسمية الشيء بخير اسمه ؟ فان ما ذكره الواحدى مادة السورة وليس سببا لنزولها .

انما سبب نزولها ما لأجله أنزلت هذه السورة . ولقد مضى تفصيله فى الفصل الثانى فليرجع اليه القارىء ان لم يكن حاضرا فى هذه .

تعميق السيوطى :

ولقد أحسن الامام السيوطى - رحمه الله - حين عقب على قول الواحدى فقال :
 "والذى يتحرر فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدى فى سورة الفيل من أن سببها قصة قوم الحبشة فان ذلك ليس من أسباب النزول فى شيء . بل هو من باب الاخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود هنا البيت ونحو ذلك " . (١)

لفتة الى مقال السيوطى :

وان كنا نرى أن ما ذكره الامام السيوطى ايضا بحاجة الى دراسة وتثبيت وامعان ، فانه - رحمه الله - ان كان يقصد بسبب النزول ما تتضمنه الآية فهذا لا ينحصر فيما نزلت الآية أيام وقوعه . بل كل أمر يدخل فى ضمن الآية ويصدق عليه حكمها فهو يعتبر سببا لنزولها بخلاف النذر عن وقوعه فى حين نزول الآية أو بعده أو قبله . وان كان يقصد به السبب الحقيقى لنزول الآية ، فليس كل ما نزلت الآية أيام وقوعه سببا حقيقيا لنزول تلك الآية . وانما السبب الحقيقى لنزول الآية هو ما يدل عليه السياق ويستقيم به النظام وتتماسك به الآيات آخذة بعضها بأعناق بعض . ولنضرب لذلك مثلا . قال - تعالى - :

" ان الصفا والمروة من شعائر الله . فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم " . (٢)

(١) لباب النقول فى أسباب النزول ص ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٨ .

ذكر الامام السيوطي - رحمه الله - سبب نزول تلك الآية كما يلي :

"أخرج الشيخان وغيرهما عن عروة عن عائشة قال : قلت أرأيت قول الله :

"ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما" فما أرى على أحد شيئا أن لا يطوف بهما ، فقالت عائشة : بثسما قلت يا ابن أختي ، انها لو كانت على ما أولتها عليه كانت ، فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها انما أنزلت لأن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية . وكان من أهلها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة . فسألوا عن ذلك رسول الله ، فقالوا : يا رسول الله ، انا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله : ان الصفا والمروة من شعائر الله - الى قوله - فلا جناح عليه أن يطوف بهما " .

وأخرج البخاري عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة؟ قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله " ان الصفا والمروة من شعائر الله " .

وأخرج الهائم عن ابن عباس قال : كانت الشياطين في الجاهلية تدأبسون الليل أجمع بين الصفا والمروة ، وكان بينهما أصنام لهم ، فلما جاء الإسلام قال المسلمون : يا رسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فانه شيء كنا نصنع في الجاهلية ، فأنزل الله هذه الآية * (١) .

تلك هي الأسباب التي أوردها الامام السيوطي - رحمه الله - لنزول هذه الآية . وهي أسباب لا تصلح أبدا لأن تسمى أسبابا حقيقية لنزول الآية ، وان كان يصدق عليها قوله - رحمه الله - :

"والذي يتحرج في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه" .
 وذلك لأن تلك الأسباب لا تتلاءم مع السياق ، وما يستقيم بها النظام .

(١) لباب النقول في أسباب النزول ص ٣٠ ، ٣١ .

والذى يتحرر فى تلك الأسباب هو أنها من متضمنات الآية ومن عموماتها ، فان الآية - فى عمومها - تعالج هذه الشبهات وتردّ على هذه التساؤلات .
 أما السبب الحقيقى لنزول الآية - كما يدلّ عليه السياق ويرشد اليه النظام - فهو كشف القناع عن كتمان اليهود وتلبسهم فى أمر الصفا والصروة . ولقد أشبنا عليه الكلام فى الفصل الخامس ، فنحيل القارىء الكريم اليه .
 كما نريد أن نلفت الانتباه الى ما توحى اليها كلمة " شعائر الله " فان التصريح بكونهما من شعائر الله يشى بأن هناك من يسعى ليلبس على الناس أمرهما ، ويسدل الستر على حقيقتهما .

ولقد استعملت تلك الكلمة فى مثل هذا الجوفى أمر البدن كذلك . فان اليهود لما حاولوا أن يلبسوا على الناس أمرها ، ويرغوا سدول الكتان على شرفها ومكانتها ، ويوهموا الناس بأن الله حرّمها من أول يومها ، حتى يتذرعوا بذلك الى اثاره الشبهات حول بحثة النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يزد ربنا حينذاك على أن وصف البدن بأنها من شعائر الله . وذلك جعل كيدهم وافتراءهم هذا مبسباً منشوراً . قال - تعالى - :

" البدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير " . (١)

" ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت الحقيق " . (٢)

ولقد أسلفنا الكلام على تلك الآيات فى الفصل الأول . وفيه كفاية . والحريّ تكفيه الاشارة .

* * *

لقد أفضنا فى القول ، وكثرتنا الأمثلة ، فتعينا وأتمينا . وما دفعنا الى هذا الاسترسال الا الحرص على أن يقتنع القارىء بهذه الحقيقة الباهرة ويرسخ فى ذهنه أن رعاية النظام لها مهمة كبيرة فى فهم سبب النزول . فالذى يهمل النظام يتحسّر فى فهمه ويتمذّر عليه الوصول الى حقيقة أمره .

(٢) سورة الحج : ٢٢ - ٢٣ .

(١) سورة الحج : ٣٦ .

موقف الفراهي من سبب النزول :

وللامام الفراهي - رحمه الله - كلمة جميلة في سبب النزول . فلا بأس بأن نسجلها كغتام المسك لهذا الفصل . يقول - رحمه الله - :

* ليس شأن النزول كما قيل تسامحا سببا لنزول آية أو سورة ، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلا للكلام . فما من سورة الا ولها أمر أو أمر جعلتها نصب العين . وذلك تحت عمود السورة .

فعليك أن تلتصم شأن النزول من نفس السورة ، فان الكلام لا يد أن يكون مطابقا لموضعه كما أن الطيب مثلا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت لسه تلك النسخة .

فان كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع كتناسب اللباس والجسم بل كتناسب الجلود والأبدان . والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض .

وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فممناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجودا حين نزول السورة ، لكي يعلم أن الآيات كانت لها دواع ومواقع

وهذا ينحل ما أشكل على الامام الرازي في سورة الأنعام في تفسير آية :

* وان جاءك الذين يؤمنون بآياتنا * حيث قال :

* ولي ههنا اشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة .

وانا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة

أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه * .

فان الأمر عندي - كما علمت - أن الله - تعالى - حين أنزل سورة ما كان الا ليين

الأمر التي اقتضت البيان بكلام لم يلبس نغامة ، كما يفعل الخطيب الحكيم فانه

ينزل كلامه ويسوقه على حسب دواع خاصة بين يديه . فكثيرا ما لا يذكر أمرا خاصا

ولكن يجرى كلامه الى ما يحوى أمثاله من الصور والحالات . وقليل ما يسمى أمرا خاصا

أو شخصا خاصا . فيأتى بكلام على سابق كخيث مطبق .

وكان نزول القرآن هكذا كما قال الله تعالى :

" وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تجد لكم " (١)

فكان القرآن يأتي بجوابهم حين نزوله جاريا على رسله ومنهجه . فإذا بلغت سورة حدّ الكلام وقضت شأنها ، وأوفت لدواعي الكلام بيانها ، سكنت وألقت جيرانها . فما تجاوزت ولا قصرت .

ولكن ربما كانت الحاجة باقية فأنزل الله سورة أخرى ولكن بدل الأسلوب الأول لكيلا يملوا ، وشأن النزول لم يتبدل .

ولذلك ترى في أول النبوة سورا كثيرة في ذكر البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتزم به . ولكن بتبدل الأسلوب وتصريف القول . وكذلك ربما وقعت حاجة لتوضيح أمر فنزل بعض الكلام ، ووضع حيث كانت حاجته ، انجازا لما وعد ثم ان علينا بيانه " (٢)

فلم يراع زمان النزول بل نظام القول ،

ثم ربما نهه/هذا بيان بعض الآيات ، فانك ترى بعد أكثر آيات الحفصت

بأخواتها للبيان مثل قوله - تعالى - :

" كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون "

كما مر في الديباجة . فان أردت الحق السريع واليقين المريح فلا يمدك الأسلوب شأن النزول عن أصل نظام القرآن فيهم عليك الأمر وبخادرك في متفرق السبل ، لا تدري أيها تسلك .

بل تحسس شأن النزول من القرآن ثم أخذ من الروايات ما يؤيد القسـرآن

لا ما يبدد نظامه " (٣)

(١) سورة المائدة : ١٠١ .

(٢) يراجع للتوسع تفسير سورة القيامة للامام الفراهي .

(٣) فاتحة تفسير نظام القرآن ص ٨ ، ٩ ط ١٣٥٧ هـ مطبعة اصلاح . الهند .

الفصل التاسع

المريّة التاسعة

ان رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هو الممكّ الناجح لنقد الروايات .
فهو يميّز الضمافا من الصحاح ، ويميّز السقيم من السليم .
فان كتب التفسير - مع الأسفا - طافحة بالاسرائيليات والموضوعات كما هو
معروف عند الثقات . وما وجدت هذه الاسرائيليات وتلك الموضوعات طريقها الى
كتب التفسير ، وما خلا لها الجوّ حتى تبيض وتصفر الا بعدما تساهل النسساس
فى النظام ولم يهتموا به فى تأويل الآيات .
ولو أنهم اهتموا بنظام الآيات ، ومكّموه فى قبول الروايات ، لاجتشت
الاسرائيليات من أصلها ، وماتت الموضوعات فى مهدها ، ولم تجد الى تراثنا
سبيلا .

فاذا كانت هذه الاسرائيليات وتلك الموضوعات قد تسرّبت الى تراثنا الثمين
- والعيان بالله - وكنا نريد الآن أن نعرض عليها حتى نأمن شرّها ونجذّم أصلها ،
فليس أمانا الا أن نعى بما فيه قصّرنا ، ونثوب الى ما عنه أعرضنا ، فنمطى النظام
حقه من الرعاية والاهتمام ، فهو الذى يكفل لنا الوصول الى بغيتنا ، ويكفّل
لنا النجاة ما كدّر صفونا ، ويؤمن لنا السلامة من كيد أعدائنا وأعداء قرآنا .
مثال تنبيه النظم على مواضع الضمافا فى الرواية :

ولا بد هنا من مثال ، حتى يتلور الأمر ويترهن أن رعاية النظام كيف تنبّه
على مواضع الضمافا فى الروايات . وكيف تساعد فى تمييز غثها من سمينها .
قال الله - تعالى - فى كتابه العزيز :

* وهل أتاك نبا الخضم ان تسوروا المحراب . ان دخلوا على داود ففزع
منهم . قالوا ، لا تخف . خصمان . بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا
تشطط واهدنا الى سوا الصراط . ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة
واحدة . فقال أكفنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى
نعاجه . وان كثيرا من الخلداء ليبيضن بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتقليل ما هم . وظن داود أن فتناه فاستغفر ربه وخرّ ركعاً وأتاب .
فغفرنا له ذلك . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . يا داود أنا جعلناك خليفته
فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين
يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " . (١)

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو يفسر تلك الآيات :

" واختلفنا فى سبب البلاء الذى ابتلى به نبي الله داود - صلى الله عليه

وسلم - فقال بعضهم : كان سبب ذلك أنه تذكر ما أعطى الله ابراهيم واسحق
ويعقوب من حسن الثناء الباقي لهم فى الناس ، فتمنى مثلهم فقيل له انهم امتحنوا
فصبروا فسأل أن يبتلى كالذى ابتلوا ويمطى كالذى أعطوا إن هو صبر . ذكر من
قال ذلك حدثنى محمد بن سعد قال ثنا أبى قال ثنا عنى قال ثنا أبى عن أبيه
عن ابن عباس قوله :

وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب قال ان داود قال يارب قد أعطيت
ابراهيم واسحق ويعقوب من الذكر ما لودت أنك أعطيتنى مثله . قال الله انسى
ابتليتهم بما لم أبتلك به فان شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به وأعطيتك كما أعطيتهم
قال نعم . قال له فاعمل حتى أرى بلاءك . فكان ما شاء الله أن يكون وطال ذلك
عليه فكان أن ينساه فبينما هو فى محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب فأراد أن
يأخذها فطارت الى كوة المحراب فذهب ليأخذها فطارت فاطلع من الكوة فرأى
امرأة تفتسل . فنزل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - من المحراب فأرسل اليها
فجاءته فصالحها عن زوجها وعن شأنها فأخبرته أن زوجها غائب فكتب الى أمير تلك
السرية أن يؤمره على السرايا ليهلك زوجها ففعل . فكان يصاب أصحابه وينجو وربما
نصروا . وإن الله عز وجل لما رأى الذى وقع فيه داود أراد أن يستنقذه فبينما داود
ذات يوم فى محرابه إذ تسور عليه الخصمان من قبل وجهه . فلما رآهما وهو يقرأ فزع
وسكت وقال لقد استضمفت فى ملكى حتى أن الناس يتسورون على محرابى قال له لا تخف .

فكتب اليه أن ابصته الى عدوكذا وكذا فبعثه فقتل المرة الثالثة قال وتزوج امرأته
قال فلما دخلت عليه قال لم تلبث عنده الا يسيرا حتى بعث الله ملكين في صورة
انسيين فطلبها أن يدخلها عليه فوجداه في يوم عاداته فمضت الحرس أن يدخلها عليه
فتسورا عليه المحراب قال فما شعر وهو يصلو ان هوبهما بين يديه جالسين
قال ففرغ منهما فقالا لا تخف انما نحن خصمان بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا
بالحق ولا تشطط يقول لا تخف واهدنا الى سوا الصراط الى عدل القضاء
قال فقال قصا على قصتكما قال فقال أحدهما ان هذا أخى له تسع وتسعون
نعجة ولى نعجة واحدة فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نجاها مائة قال
فقال للآخر ما تقول فقال ان لى تسعا وتسعين نعجة وأخى هذا نعجة واحدة
فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نجاها مائة قال وهو كاره قال
وهو كاره قال اذا لا ندعك وذاك قال ما أنت على ذلك بقادر قال فان ذهبت
تروم ذلك أو تريد ذلك ضربنا منك هذا وهذا وهذا وضرب أسباط طرف الأنف
وأصل الأنف والجبهة قال ياداره أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وهذا
لك تسع وتسعون نعجة امرأة ولم يكن لأهرا الا امرأة واحدة فلم تزل به تعرضه
للقتل حتى قتله وتزوجت امرأته قال فنظر فلم ير شيئا فصرف ما قد وقع فيه وما قد
ابتلى به قال فخر ساجدا قال فيكى قال فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما لا يرفع
رأسه الا لحاجة منها ثم يقح ساجدا يبكي ثم يدعو حتى نبت العشب من دم
عينيه قال فأومى الله اليه بعد أربعين يوما ياداره ارفع رأسك فقد غفرت لك .^(١)

هذه الروايات مما ذكره الامام الطبري - رحمه الله - في تفسير تلك الآيات .
وليس هذا مقصورا على الطبري ، فقد راجعت هذه الروايات عند غيره من فحول المفسرين
- رحمهم الله - وهم أئمتونا في مؤلفاتهم .^(٢)

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٣/٢٣-٢٤ .
(٢) انظر فتح القدير ٤/٤٢٧ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/١٦٦ ، ١٦٨ .
وتفسير أبي السعود ٤/٥٧١ وقال الامام عبد الرحمن بن الجوزي ، بعد ما
ذكر تلك القصة ، : " وطل هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين
(انظر زاد المسير ٧/١١٥) .

وان كان الأمر لا يخلو من رد تلك الروايات ورمى بها عرض الحائط مشـل
الامام ابن كثير والامام أبى حيان والامام سيد قطب - رحمهم الله - (١)

فتريد أن نقف هنا وثقة نسبر فيها تلك الروايات فى ضوء نظام الآيات ،
حتى نكون على بيّنة منها ، فان النظام لا بد أن يكشف لنا غشها من سميتها ولا بد
أن يجلى لنا حقها من باطلها .

فحين نخلو بتلك الآيات ، ثم نمعن النظر فيها وفيما حولها من الآيات
تلح علينا هذه اللفات :

اللفظة الأولى :

ان القرآن يذكر هنا سيدنا داود - عليه السلام - كمثل رائع للأوابية .
بل يذكره بأسلوب يوحي الينا أنه كان نسيح وحده فى هذه السجّة . وكان
امام هذا الكون من هذه الناحية . فهو لم يكن يسيح وحده ، بل كان يتجاوب معه
الكون فى تسيحه ، فكانت تسبح معه الجبال وكانت تسبح معه الطير . تدبّر
معنى هذه الآيات :

" واذكر عبدنا داود ذا الأيد . انه أواب . انا سخّرنا الجبال معه يصبحن
بالمشى والاشراق . والطير محشورة . كل له أواب " .
ولا نتصور انسانا رجع الحربية وترسّى فى أحضانها ، يرمي هذه الآيات بسدود
أن يستحلها ويتذوق طعمها .

فالمبدأ الذى يذكره القرآن وينوّه بأوابيته بهذا الأسلوب الحلو ، الذى يملك
القلب ويأخذ اللب ، تعرضه تلك الروايات كانسان عادى تحكّم الهوى ، وتقوده الشهوة
ولا يهيم فى الحياة الا اقتناص النساء !!

اللفظة الثانية :

تحكى لنا تلك الروايات أن سيدنا داود تمنى على الله أن يعطيه من الذكر
مظلم أعطى ابراهيم واسحق ويعقوب - عليهم السلام - فأحال الله - تعالى - أميته
هذه على نجاحه فى الابتلاء . ولئن داود رسب فى الابتلاء . وطى هذا فما أبعيت
(١) انظر تفسر ابن كثير ٤/٣١ ، وفى ظلال القرآن ٧/٩٧ ، والبحر المحيى
٣٩٣/٧ .

دعوته وخابيت أميئته !

بينما نرى في هذه السورة أن الله - تعالى - أشار بذكره أكثر من أي نبي

آخر .

ثم ما ظنك برفع ذكره وعلو شأنه لو وضعنا ذكر سليمان أيضا في كفة مناقبه ،
فان الله - تعالى - ذكره بحيث أنه كان هبة منه لداوود :
* ووهبنا لداوود سليمان * . (١)

وهذا نفس الأسلوب الذي نراه في قصة ابراهيم مع اسحق ويعقوب - عليهم
السلام - فان القرآن يقول :

* ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة * . (٢)

فكما أن اسحق ويعقوب كانا نافلة لابراهيم وعطية له على حسن بلائه فمسي
أوامر الله وكلماته ، وهما يحتران من مناقب ابراهيم . فكذلك شأن سيدنا سليمان
مع سيدنا داوود - عليهما السلام - .

وعلى هذا نرى أن القرآن استرسل في ذكر داوود ونوه بشأنه في هذه السورة
أكثر مما نوه بشأن ابراهيم واسحق ويعقوب ، فانه لم يذكرهم في هذه السورة الا
ذكرنا سريما خاطفا حيث قال :

* واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار . انا أخلصناهم
بخالصة ذكري الدار . وانهم عندنا لمن الصّطفين الأخيار * . (٣)

اللفتة الثالثة :

ما سبقت قصة داوود في هذه السورة لتفيد أن داود - عليه السلام - رسب
في الهلاء . وانما سبقت لتكون تبصرة وذكري لطواغيت مكة . فهم كانوا مخموريين
بوجاهتهم ومكانتهم في المجتمع العربي . وقد تجاوز بهم الضرور الى أنهم كانوا
يفجرون أمام الله :

* ص ، والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق * . (٤)

وكانوا يستهزؤون بالنبي ويسخرون منه :

* أنزل عليه الذكر من بيننا ؟ ! * .

فوجه المهم السؤال - سؤال تهكيت وتهديد - وتقريع :

* أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السموات والأرض
وما بينهما ؟ فليرتقوا في الأسباب * . (٥)

(٢) سورة الأنبياء : ٧٢ .

(٤) سورة ص : ١ - ٢ .

(٦) سورة ص : ٩ - ١٠ .

(١) سورة ص : ٣٠ .

(٣) سورة ص : ٤٥ ، ٤٧ .

(٥) سورة ص : ٨ .

ثم لغت أنظارهم الى بعض مصارع الطفافة ، الذين كانوا أكثر منهم
وأشد قوة آثارا في الارض :

" كذبت قبلهم قوم نوح و عاد وفرعون ذوالأوتاد . وشمود وقوم لوط
وأصحاب الأيكة . أولئك الأحزاب . ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب . وما
ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق " (١)

ثم سيقت لهم قصة داود - عليه السلام - حتى يعتبروا بها ويتذكروا ،
فان داود كان يملك أكثر مما يملكون . وقد آتاه الله من الملك الشديد والجساءة
المريض بالم يوءت أعدا من المعلمين . ولكن هذا كله لم يحمله على اللطف
والمصيبة ، بل زاده خضوعا وتواضعا وانابة الى ربه . فكان أوابا منيبا . وكان
يسبح له بالعمى والاشراق .

وانزلت به قدمه في لحلة من اللحلات فنبه عليه أسرع الى التوبة
والاستغفار وغر راکما وأتاب .

وهذا الخضوع وهذا التواضع أمام الله لم يزده الا رفعة الى رفعته
وسموا الى سموه . فانه لما تواضع لله رفعه الله وأبقى له ملكه ، وأغدق عليه
نعمه ، وأعطاه ولدا مثل سليمان ، الذي ورثه وشمخ بعزته وسموه الى عنان السماء .
وهكذا وجهت النصيحة الى طواغيت قريش حتى ينتهوا عما هم فيه من عزّة
وشقاق ، ثم يلبسوا الى ربهم ، ويسلكوا منه صلك داود - عليه السلام - حتى ينالوا
منه ما نال داود - عليه السلام - .

وبالجملته فهذه القصة ما جاءت في هذه السورة الا كمثال لأبوية داود وسرعة استغفاره وتضرعه ورجوعه الى ربه . ولذلك قيل أن يتطرق السياق اللى هذه القصة نوه بأنه كان أبيا وكان لربه سبحا .

بينما الرواية تقول ، ان هذه القصة جاءت لتملن رسوبه فى البلاء وتفضمه فى الملأ !!

اللفتة الرابعة :

الرواية تقول ان داود - عليه السلام - مازال يبكى أربعين يوما بليلته ونهاره . وساجاهم التوبة حتى نهت الغضرة من دموع عينيه . بينما الأسلوب ونظم الكلام يدل على أنه لم يكن هناك فاصل من الزمان بين توبة داود واستغفاره وبين توبة الله عليه ومغفرته .

مدرسمى هذا النظم :

" وطن داود أنما فتاه فاستغفر ربه وخرّ راکما وأتاب . فغفرنا له ذلك . وان له عندنا لزلفى وحسن عاب "

أتمت الانابة بالمغفرة . وجاءت بينهما حرف " الفاء " دلالة على شدة اتصالهما ، أى ما ظهرت منه الانابة حتى أظلمت المغفرة .

ثم ان مدقق النظر فى أسلوب الكلام ونظمه تجد فيه تقديما وتأخيرا . وما هذا التقديم والتأخير الا رعاية لشدة اتصال التوبة بالمغفرة .

بيان ذلك أن ترتيب القصة يقتضى أن يكون قوله - تعالى - :

" يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق . ولا

تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله . "

مقدا ما على ذكر التوبة والمغفرة ، فانه جاء هذا التوبيه وهذا العتاب قبيل

أن يتوب داوود وقبل أن يغفر له . والأفلا معنى للتبئيه والمتاب بمد أن يضع
العبد الخاشعُ جبهته أمام ربه ، اعترافا بتقصيره واستدرازا لمغفرته ومد أن يشمل
الرب الكريم الودود عهده الخاشع المتذلل بمفوه وكرمه .

ولكن البلاغة القرآنية الرفيعة أشرت المتاب عن محلّه الحقيقي تصويـرا
لسرعة داوود الى الانابة والاستغفار، ثم تصويرا لسرعة الرحمة والمغفرة السـتى
أقبلت اليه استجابة لدعائه .

ولو لم يكن في العبارة هذا التقديم والتأخير لم نجد فيها مانجده الآن من
إيحاءات . وإنما يجد قلم الكاتب نفسه مضطرا الى أن يسجد أمام هذه البلاغة
القرآنية الرفيعة ، التي لا يشق لها غارا !

أما التبئيه والمتاب فلا يضّر هذا التأخير عن محلّه ، فان موضعه معلوم
بالضرورة ، على رغم تأخيره في العبارة .

ويزداد الأمر وضوحا حين نضع هذه القصة بجانب قصة سليمان - عليه
السلام - ، فان قصة سليمان تنتهي على قوله - تعالى - :

" وان له عندنا لزلفى وحسن مآب "

فالمفروض أن تنتهي قصة داوود ايضا على قوله - تعالى - :

" فمغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب "

وهذا يدل على أن الآية التي جاءت بعده - وهي آية المتاب - ليست
في محلها الحقيقي . وإنما وضعت هناك للحكمة التي أشرنا اليها ، ولحكمة أخرى
ستطلع عليها في اللفظة التالية .

اللفظة الخاصة :

أحاط النظم هذه القصة بذكر الحكم . فقال قبل أن يشرع فيها :

" وشد دنا ملكه وآتينا الحكمة وفصل الخطاب "

ثم قال في أثناء القصة :

" خصمان بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واعدنا

الى سواء الصراط "

ثم قال بعدما انتهى من القصة :

" يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق

ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله "

هذا النظم يساعدنا في تقرير طبيعة القصة ، ويرشدنا الى أن الفتنة ، التي

وقع فيها سيدنا داود كانت تتعلق بالحكم والقضاء .

وكانت صورة الفتنة - كما يراها الأستاذ سيد قلب - رحمه الله - هكذا :

" بيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك ، كان يخصص بعض وقتته

للتصرف في شئون الملك وللقضاء بين الناس . ويخصص البعض الآخر بالخلوة والعبادة

وترتيل أناشيده تسبيحا لله في المحراب .

وكان اذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل اليه أحد حتى يخرج من

الى الناس .

وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المخلوق عليه . ففزع منهم

فما يتسوران المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمانانه . " قالوا لا تخف

خصمان بنى بعضنا على بعض " . وجئنا للتقاضى أمامك " فاحكم بيننا بالحق

ولا تشطط واعدنا الى سواء الصراط " . . وبدأ أحدهما فعرض خصومه : " هذا

أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة . فقال " أكفلنيها (أى اجعلها

لى وفى ملكى وكفالتى) " وعزى فى الخطاب " (أى شد دنا على فى القول وأعدنا) .

والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلما صارخا مشيرا لا يحتمل

التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضى على اثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ، ولم يوجه الى الخصم الاخر حديثا ، ولم يطلب اليه بيانا ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى يحكم : " قال : لقد ظلمك بسؤال نمجتك الى تعاجه . وان كثيرا من الخلطاء - (أى الأقربين المخالئين بعضهم لبعض) - ليغض بعضهم على بعض . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم "

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جماعاً للامتحان ! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ، ليقتض بينهم بالحق والمدل ، وليبين الحق قبل اصدار الحكم وقد اختارا أن يمرضوا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة . . . ولكن القاضي عليه ألا يستشار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الاخر فرصة للدلالة بقوله وحجته ، فقد يتفیر وجه المسألة كله ، أو يعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا !

عند هذا تنبه داود الى أنه الابتلاء :

" وطن داود إنما فتناه "

وهنا أدركه طبيعته . . انه أو اب . . " فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب " . (١)

الآن نميل الى أن هذه القصة ليست هي الفتنة . وانما هي تنبيه على الفتنة التي سبقت هذه القصة ، وكانت شبيهة بها .

ولم يكن ذنب داود أنه لم يستمع الى الخصم الثاني أولم يتح له الفرصة حتى يدلى بقوله وحجته ، فهذا بعيد من أى امام عادل ، فضلا عن سيدنا داود ، فقد كان خليفة الله فى الارض - بملوئه الواسع الشامل الكامل - وكان أو اباً شبيها برسولا نبياً وملكاً مقسداً .

وانما الواقع - كما يبدو من السياق - أن الظالم كان ألحن بحجته وكان أراعا فى عرض قضيته ، فتأثر به داود وأصدر الحكم فى حقه . واليه يشير قوله - تعالى - :

(١) فى تلال القرآن ٧/٩٦ ، ٩٧ ، اللمعة الثانية .

" وعزّني في الخطاب "

أى ظنني في الحجّة عند الحاكم ، فمكّم الحاكم في حقّه أن الحقّ كان في ضده .

فالذي أخذ على راور أنه اكتفى بالاستماع الى الخصمين ، وأصدر الحكم في حق من تأشريحه ، ولم يتشبت في أمرهما ولم يتأكد من صحة قولهما . وهذا الذي اعتبر في حقّه " اتباع الهوى " فقليل له :

" يا راور انا جملناك خليفة في الارض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى "

أى لا تصجل بالحكم سعتمدا على ميلان قلبك الى أحد الخصمين وتأشره بحجته . بل عليك بالتريث في الحكم والتشبت في الأمر ، فكم من عجز ضعيف يكون على الحق . وم من لسن ذلق طلق يكون على الباطل !

" واتباع الهوى " بهذا الممنى معروف في القرآن ، كما جاء في شأن

النبي - صلى الله عليه وسلم - :

" وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى " (١)

أى ما يتكلم من عند نفسه ، ولا يحكى ما يبجول بخاطره . وانما وحي يوحى اليه من عند ربه .

*

*

*

(١) سورة النجم : ٤،٣

وعلى كل حال ، فلا علاقة لهذه القصة بطك الحالة الفراسية التي تحطها تلك الروايات . ولا مبرر لنا لتفسير النصيحة بالنساء . وإنما النصيحة هي النصيحة ، كما هو معروف في اللغة ، وكما هو واضح من السياق .

يقول الامام أبو حيان - رحمه الله - :

* الظاهر ابقاء لفظ النصيحة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن . ولا يكتفى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو الى ذلك ، لأن ذلك الاخبار كان صادرا من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها . * (١)

هفوة للامام القرطبي - رحمه الله - :

وكم تصجبنا حين رأينا القرطبي - رحمه الله - يقول في تفسيره :
* قد روى المفسرون أن داود - عليه السلام - نكح مائة امرأة . ولهذا نص القرآن ! * (٢)

ولا نملك الآن أكثر من أن نترحم على الامام القرطبي ، فقد قال قولا عظيما ولم يتفكر في عواقبه .

فليس هذا نص القرآن . وإنما هو كذب وبهتان ، تسرب اليها من أعداء القرآن ! وليس هذا فقط ، فكم تسرب اليها من أعداء القرآن على حين غفلة منّا ! ولكن - مع ذلك - لن نبالغ ان قلنا : ان التأمل في نظام الآيات كقيل بأن ينقش هذه الهراءات كلها عن تراثنا ، كما رأينا آنفا في قصة سيدنا داود - عليه السلام - .

(١) البحر المحيط ٣٩٢/٧
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧٦/١٥

كما أنه كفيـل بأن يجعل الآيات سهلة ، سائفة ، واضحة في معناها ، بعد ما يستصعبها الانسان ويـبـلـس من فهمها لكثرة ما غشـيها !

كلمة للإمام ابن كثير - رحمه الله - بخصوص هذه الآيات :

ولا بأس بأن نذكر هنا ما سجّله الإمام ابن كثير - رحمه الله - عن تلك الآيات ، فهو يكشف القناع عن أسمة هذه الفكرة - فكرة التأمل في نظام الآيات - ويزيدنا حرصا على التمسك بها ، يقول - رحمه الله - :

* قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ؟ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - رض الله عنه - ويزيد - وان كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد عليها الى الله - عز وجل - فان القرآن حق . وما تضمن فهو حق ايضا * (١)

فكم نحمد الله على أنه فتح علينا تلك الآيات بفضل التأمل في نظامها ، بعد ما يبـلـس من فهمها هذا الامام المملاق لكثرة ما غشـيها من الأكان يسبب والاسرائيليات .

مثال آخر :

واليك مثلا آخر من هذا القبيل ، فقد قال الله - تعالى - في نفس السورة في ذكر سيدنا سليمان - عليه السلام - :

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣١

" ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً " الآيات . (١)

لقد مضى معنا في فاتحة البحث أن الناس كيف تحيروا في تأويل تلك الآيات ، لكثرة ما غشيتها من الاسرائيليات . ولو أنهم لجؤوا الى نظام الآيات وتأملوا فيه لما نالهم ما نالهم من التعب ، فان الآيات كانت في غاية السهولة . وانما تعب فيها من تعب لأنه لم يتمسك بنظامها .

فلنتمسك بنظام تلك الآيات ثم لننظر في تأويلها ، عسى الله أن يقتح

علينا بفضله ما تستريح اليه النفوس وتلقاه العقول بالقبول .

ولكن قبل أن نخوض في نظام تلك الآيات ، لا بأس بأن نتأمل في بعض

تلك الكلمات ، التي كانت مزلة للأقدام ، فان الناس لو آمنوا فيها النظر لما وقعوا فيما وقعوا فيه من الاسرائيليات . وأظلموا على ما فيها من ضعف وفساد .

تحقيق معنى الجسد :

اللفظة الأولى التي تسترعى الانتباه وتشى بكذب تلك الروايات هي لفظة

" الجسد " ، فان الأصل في الجسد أن يكون خاليا من الروح كما يظهر من

استعمالاته في القرآن وفي كلام العرب . قال الله - تعالى - :

" وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام " (٢)

قال الضحاك في تفسيره :

" يقول لم أجعلهم جسداً ليس فيهم أرواح ، لا يأكلون الطعام " . (٣)

(١) سورة ص : ٣٤ - ٤٠

(٢) سورة الأنبياء : ٨

(٣) تفسير اللبيري ٥ / ٩

وقال مجاهد - رحمه الله - :

" (وما جعلناهم جسدا) أى ليس فيهم الروح . " (١)

وقال الله - تعالى - :

" فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار " (٢)

يقول الأستاذ الامام سيد قطب - رحمه الله - فى تفسير تلك الآية :

" فأخذها - أى الحُجْلَى - السامرى فصاغ منها عجلا وجعل له عافذ

إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح ، فهو

جسد - ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه - فما كانوا يسرون

عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذل . " (٣)

فإذا كان الأصل فى الجسد أن يكون خاليا عن الحياة وخاليا من السروح ،

فكيف يجوز أن يفسر هذا اللفظ بالجن كما وهم من وهم من جهراء تلك الروايات

الكاذبة التى تسربت الى كتب التفسير .

لفظة الالتقاء وضافتها الى ضمير الجلالة :

ثم لو افترضنا - بدون أى مبرر - أن لفظ الجسد هنا أطلق على الجن

فماذا نفعل بلفظة الالتقاء ؟ وهل يتصور أن النص القرآنى - الذى يتميز بفايسة

الدقة فى اختيار الكلمات - يمبرر عن تسلط الجن على ملك سليمان أو عن تسليطهم

عليه بلفظة " الالتقاء " ؟ وهل يوجد لهذا الأسلوب نظير فى استعمال القرآن

أو فى استعمال العرب الذين يحتج بكلامهم ؟

(١) تفسير مجاهد ص : ٤٠٧

(٢) سورة طه : ٨٨

(٣) فى ظلال القرآن ٥ / ٩٣

ثم أضيف الالتقاء الى ضمير الجلالة : " وألقينا " . وهذا الوضع يدل على أن الالتقاء حصل من الله - تعالى - مباشرة فلا داعي للعدول عن هذا والقول بأن الالتقاء حصل من القابلة . وانما نسب الى الله تجوزا ، فان حمل اللفظ على حقيقته أولى اذا لم يكن هناك صارف يصرف عنها .

تأويل الآيات كما يوحي الينا النظام :

وهنا يبرز سؤال : فما هو التأويل الصحيح لتلك الآيات ؟
فلنتأمل في الآيات وفي نظامها ، عسى أن نصل الى ما نطمئن اليه في تأويلها .
وهي تلك الآيات :

" ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لي وارب لي ملكا لا ينقض لأحد من بعدي . انك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءا حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص وآخريين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاءنا فاضلنا أوأمسك بغير حساب وان له عندنا لزلزلى وحسن ساب " .

فنحن اذا تأملنا في تلك الآيات وفي نظامها ظهر لنا أن فتنة سيدنا سليمان - عليه السلام - كانت عبارة عن استزادة الطمك . وكادت تنتهي بزواله . ونرى لذلك أنه - عليه السلام - لما أناب الى ربه واستغفره تنازل عن رغبته في عظم الطمك . وأظهر قناعته بالقدر القليل الذي لا ينفي لأحد من بعده !
وصورة الفتنة - كما يظهر من نظم الآيات - أنه - عليه السلام - تطلّع الى ملك أعظم وأوسع مما كان عليه ، كما دعوا من طبيعة الطمك ، فان ابن آدم لو كان له واديان من ذهب لابتغى ثالثا وهكذا .

وهذا التطلّع والاستشراف ربما استولى على ذهنه وأخذ جزءا من وقته وأدى الى نوع من التقصير في واجباته كنبى الله ورسوله .

فألقي الله على كرسية جسدا ، لا علم لنا بكنهه وحقيقته ، إلا أنه كان
انذارا أنه ان لم ينتبه من غفلته فسيسلب ملكه . ويظل على كرسية كهذا
الجسد الذى لا حراك به .

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - من الأوابية بحيث وصفه الله
- تعالى - فقال :

" ووهبنا لداود سليمان - نعم العبد . انه أواب " (١)
فتتبه سليمان لساعته . وثاب من خديته وتغلى عن أميته وآب السى
ربه فقال :

" رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينيفى لأحد من بعدى . انك أنت
الوهاب . "

أى لم تعد لى رغبة فى عظم الملك واتساعه . وانما أنا قانع منه بذلك
القدر القليل الضليل ، الذى لا يليق بشخص ولا يصلح لأحد غيرى . غيب
لى عن رحمتك . وأكرضى بعدالك . ولا تبعدنى من فضلك . ولا تسلبنى الملك
نهائيا ، فيكون ذلك دليلا على سخطك وحجة على حرمان عبدك من كرامتك .

فلما تواضع سليمان أمام ربه لهذه الدرجة . ووضع جهته على عتبة بكل
خشوع وتذلل واستكانة . رفعه الله بقدر تواضعه وأفاض عليه من نعمه وأغسق
عليه من فضله وخصه بكرامته . وآتاه ما كان يعلم به وما لم يعلم به .

هذا ما يظهر لنا من نظام تلك الآيات . والله الهادى الى سواء الصراط .
والحق أن الناس لو تصكروا بنظام الآيات لما غدع منهم من غدع بالروايات .
وما يئس منهم من يئس من الآيات .

ولعلنا الآن أصبحنا فى غنى عن التسويه بأهمية التأمل فى نظام الآيات
للكشف عن دسائس الأعداء وللتخلص من رواسيها . فقد أبدى الصريح عن الرغبة .
وقد بين الصبح لى عينين .

الفصل للمعاشرة

العزبة العاشرة

رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد في الوصول الى أصول الصحاح في القرآن ، فان جملة كبيرة من الصحاح باغوضة منه كما صرح به فريق من جملة العلماء .

فانما تأمل الباحث في نظام الآيات ورباط معانيها ، ثم وصل الى ما يجد له تأييدا في كلام النبوة وآثارها ، ازداد بذلك ثقة وارتياحا الى ما فتح الله عليه من خزائن حكمته . وازداد كذلك انشراحا واقتناعا بصحة ذلك الحديث ، الذي وجد له أصلا في تنزيله .

وهنا نذكر بعض الأمثلة من هذا النوع ، حتى تتكشف ناعية جديدة من مزايا التأمل في نظم كتاب الله وآياته .

المثال الأول :

قال نبينا - صلى الله عليه وسلم - :

" يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج " هذا الحديث يذكرنا قوله - تعالى - في سورة النور :

" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم .

ان الله خبير بما يصنعون .

" وقل للمؤمنات يخضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ولم يخرسن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا

لمبولاتهن أو آباتهن أو آبائهن أو أخواتهن أو اخواتهن أو اخواتهن

أوبنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما طلقت أيمنهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليملم ما يخفين من زينتهن . وتوجوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون . وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأما لكم . ان يكونوا فقراء يفنهم الله من فضله . والله واسع عليم " (١)

فاننا حين نعرض الحديث على تلك الآيات ، نجد كأنه مستفاد من نظمها ، فالآيتان - الأولى والثانية - تأمران المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج . ثم الآية الثالثة تأمر بانكاح الأيامى والصالحين من العباد ، حتى يتمكن هؤلاء من تطبيق هذا الحكم .

فالآية تفيد بذلك أن النكاح يكون سوانا على غرض النهر وحفظ الفرج . ثم جاء في الحديث :

" ومن لم يستلج فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء " (٢)

يبدو لنا أن هذا العلاج - لن لا يستلج النكاح - مستفاد من ذلكم قوله - تعالى - :

" ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصالحين والصالحات والحافظين فروجهم ، والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما " (٣)

-
- (١) سورة النور : ٣٠-٢٢
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٢/٩ دار الفكر - بيروت
(٣) سورة الأحزاب : ٣٥

فان السياق وضع " الصالحين والصلوات " في جنب " الحافظين فروجهم والحافظات " . ومعلوم أن البلاغة القرآنية الرفيعة لا تسرد الكلمات سردا ، بل تضع كل كلمة في محلها ، ولحكمة مرعية فيها ، بحيث لا يكون لها مكان أنسب من مكانها .

فما هي الحكمة المرعية في وضع هاتين الكلمتين ، أحدهما في جنب الآخر؟ نظن أن الجواب واضح ، فان هذا النظم يفيد أن الصوم يكبت جماع النفس ويروّضها على الطهارة والمغاف ، ويجعل المرء قادرا على غض البصر وحفظ الفرج .

وعلى هذا فنلك الجزم بأن هذا الحديث بتمامه مستفاد من نظمهم القرآن .

المثال الثاني :

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - :
" الصلاة نور " (١)

وقال - عليه السلام - :

" بشر المشركين في الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة " (٢)

حين نقرأ أو نسمع هذين الحديثين وما في معناهما ، نتذكر قوله - تعالى - :

" الله نور السموات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠٠ .
(٢) سنن أبي داود رقم ٥٦١ كتاب الصلاة .

في زجاجة . الزجاجاة كأنها كوكب دري ، يوحد من شجرة مباركة زيتونة
لا شرقية ولا غربية . يكا زيتها يضيء ولولم تحسه نار . نور على
نور . يهدي الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس .
والله بكل شيء عليم .

في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو
والأصال رجال ، لا طهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة
وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار* (١)

فهذه الآيات تفيد بنظمها أن الله - سبحانه وتعالى - هو مصدر
النور في هذا الكون . وهو الذي يمنح من يشاء هذا النور .

ومن لم يستمد منه هذا النور ، فما له من نور .

ثم هذا النور يتجلى ويشلور في تلك البيوت التي أمر الله أن تقدر
وتعظم ويذكر فيها اسمه ، وإن المساجد .

وبالمساجد هذه السورة وهذا الشرف إلا لكونها مواضع التمسلة
والتسبيح وذكر الله .

فالنظم يفيد أن الصلاة هي التي تكسب المؤمن ذلك النور الخاسر
الباهر ، السنن الوضئ . وهو الذي عبر عنه النبي - صلى الله عليه
وسلم - بالنور التام .

ثم بعد ما ينتهي التمثيل يعود السياق فيذكر التسبيح والصلاة
مرة أخرى ، ويقول :

(١) سورة النور : ٣٥ - ٣٧

* ألمتر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات . كل قد علم صلاه وتسميحه . والله عليم بما يفعلون * (١)

فهذه الايات تدل بنظمها على أن الصلاة نور . وضى التى تكسب المؤمن فى الدنيا - وستكسبه فى الآخرة - ذلك النور التام الذى يخرق عنه حجـب الظلمات . ويجعله يعيش فى عالم كله اشراق ونور .

المثال الثالث :

شرع النهى - صلى الله عليه وسلم - فى يوم الأضحى الصلاة قبل القران ، فقد روى البراء بن عازب أنه قال - عليه السلام - :

* ان أول ما نبدأ به فى يومنا هذا نطلى ثم نرجع فننحر ، فمن فصل ذلك فقد أصاب سنتنا . ومن ذبح فانما هو يذبح لله لا لله ، ليس من النسك فى شئ * (٢)

ولا يبعد أن يكون النهى - صلى الله عليه وسلم - قد استقبل هذا من ناسم قوله - تعالى - :

* فصل لربك وانحر * (٣)

فقدم الصلاة وأخر النحر حسب ترتيبهما فى نظم الآية . ونرى كذلك أنه - عليه السلام - قدّم الرعى فى الحج على النحر ، فقد روى أنس بن مالك - رضى الله عنه - : * أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتى

(١) سورة النور : ٤١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١١٤/١٣

(٣) سورة الكوثر : ٢

منى فأتى الجمرة ، فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر " (١)

ولعل السبب في ذلك أن الرمي أيضا من جنس الصلاة ، فان الله

- تعالى - سماهما ذكرا فقال عن الصلاة :

" وذكرا سم ربه فطلى " (٢)

وقال عن الرمي :

" واذكروا الله في أيام معدودات . فمن تمجّل في يومين فلا اثم عليه

ومن تأخر فلا اثم عليه . " (٣)

أجمع المفسرون على أن المراد هنا بالذكر هو الرمي .

فكما أنه - عليه السلام - قدم الصلاة على النحر رعاية لترتيبهما في

النظم فكذلك قدم الرمي في الحج على النحر لكونه من جنس الصلاة .

المثال الرابع :

روى عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - أن رجلا قال :

يا رسول الله ، ان شرائع الاسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أشبهت

به . قال : " لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله " (٤)

يفليب على ذلكنا أن ما وصفه النبي - صلى الله عليه وسلم - لذلك الرجل

استفاد من نظم قوله - تعالى - :

" ان المسلمين والنسلات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات

والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥٢/٩

(٢) سورة الأعلى : ١٥

(٣) سورة البقرة : ٢٠٣

(٤) الترمذى ، باب فضل الذكر رقم ٣٣٧٢

والمتصدقين والمتصدقات والصالحين والصالحات والحافظين فروعهم
والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا
عظيمًا * (١)

فان الله - تعالى - ذكر صفات عديدة ومتنوعة للمؤمنين ثم عدت
عليها بالذكر فقال :

* والذاكرين الله كثيرا والذاكرات *

وهذا النظم يلهم أن الذكر هو ملاك الأمر وقطب الشرائع ، فمن تشبهت
به هان عليه الأمر وأزعجت له النفس .

المثال الخامس :

عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - :

* من ملك راحلة وزادا ييلفه الى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه
أن يموت يهوديا أو نصرانيا * (٢)

ويشبهه ما روى سعيد بن منصور والبيهقي عن عمر بن الخطاب

- رضي الله عنه - أنه قال :

* لقد سمعت أن أهدت رجلا الى هذه الأصفار فينظروا كل من له جدة
ولم يحج فيضربوا عليه الجزية . ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين * - لفظ
سعيد .

(١) سورة الأحزاب : ٣٥

(٢) الترمذي رقم ٨١٢ في الحج ، باب ما جاء في التفليظ في ترك الحج .

ولفظ الهيتهى أن عمر - رضى الله عنه - قال :

" ليمت يهوديا أو نصرانيا - يقولها ثلاث مرات - رجل مات ولم يحج
ووجد لذلك سعة وخليت سبيله " (١)

بخيل الينا أن هذه الروايات وما فى معناها ناظرة الى قوله - تعالى - :
" ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للملحين . فىه
آيات بينات ، مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا . وله على الناس
حج البيت من استطاع اليه سبيلا . ومن كفر فان الله غنى عن الملحين " (٢)
فان الآية تفيد بنظمها أن حج البيت واجب على كل من استطاع اليه سبيلا ،
فمن ملك الزاد والراحلة ولم يشد رحله الى الكعبة تهاونا بها واستخفافا لأمرها ،
فهو كافر ولا شك . ولا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا أو ما شاء .
والله غنى عنه ، فهو باعراضه عن البيت لن يضر الله شيئا . وانما يضر نفسه :
" ومن كفر فان الله غنى عن الملحين "

المثال السادس :

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال :

" أقرب ما يكون المهد من ربه - عز وجل - وهو ساجد فأكثروا الدعاء " (٣)

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٧/٣ فى الهامش . الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ

(٢) سورة آل عمران ٩٦-٩٧

(٣) أبوداود رقم ٨٧٥ ، كتاب الصلاة .

نحن نرى أن هذا الحديث مأخوذ من نظم قوله - تعالى - :
 " واسجد واقترب " (١)

فإن العبارة ينظمها عدل على أن السجود يقرب المؤمن إلى ربه . فمن
 سجد اقترب إلى الله . وهذه القرينة القرينة لا تحصل إلا في حالة السجود ،
 فأنها لو كانت حاصلة في غير هذه الحالة لما ربطها القرآن بتلك الحالة .

المثال السابع :

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
 " الدعاء مع العبادة " (٢)

بيد و لنا ، حين ننظر في هذا الحديث أنه مستفاد من نظم قوله - تعالى - :
 " وقال ربكم ادعوني ، أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي
 سيدخلون جهنم داخرين " (٣)

" ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم الحساب ، وهم
 عن دعايهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم
 كافرين " (٤)

فالآيتان يمثلهما تفيدان نفس المعنى - المعنى الذى يتضمنه الحديث ،
 فإن السياق - فى الآيتين - جاء أولاً بلفظة " الدعاء " ثم تحول عنها إلى
 لفظة " العبادة " مع أن المدلول لم يتغير .
 وهذا ظمى إلى أن الدعاء والعبادة بينهما قرابة ماسية . وأن الدعاء هو جود

(١) سورة الملق : ١٩

(٢) الترمذى رقم ٣٣٦٨ فى الدعوات .

(٣) سورة المؤمن : ٦٠

(٤) سورة الأحقاف : ٥-٦

الميادة وروحها ، أو صحتها وحقيقتها .

وهناك رواية أخرى عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عمن

النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

" الدعاء هو الميادة " ثم قرأ :

" وقال ريكم ادعوني استجب لكم . ان الذين يستكبرون عن عبادتي

سيدخلون جهنم داخرين " (١)

فهذه الرواية صرحت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - استنبط هذا

المعنى من نظم الآية .

وهكذا كان رأب النبي - صلى الله عليه وسلم - فانه كان أحيانا يبتسبه

على صدره من كتاب الله وأخرى كان يتركه على فمهم الآخرين .

ونذكر هنا - على سهيل الشال - حديثا جمع بين الآخرين ، فانه - عليه

السلام - نبتة على صدره من كتاب الله وشرك بعضهم الآخر على فمهم

الحاضرين . وهذا هو نص الحديث :

" عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - :

ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل ، كان الرجل يلقي الرجل فيقول :

يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك . ثم يلقيه من

الغد فلا يمنع ذلك أن يكون أكيله وشربه وقميده ، فلما فعلوا ذلك

ضرب الله قلوب بعضهم بهمض " ثم قال : (لعن الذين كفروا من بنى

(١) الترمذى رقم ٣٢٤٤ فى التفسير باب ومن سورة المؤمن .

اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) الى قوله (فاسقون) ثم قال : كلاً والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يدي الظالم ولتأطرنّ على الحق أطراً ولتقصرنّ على الحق " وزاد في رواية " أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعننكم كما لعنهم " (١)

فترى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نبأ على سيدنا محمد من الحديث ، وهو كون بنى اسرائيل طمغونين لأنهم تركوا بينهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتخذوا والمجرمين أولياء ، وأصبحوا أكيهم وشريهم وقعيدهم ، فالآيات التي تلاها - عليه السلام - في ضمن حديثه تفيد ذلك ، إلا أنها لا تفسر الشطر الآخر ، وهو أنهم لما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ويفلب على ظننا أن هذا الشطر من الحديث استفاد من نظم تسلك الآيات :

" واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ان كنتم اعداء فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات . وأولئك لهم عذاب عظيم " (٢)

فتلك الآيات تفيد بنظمها أن الاعتصام بحبل الله والابتعاد عن الفرقة - الذي هو سرّ الفلاح وسلم النجاح - مرهون بقيام الأمة بواجب الدعوة الى الخير

(١) رواه ابوداود . رقم ٤٢٢٦ في باب الأمر والنهي .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٢ - ١٠٥

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإدانت الأمة قائمة بواجبها يتسنى لها الاعتصام بحبل الله ، وتبقى بمفازة من الفرقة ، وتميش - عاشرت - في ظلال الألفة والأخوة .

أما إذا أهملت وظيفتها ، وتخلت عن واجبها ، فلم تتأمر بالمعروف ولم تنه عن المنكر فيوشك أن يدبّ فيها الخلاف والشقاق ، ويضرب الله قلوب بعضها ببعض .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدواء لهذا الداء المضال . الذي يوهن الشعوب ويأكل الأجمال .

وهو إسرائيل لم يضنوا بهذا الدواء فاستشرى فيهم الداء ، وحل بهم الهلاك ، وآل أمرهم إلى الشقاء ، فجاءت الوصية لهذه الأمة :

" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات "

هذه بضعة أمثلة . ولقد خلت لها بعض النظائر في الفصول السابقة ولعل فيها غنى وكفاية للاقتناع بأن التأمل في نظام الآيات يساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن .

*

*

*

تلك عشرة كاملة من مزايا تتبع النظام في آي القرآن . وإن شئت فزد إليها واحدة حتى تكون أحد عشر كوكبا في هداية الحياري إلى أهمية النظام .

المزبة الحادية عشرة :

وهي أن الوقوف على نظام الآيات يؤدرك الى ذروة الشوق
والمحبة واللذة ، التي قد لا يصل اليها من لا يهتم بنظامها ، فان
هذه المشاعر ، وتلك الأحاسيس تزداد بقدر زيادة المعرفة بحاسن
الكلام وحسن النظام وقوة البرهان .

ولسنا بحاجة الى التذليل على تلك المزبة وافاضة القول فيها ،
فهي أوضح من فلق الصبح وأبين من غرة النهار .

الباب الرابع :

معالم فن الطريق

بمدا انتهيينا من تلك المزايا التي تظهر نتيجة لرعاية النظام في دراسة القرآن ، نوّد أن نضع أمام القارىء الكريم بعض المعالم الهيانية ، التي تسترعى انتباه من يمر عليها ، وتأخذ بيده . ان أراد - الى ذلكم النظام ، حتى تكون هذه المعالم حافزة للقارىء ومساعدة له ، ان كان يريد أن يواصل مسيرته في هذا المجال .

ونعنى بالمعالم تلك الاشارات والملاح التي أودعها الله في كتابه ، فانه - تعالى - لما جعل نظم هذا الكتاب في غاية الدقة والخفا - لحكم ليس هذا موضع تفصيلها - حتى أن الناظر فيه يخيل اليه باديء ندى بديء أنه لا ربط فيه ولا نظام ، ضمنه اشارات وملاح تنقض هذا الوهم ، وتدعو الباحث المتأمل الى الوقوف عليها ، ثم تهيب به الى التأمل في الوشائج التي تربط الآيات ، بعضها مع بعض .

تلك الاشارات وتلك الملاح تحت الباحث حثا على التدبر والامعان ، ولا تدعه يستقر حتى يكشف النظام ، والتالى تشرق له الآيات بحكمها ومعانيها كقلق الصبح ، وتتجلى له وشائجها كأنه يراها رأى العين . والمعالم التي أودعها الله في كتابه كثيرة لا تحصى . فحين نذكر عددا منها حتى تكون مثلا لما بعدها . وهى - لشدة وضوحها وكثرة ورودها - بحيث تكاد تلمس بالراح :

الفصل الأول

تكرار القصص

فمن تلك المعالم تكرار القصص مع تنوع الدلالة والهدف ، فان قصة واحدة تكررت في القرآن عدة مرات ، وجاءت في سور متعددة بأساليب متنوعة وألوان متميزة . فهذه قصة آدم وابليس ، جاءت في القرآن سبع مرات في سبع سور مختلفة ، ولكنها تحمل في كل سورة لونا منفردا وطبيعة متميزة . وجاءت - كلما جاءت - بايحاءات غير ايحاءاتها في مكان آخر .

هذا ، ونرى كذلك أن سورة واحدة تجمع بين قصص مختلفة بحيث يعممها لون واحد وأسلوب واحد وطابع واحد على رغم ما يفصل بينها من فترة هائلة وقرون متطاولة .

فهذه سورة الشعراء تحكى لنا بعض صارع الطفافة بحيث يلون جميعها لون واحد ، فكل واحد من تلك الصارع يبدأ بقوله - تعالى - :
 " ألا تتقون ؟ إنا أنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر . إنا أجرى إلا على رب العالمين "
 ثم ينتهى بقوله - تعالى - :

" إنا فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . إنا نرى لك لهو العزيز الرحيم "
 فهذا الأسلوب - أسلوب عرض قصة واحدة بأساليب منوعة وألوان متميزة وصياغة قصص مختلفة ومتعددة بحيث يعممها لون واحد وطابع واحد - هذا الأسلوب كما أنه يدل على أن القرآن جاء على نظم رصين ودقيق ، وأنه يتصرف فى القصة أو القصص حسبما يقتضى جوّ السورة وهدفها وطبيعتها ، فكذلك يساعد فى فهم السورة وجوّها ، ويكون محرراناً فى استيعاب هدفها وطبيعتها ، لما أنها تذكر ما تذكر من قصة أو قصص حسبما يلائم طبيعتها ويساير هدفها .
 فالتأمل فى هذه القصص - وهى كما هى فى سياقتها وجوّها - له وظيفسة كبيرة فى استيعاب نظم السورة وفى فهم ظلالها وإيحائها .

ولا بأس بأن نتأمل هنا فى بعض النماذج حتى يتبين مدى مناسبة هذه القصص لجوّ السورة وطبيعتها مع تنوع أهدافها ودلالاتها .
 إلا أن الموقف لا يسمح لنا بأن نتناول تلك النماذج بالبسط والتفصيل ، فان القصد هنا مجرد التمهيل . فنحن نكتفى بالتلميح الى بعض الملامح البارزة ، ثم نترك للقارى أن يعمم فيها الفكر ويستخرج ما أودع فيها من نفايس الدرر .

قصة آدم في سورة البقرة :

نأخذ أولاً سورة البقرة ، فقد جاءت فيها قصة آدم بلون يخصها ، فقد استهلّت القصة فيها بتلك الآيات :

• وإنّ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا . انك أنت العزيز الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * (١) .

هذه الحلقة من قصة آدم لا توجد في أي سورة أخرى غير هذه السورة .

هذا الوضع يدفعنا الى البحث عن سر هذا الاختصاص .

فحين نتأمل في هذه القصة ثم في الجوّ الذي يحيط بها نجد أن هذا

المضمون - الذي تفردت به القصة في هذه السورة - له مناسبة خاصة بجوّ السورة .

فلننظر أولاً في هذا المضمون ، الذي خصت به هذه السورة .

فالتأمل فيه يكشف لنا أن الله - تعالى - لم يأمر الملائكة بالسجود لآدم الا

بعد ما أظهر فضله عليهم من ناحية العلم . وذلك أقتضيه بأن آدم جدير حقاً بأن يكون خليفة في الأرض .

ونستخلص منه أن الخلافة في الأرض تعتمد على العلم ، فان الله - سبحانه

وتعالى - عليم ، وهو لا يرضى له علاقة الا من يكون متعلماً من العلم . فالعلم

هو الصمدة والأساس . وهو الذي يؤهل - من يؤهل - للخلافة في الأرض .

ثم حين نتجاوز هذه القصة الى جوّ السورة بشكل عام ، نجد أن هذه السورة

- في عمومها - جاءت لاثبات رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعلوم أن محمّده

- عليه السلام - كان ايذانا بنقل الخلافة من بني اسرائيل الى قوم آخرين ، لعل
أنهم ضيّموا العلم وكتّموا الحق ولبسوه بالباطل . وقد فصلت هذه الظاهرة
تفصيلا في هذه السورة .

فلما لم يتمسك بنو اسرائيل بالعلم ولم يحافظوا عليه وضيّموه باللبس

والكتمان لم تبق عندهم الا الأوهام كما قال - تعالى - :

* ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى

ولا نصير * . (١)

* ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، انك اذا لمن الظالمين * (٢)

هذا ، ثم نرى أن الله - تعالى - حين قرر أن يحول الخلافة من بسني

اسرائيل الى الأميين بحث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويحلّسهم الكتاب

والحكمة كما قال - تعالى - :

* كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويملّككم الكتاب

والحكمة ويملّككم ما لم تكونوا تعلمون * . (٣)

ثم نرى في نفس السورة أن بني اسرائيل لما قالوا لنبيّ لهم :

* امضنا لنا ملكا نقاتل في سبيل الله *

قال لهم نبيهم :

* ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا *

ودلّ على سرّ هذا الاختيار - وهو البسطة في العلم والجسم - حيث قال :

* ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي طغسه

من يشاء والله واسع عليم * . (٤)

(١) سورة البقرة ١٢٠ .

(٢) سورة البقرة ١٤٥ .

(٣) سورة البقرة ١٥١ .

(٤) سورة البقرة ٢٤٧ .

ثم لما انهزم جالوت وبعنوده ، وقتل داوود جالوت ، انتقل الملك الى داوود . والذي أهله لهذا الملك العظيم هو العلم والحكمة ، حيث قال - تعالى :-
 " فهزمهم باذن الله ، وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء " . (١)

لعل هذا القدر من الكلام يكفي لادراك المناسبة بين جو السورة وبين تلك الحلقة من قصة آدم ، التي خصت بها هذه السورة .
قصة آدم في سورة الأعراف :

ثم تنتقل الى سورة الأعراف ، التي تعرض القصة في لون آخر . قال - تعالى :-
 " وبآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فسقا وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلّاهما بهما فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما كسبتا عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين " . (٢)
 هذه السورة من القصة ذكرت في هذه السورة فقط . ولم تتكرر في أى سورة أخرى .

ثم نرى أنها تتسق تماما مع جو السورة كما أنها تناسب الآيات التي تليها مناسبة تامة .

بيان ذلك أن الشيطان ، مع ما كان يكنّ لآدم وزوجه من البغض والحسد ، فانه جاء اليهما في ثوب الناصح الأمين حيث قال لهما :
 " ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " ومن هنا خدع آدم وزوجه واغترا بنصحه حتى نزع عنهما لباسهما وخلص عنهما كرامتهما .

(٢) سورة الأعراف : ٢٢-١٩ .

(١) سورة البقرة : ٢٥١ .

ومن العجب العجيب أنهما وقعا في شبكة مكره بعد ما قد انكشف أمره
واتضح أنه لهما عدو مبين .

وهذا ما تكرر مع هؤلاء المشركين ، فان الشيطان الذي تعرض لأبويهم
في زى الناصح الأمين ، ثم نزع عنهما لباسهما تعرض لهما كذلك في نفس
الثوب ، ثم نزع عنهم لباسهم وتركهم عراة مكشوفين .^(١)

ثم هو نزع عن أبويهم الثياب وهما كانا في الجنة ونزع عنهم ثيابهم كذلك
وهم في بقعة من بقاع الجنة . ألا وهي الكعبة^(٢) فهم يطوفون بالكعبة عراة ويحسبون
أنهم يحسنون صنعا .

ثم الشيطان أتاهم وألبسهم ببعض الخبائث وحرّمهم من كثير من الطيبات
وقد مرّ تفصيلها في السورة التي قبلها ، وهي سورة الأفعال^(٣) وجاءت الإشارة
إليها في هذه السورة كذلك حيث قال :

" قل من حرّم زينته الله التي أُخرج لعباده والطيبات من الرزق " .^(٤)

(١) قال مجاهد في قوله - تعالى - : " قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم " الآية ٢٦ .

" كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة فأمروا باللباس " (تفسير مجاهد : ص ٢٣٣) وقال في تأويل قوله - تعالى - : " خذوا زينتكم عند كل مسجد " الآية ٣١ . " يعنى به قريشا لتركهم الثياب في الطواف " (تفسير مجاهد ص ٢٣٥) .

وليس هذا مقصودا على مجاهد ، فجمهور المفسرين يربطون تلك الآيات بدلوافا
المشركين عراة .

(٢) ان الكعبة بقعة من بقاع الجنة كما أن ما بين بيت النبي - عليه السلام - ومنبره
روضة من رياض الجنة . وللامام الفراهي بحث مستفيض في أن الكعبة هي التي
ستحول حوضا كوشرا يوم القيامة . ومن أراد التفصيل فليرجع الى تفسيره لسورة
الكوشر ص : ٧ تحت عنوان : " اللوامع الدالة على أن الكوشر هو الكعبة " وما حولها .

وأیضا فقد ورد النص بأن الحجر الأسود حجر من أحجار الجنة . فان كنا نقول
: " ان للحجر حكم الكل وللكل حكم الحجر " فلا مانع من أن نقول : ان كون الحجر
الأسود من أحجار الجنة إشارة وانحة الى أن الكعبة بقعة من بقاع الجنة .
وهناك دلائل أخر يمكن أن نستأنس بها ولكن الخوض فيها يبعدنا عما نحن
فيه . فنكتفي بتلك الإشارة .

(٣) انظر الآيات (١٣٦ - ١٤٤) .

(٤) سورة الأعراف : ٣٢ .

وهذا نفس ما جرى مع أبيهم آدم وأمهم حواة فان الشيطان عرضهما على الأكل من شجرة ممنوعة لم تكن في صلتهما . وذلك أخرجهما من الجنة . وقطع عنهما تلك الطيبات الخامرة التي كانا يتقلبان فيها .

ثم حصل هذا كله وهم لم ينتبهوا لعداوة الشيطان ، فانه وقر في أذهانهم أنه لهم ناصح أمين ، كما قال - تعالى - :

" انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون " (١)

وهذا نفس ما جرى مع أبيهم آدم وزوجه فان الشيطان ما زال يقتل نفس ذنورتهما وغاربهما وما زال يقرّدهما حتى أمكنهما ثم أوقفهما فيما أوقفهما فيه :

" وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بفروور "

وانما الذى يميز أبيهم عنهما أنهم تورطوا ثم تنبها وهم تورطوا فلم ينتبهوا

وقالوا حسنا ما نحن فيه !

وهكذا تدل على مناسبة هذه القصة بالآيات التي تليها .

ثم هذه القصة - كما ذكرنا - وردت في القرآن سبع مرات في سبعة مواضع ،

ولكن لم تذكر مناسبة الشيطان وآيوله : " انى لكما لمن الناصحين " الا في هذه

السورة .

وهنا يدل على مناسبة هذه القصة لهذه السورة كلها ، فاننا نرى هذه السورة

قد تكرر فيها معنى النصيحة عدة مرات على لسان عدد من الأنبياء :

فقد قال نوح لقومه :

" يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي

وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون " (٢)

(١) سورة الأعراف : ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف : ٦١ - ٦٢ .

ثم قال هود لقومه :

" يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين " . (١)

ثم قال صالح لقومه :

" يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين " . (٢)

ثم قال شمعيب لقومه :

" يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين " . (٣)

ثم جاء فى شأن النبى - عليه السلام - :

" أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة . ان هو الا نذير مبين " . (٤)

ومعلوم أن الانذار لا يكون الا بدافع النصح . فالنذير المبين " و " الناصح

الأمين " وان كانا مختلفين فى المبنى ، فانسهما متقاربان فى المسمى .

ثم التحذيرات الالهية ، التى جاءت فى هذه السورة يغلب عليها بالحساب

النصح كذلك تدبر على تلك الآيات :

" ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن

كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً

وهم نائمون ؟ ! أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ ! أفأمنوا

مكر الله ؟ ! فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون " . (٥)

ومذ لك نرى هذه السورة كأنها صيغت فى قالب النصح . وتلك ميزه من ميزات

هذه السورة ، التى لا توجد فى أى سورة أخرى ، بقدر ما توجد فيها .

فلما ذكر الوحي تلك القصة فى هذه السورة فكأنه وضع بجانب هذا النصح

-
- (١) سورة الأعراف : ٦٧ - ٦٨ .
 (٢) سورة الأعراف : ٧٩ .
 (٣) سورة الأعراف : ٩٣ .
 (٤) سورة الأعراف : ١٨٤ .
 (٥) سورة الأعراف : ٩٦ - ٩٩ .

الخالص الذى يخضع لله ورسله وأنبياءه ذلك النصح الخادع الفارغ الذى يثبته
الشيطان لهي. آدم حتى يورد دم موارد الهلاك .

ومذ لك نرى أن السورة كئيفاً تلتون القصص بطونها وتنذمها فى سلكها كما
نرى أن التأمل فى القصص يساعد فى العثور على جو وطبيعة السورة التى جماعت
ففيها .

قصة آدم - طيه السلام - فى سورة الحجر :

ثم تكررت تلك القصة فى سورة الحجر كذلك ، ولكن طبيعتها وايضا ٣تها
فى تلك السورة تختلفا عن طبيعتها وايضا ٤تها فى بقية السور . تدبر معنى تلك
الآيات :

* " واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حما مسنون . فاذا

سويته ونفخت فيه من روحى فقموا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون .
الأبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين .
قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حما مسنون . قال فاخرج منها فانك
رجيم . وان عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فأنت لئن الى يوم يعشسون .
قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزینن لهم فى
الأرض ولأفونهم أجمعين * " (١)

حين نتأمل فى تلك الآيات نجد ما يخلب عليها طابع السجود ، فان معنى
السجود لم يتكرر فى أى سورة كما تكرر فى تلك الآيات . فقد تكررت تلك الكلمة
فى مختلف صيغها خمس مرات . زد الى ذلك أن مقطع السورة أيضا جاء يحتمل
طابع السجود :

(١) سورة الحجر : ٢٨ - ٣٩ .

" ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعد ربك حتى يأتيك اليقين " . (١)

وشيء آخر نلاحظه في تلك الآيات ، هو أنها تعرض جانباً آخر من فتنة الشيطان ، فإن هذه الفتنة تختلف عن الفتنة التي مضت معنا في سورة الأعراف . فقد كانت الفتنة في سورة الأعراف كما تعرضها تلك الآيات :

" قال فيما أغويتني لأقدمن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين " . (٢)

بينما طبيعة الفتنة تختلف في هذه السورة حيث قال :

" قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين "

ومعجزة أخرى فالشيطان تحدّى في سورة الأعراف بأنه يأتي المعبود في ثوب النسخ والمودة ، فإن قوله : " لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم " يحمل هذا المعنى . وهذا نفس الأسلوب الذي جاء في شأن الأنبياء - عليهم السلام - ونصحههم لظومهم :

" إذ جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله " . (٣)

فهو يتصدى لهم كالناصح الأمين ثم يقطع عليهم الطريق ويصرفهم عن محبة الشكر ويقذفهم في هاوية الكفر كما قال :

" ولا تجد أكثرهم شاكرين "

أما في تلك السورة فالشيطان يتحدّى فيها بأنه يميل بهم إلى زينة الدنيا ،

وهكذا يستدرجهم إلى هاوية الفجوة :

" قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين "

ثم نرى مطلع السورة أيضاً يحمل هذا اللون :

" نذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون " . (٤)

(١) سورة الحجر : ٩٧ - ٩٩ .

(٢) سورة الأعراف : ١٦ - ١٧ .

(٣) سورة فصلت : ١٤ .

(٤) سورة الحجر : ٣ .

كما تطالعنا في آخر السورة تلك الآيات :

" فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " (١)

" لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم " (٢)

قصة آدم - عليه السلام - في سورة الاسراء :

ثم تجيء سورة الاسراء . وبنى تحكى لنا تلك القصة في جوّ يختلفنا

عن جوّ السور الأخرى

حيث قال :

" وان قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال اأسجد لمن خلقت طيننا . قال أرايتك هذا الذي كرمت على لكن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا . قال ان ذهب فمن تمحك منهم فان يجهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفرز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا . ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا " (٣)

فهذه السورة تعرض تلك القصة في صورة كلها ارهاب واستفزاز .

ثم ان شئت أن تقيس مدى ملاحظة هذه القصة لجوّ السورة فضع في اعتبارك

تلك الآيات :

" وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجنوك منها . واذ لا يلبثون خلافك

الا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا . ولا تجد لسنةنا تحويلا " (٤)

" ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني اسرائيل ان جاءهم فقال

له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات

والارض بصائر . وانى لأظنك يا فرعون مشورا . فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه

(١) سورة الحجر : ٨٣ - ٨٤ .

(٢) سورة الحجر : ٨٨ .

(٣) سورة الاسراء : ٦١ - ٦٥ .

(٤) سورة الاسراء : ٧٦ - ٧٧ .

ومن معه جميعها " (١)

ثم ضح بجانب هذه الآيات تلك الآيات التي مضت معنا في قصة آدم وإبليس ،
خاصة هذه الآية :

" واستفز من استطحت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم
في الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدهم الشيطان الا غرورا " .

وهناك نرى الوهي كيف صاغ تلك القصة صياغة جديدة بحيث تلائم مع هذا
الجوّ الذي يرمى بشر الأرباب والاستفزاز .

أخفا الى ذلك أن تلك الكلمة - كلمة الاستفزاز - لم تستعمل في القسرآن
الا في تلك السورة .

واستعملت فيها ثلاث مرات . مرة في قصة آدم - عليه السلام - وإبليس ،
ومرة في شأن قريش ومرة في شأن فرعون .

قصة آدم في سورة الكهف :

ثم تجيى * سورة الكهف . وتعرض القصة بحيث تمطتها لونا آخر .

" واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس . كان من الجن ففسق
عن أمر ربه . أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو . يئس للظالمين
بدلا " . (٢)

فهذه السورة تكشف لأول مرة أن إبليس كان من الجن ، والا فالسور الأخرى
كلها ساكتة عن هذا الموضوع .

فهذا الكشف لا بد أن تكون له صلة بضمون السورة . ولا بد أن يكون له دور
في تقرير هدفها . فلننظر ما هي صلته بضمون السورة . وما يعود ووه في تقرير
هدفها .

ان كان بوجدنا أن ندألع على سرّ هذا الكشف فلنستحضر في أذهاننا تلك

الآيات : " وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم .

(١) سورة الاسراء : ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) سورة الكهف : ٥٠ .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم . ان يقولون الا كذبا .^(١)

* هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ؟ فمن

(٢)

أظلم ممن افترى على الله كذبا . ! *

* قل الله أعلم بما لهثوا . له غيب السموات والأرض . أبعصر به وأسمع . ما لهم

من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا . واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك

(٣)

لا تبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا . *

* وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها

ويقول يليتتى لم أشرك بربي أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دونه الله . وما

(٤)

كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق . هو غير ثوابا وخير عقبا . *

* ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وبجملتنا

(٥)

بينهم مهقا . *

* أفحسب الذين كفروا أن ينفعوا عبادى من دونه أولياء . انا أعتدنا جهنم

(٦)

للظالمين نزلا . *

* قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد . فمن كان يرجو لقاء

(٧)

ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا . *

نستخلص من تلك الآيات أن هذه السورة يغلب عليها طابع اثبات التوحيد

ونفى الشرك فهي تعلن بأن الله ليس له ولد . وليس له شريك . ولا تبدل لكلماته .

والذين قالوا اتخذ الله ولدا ، هم كاذبون في قولهم . وما لهم به من علم ولا آياتهم .

(١) سورة الكهف : ٤ - ٥ .

(٢) سورة الكهف : ١٥ .

(٣) سورة الكهف : ٢٦ - ٢٧ .

(٤) سورة الكهف : ٤٢ - ٤٤ .

(٥) سورة الكهف : ٥٢ .

(٦) سورة الكهف : ١٠٢ .

(٧) سورة الكهف : ١١٠ .

فمن الذى كان يعنيه المشركون حين قالوا : اتخذ الله ولدا ؟

ومن هم الذين قد اتخذهم المشركون أولياء من دون الله ؟

يمكن أن نجد الاجابة على هذه الأسئلة فى تلك الآيات :

" واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس . كان من الجبن

ففسق عن أمر ربه . أفنتخذ ونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو . بئس للظالمين

بدلا . ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخففا

المضلين عبدا " (١)

تلك الآيات صريحة فى أن الكلام فى هذه السورة دائر حول الجبن ، فالعرب

المشركون كانوا يعبدون الجبن . وكانوا يقولون - كذبا وزورا - أنهم ولد الله وشريكه

فى الطك . وأن لهم وجهة عند الله . وقدرة على تبديل كلمات الله .

فتناول القرآن هذا الموضوع من عدة جوانب :

(١) ما هو مصدر علمكم بأن الله اتخذ ولدا ؟ أليس هذا قولاً بلا علم ؟ !

(٢) ان الله لم يشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . فإذا كان هذا

الخلق كله قد أنشئ وهم فى حيز السموات . بل هم أنفسهم خلقوا ، ولم

يشهدوا خلقهم ، فمن أين لهم أن يكونوا شركاء فى الطك ؟ !

(٣) ثم هم كلهم فواة . وكلهم مشاكسون . فمن أين حصلت لهم تلك الوجهة عند

الله ؟ ظما بأن الله لا يحب المضلين :

" وما كنت متخذ المضلين عبدا "

(٤) كيف طابت أنفسكم بأن تتخذوا الجبن أولياء من دون الله ؟ وهل تفكرتم يوماً

ما أن هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء ، من هم ؟ هم ابليس وذريته - أعداؤكم

وأعداء أبيكم آدم ! فكيف نسيتم ربكم الذى كرمكم وأنعم عليكم ورضيتم بعد وكسب

وعدوا أبيكم أولياء من دونه ؟ !

" أفنتخذ ونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو . بئس للظالمين بدلا "

وهنا ينكشف لنا سر هذا التصريح في تلك السورة . فانظر كيف تصـرفنا

القرآن في تلك القصة حتى تناسقت مع جو السورة تناسقا تاما .

هذا الوضع ان دل على شيء فهو يدل على ذلك المنظم الدقيق الذي

يميز القرآن من بين سائر الكلام .

ثم انظر الى التأمل في هذا التصريح كيف ساعدنا على فهم السورة واستيعاب

هدفها .

قصة آدم في سورة طه :

ثم تجيب سورة طه . وهي تلقى على تلك القصة ظلالة لا توجد في أى سورة

أخرى :

" وان قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى . فقلنا يا آدم ان

هذا عدوك ولزوجهك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى . ان لك ألا تجوع فيها ساءا

ولا تعرى . وأنتك لا تظلم فيها ولا تضقى . فوسوس اليه الشيطان . قال يا آدم

كذل أدرك على شجرة الغلد وطك لا يبلو . فأكلا منها فبدت لهما سوءا تهما وطغفا

يخصفان عليهما من ورق الجنة وصوى آدم ربه فضوى . ثم اجتياه ربه فتاب عليه وهدى .

قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو . فاما يأتينكم منى هدى فمن اتسـع

هداى فلا يضل ولا يشقى " . (١)

فالشيء الذى نلاحظه هنا في تلك القصة هو أنها سيقنت كشاهد على ضعفنا

عزيمة الانسان فان السياق قبل أن يبدأ تلك القصة يصرح بتلك الدلالة البشرية :

" ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما " . (٢)

ثم نرى في السياق تنبيها واضحا صريحا على عداوة ابليس :

" فقلنا يا آدم ان هذا عدوك ولزوجهك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى "

(١) سورة طه : ١١٦ - ١٢٣ .

(٢) سورة طه : ١١٥ .

هذا التنبيه الواضح الصريح على عداوة ابليس بهذا الأسلوب المكشوف
لا نرى في أي سورة أخرى .

ولكن هذا الانذار لم يفتن عن آدم شيئا ، فان ضعف العزيمة ظهر
بنتائج السيئة . ووقع آدم فريسة لكيد عدوه . ونسى ما أنذره ربه . فيصنع
السياق بما وقع من آدم بأسلوب مشير ، تشعير فيه بشي * من سخونة الصواب :
* وعصى آدم ربه فغوى *

هذا التصريح بعصيان آدم وفوايته لا نجد في أي سورة أخرى .
ثم تظهر لنا مناسبة تلك القصة بجمو السورة حين نرى في هذه السورة
أن بنى اسرائيل أيضا أنذروا بمثل ما أنذر به آدم . ثم وقع منهم مثل ما وقع
من آدم . تدبر معنى تلك الآيات :

* يا بنى اسرائيل قد أنبيناكم من عدوكم ، وواعدناكم بجانب الطور الأيمن
ونزلنا عليكم المن والسلوى . أكلوا من أموات ما رزقناكم ولا تطغفوا فيه فيحمل اليكم
غضبى . ومن يحمل عليه غضبى فقد هوى * (١)

فلما ذهب موسى لصينات ربه فوجد * هناك بهذا النيا المؤسف :

* قال فانا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى *

ثم لما رجع موسى الى قومه قرعهم بحصا الملاية وعذبهم على سرعة تكذيبهم

وتحلل عزيمتهم واخلاف موعدهم بعد هذا الانذار الصارخ الصريح حيث قال :

* يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا . أفظال عليكم العهد أم أردتم أن يحل

عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ * (٢)

ما أشبه الليلة بالبارحة ! فهل تجد أى فارق بين ما جرى لبنى اسرائيل

مع السامرى وبين ما جرى لآدم مع ابليس ؟

(١) سورة طه : ٨٠ - ٨١ .

(٢) سورة طه : ٨٦ .

ثم هناك شيء آخر . فان النبي - عليه السلام - لما أظهر رغبته الحارصة
فى نزول القرآن فى أسرع وقت حتى يروى نغمه ويثلىج به صدره ، لم تستجب حكمة
الله تلك الرغبة نظرا الى ضعف اعزيمة الانسان ، الذى تمثله قصة آدم - عليه السلام -
وأمره بالصبر واستزادة العلم :

" فتعالى الله الطاك الحق . ولا تصجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك
وحيه . وقل رب زدنى علما . ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له
عزما . " (١)

وهناك شيء آخر يجدر بالانتباه ، فان السياق يقول فى مطلع السورة :

" طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى "

ثم يقول فى تلك القصة :

" ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى "

ثم يقول بسم خصص آيات :

" فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى "

فاستهلت السورة بنفى " الشقاء " ثم كررت تلك الكلمة فى هذه القصة مرتين .

اليس هذا دليلا على أن هناك شيئا يريدك تلك القصة بمطلع السورة ؟

قصة آدم فى سورة " طه " :

ثم تجيى " سورة ص " وهى تلبس القصة ثوبا فضاها من المزة والكبرياء

والجبروت . تدبر معنى تلك الآيات :

" ان قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه

من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا ابليس . استكبر

وكان من الكافرين . قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي . أستكبرت

أم كنت من المالين . قال أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طين . فسأل

فاخرج منها فانك رجيم . وان طيك لمننى الى يوم الدين قال رب فأنظرنى الى يوم

(١) سورة طه : ١١٤-١١٥ .

يسمئون . قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال فبِعزتك لأغوينهم
أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأنَّ
جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين * (١) .

حين نضع تلك القصة - كما ذكرتها سورة "ص" - في جنب مطلع هذه السورة

نجد بينهما وجوها من المناسبة .

(١) فابليس لم يسجد لآدم وقال : "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته مسن
طين * . أليس هذا نفس ما قاله طواغيت قریش لنبينا محمد - عليه السلام - :
" أنزل عليه الذكر من بيننا * ١١٢ ! فابليس كان مخمورا بفرور الجنس والنسب ،
وهؤلاء كانوا مخمورين بفرور الجاه والمال .

(٢) ثم قال الله - تعالى - لابليس حين رفض أن يسجد لآدم :

" يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ أستكبرت أم كنت دسيس
العالين * ١٢٠ أي الاستكبار عن السجود لآدم ، وان كان بيد وفي يادي
النظر أنه استكبار بجنس أمام جنس ، أو استكبار بخلق أمام خلق . ولكن
الأمر - في الواقع - أكبر من ذلك . فهو استكبار الخلق أمام الخالق ، واستكبار
العبد أمام الرب . ولذلك لم يقل : " ما منعك أن تسجد لآدم * ؟ وإنما
قال : " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي * .

فلا استكبار عن السجود لآدم يعتبر استكبارا وتردا أمام الله ، فإنه هو الذي
خلقه بيديه ، ثم أمر بالسجود له .

والوضع القائم بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وقادة المشركين لم يكن يختلفا
عن ذلك ، فإن مخالفة النبي لم تكن مخالفة شخص لشخص . وإنما كانت تحديا
صارحا للحاكم هذا الكون . وغروجا مباشرا على ملكه وسلطانه . ولذلك قال :

" أم عند هم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما
بينهما فليرتقوا في الأسباب * (٢) .

(١) سورة ص : ٧١ - ٨٥ .

(٢) سورة ص : ٩ - ١٠ .

(٣) ثم نرى في القصة أن الشيطان مع غاية ترمده واستكباره يمتزج بالله بالمرزة ، ويفرد به هذه الخصيصة فيقسم بها :

” قال فبصرتك لأخوينهم أجمعين ”

أما هؤلاء المستكبرون ، فهم - في علوهم واستكبارهم - فاقوا الشيطان ووطئوه بالأعقاب فهم ينازعون الله عزته وكبرياءه :

” بل الذين كفروا في عزة وشقاق ”

(٤) ثم نرى في القصة استغنا * وبالإلا يرتجف له القلب ويقشعر منه الجلد :

” قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ”

وهذا في مقابل الجحود والاستغنا * الذي أحضره الطفافة ، إذ حكى

الله موقفهم فقال : ” واندلق الملائمهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم . ان

هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . ان هذا

الا اختلاق ” .

* * *

لعل هذا الاستعراض الغاطف السريع يكشف للاقتناع بأن تكرار القصص

في القرآن له وظيفة ، خاصة وله دلالات وإيحاءات . فهذا التكرار كما أنه يندب عن نظم القرآن المصير ، ويرشد إلى حكم ومعارف أودعت في هذا النظم ، فنكذلك يساعد الباحث المتأمل في فهم طليحة السورة وندلماها .

أما القول القائل بأن المقصود به هو التأكيد والبالغة في التذكير فهذا

قول لا ترتاح إليه نفس الباحث . وكذا القول القائل بأن المقصود به هو الانسادة

والتغطية على الحادث بجوانبه المختلفة فانه لو كان القصد من تكرار القصص هذا

أو ذاك لكان ذكرها بكل تفاصيلها وجميع مؤكدااتها في موضع واحد أولى وأجدي

من تفريقها في سور مختلفة ومواضع متعددة .

الفصل الثاني

تشابه الآيات

ومن تلك المحالِم ، التي تقود الباحث الى النظم ، تشابه الآيات ، فقد ذكر الله - تعالى - في وصفه هذا الكتاب ، أنه كتاب متشابه مثنى ، حيث قال - تعالى - :

" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثنى " . (١)

فهذا الكتاب يشبهه بعضه بعضا ، وقد ثبتت موضوعاته وصرفت مرة بعد أخرى . فان أجمل شيء في موضع ، فقد فصل في موضع آخر . وان ذكر جانب في سورة فقد ذكر جانب آخر في سورة أخرى . وان نبه على حقيقة بأسلوب فقد نبه عليها بأساليب متنوعة في مواضع أخرى .

فان اشتبهت عليك آية فارجع الى آية أخرى تشابهها ، وان أشكل عليك أسلوب ، فارجع الى أسلوب آخر . فكشفنا لك الآيات بان الله بكسب معانيها وصلاتها التي تربط بعضها ببعض .

وقديما قال العلماء : القرآن يفسر بعضه بعضا . يقول الزركاني - رحمه الله - :

" قيل أحسن طريق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر وما اختصر في مكان فانه قد بسط في آخر " . (٢)

ويقول الفراهي - رحمه الله - :

" في القرآن آيات متجانسات مشتركات في مضامينها . ولكن في بعض منها تفصيل أمر واجمال أمر وفي بعضها تفصيل ما أجمل في مثلها واجمال ما فصلت في غيرها ، فاستقص المطائلات تجد معناها وربطها " . (٣)

(١) سورة الزمر : ٢٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢ / ١٢٥ .

(٣) دلائل النظام ص ٥٩ .

ويقول - رحمه الله - :

" أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف على أن القرآن يفسر بعضه بعضا . وأنه أوثق تمويلا وأحسن تأويلا .

فنقول كما أن القرآن يفسر ما لا يفسر آياته بعضها ببعض فكذلك يدل على نظام مطالبها ومناسبتها بما يأتيك بندها غيرها . فيكثر الشواهد على رباط أمر مع أسر . وذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينهما ، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة ، بعضها أوضح من بعض ، حتى يدرج بك إلى ما كان أدق وأغمض " . (١)

ونذكر هنا مثلا يزيد الأمر وضوحا ويساعد في فهم الموضوع . قال - تعالى - :

" ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق . ذلك يوم الخزون " . (٢)

حينما يمر بتلك الآيات من يهتمّ بنظامها يثور في ذهنه سؤال :

(١) دلائل النظام ص ٧١ .

(٢) سورة ق : ٣٨ - ٤٢ .

ما هي العلاقة بين خلق السموات والأرض وبين الصبر على ما يقوله القائلون ؟ وما هو الذي يقوله القائلون ؟ وما هو سبب التصريح هنا بأنه ما سئ من لغوب ؟ ثم ما هو الربط بين توصية الصبر والتسبيح وبين قوله - تعالى - : واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب " ؟

تلك أسئلة لا بد أن تثور في ذهن الباحث حينما يربطك الآيات . ولكننا حين نضع بجانب تلك الآيات آيات أخرى تشابهها ، تكشف تلك الآيات كأن لم يكن هناك سؤال ولا أشكال . تدبر معنى هذه الآيات :

" ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عدلًا ما عرفنا أناسا لهموثون خلقا جديدا . أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم . ويجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا " (١)

" أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يخلقهم بقادر على أن يحيى الموتى . بلى انه على كل شيء قدير . ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، ألهم هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . " (٢)

حين نتأمل في تلك الآيات في ضوء هذه الآيات المسائلات يزول عنا كل سؤال وكل أشكال فان هذه الآيات صريحة في أن خلق السموات والأرض دليل على قدرة الله - تعالى - على البحث ، فان الذي خلق هذا الكون الواسع

(١) سورة الاسراء : ٩٨-٩٩

(٢) سورة الأحقاف : ٢٣-٢٥

العجيب ولم يعي بخلقه وما سه من لغوب كيف يعجز عن خلق الانسان بعد
أن يموت؟ وكيف يتصور من عاقل أن يقول :

" أذا متنا وكنا ترابا ذلك رجوع بعيد ؟ ! "

" أذا كنا عظاما ورقاتا أنا لمعوثون خلقا جديدا ؟ ! "

فهذا الاستدلال جاء واضعا صريحا في الآيات التي ذكرناها من سورة
الأحقاف وسورة الاسراء ، فان الخطاب فيها موجه الى المشركين ، الذين قد عميت
أبصارهم وماتت لهم ، فكانوا بحاجة الى أن يفصل لهم القول ويصرح لهم بالدعوى
والدليل .

أما الآيات التي في سورة " ق " فقد وجه فيها الخطاب الى النسبي
- صلى الله عليه وسلم - بعد الزام الحجة للمشركين . فلم تعد حاجة النسبي
التصريح بالمدلول بعد ذكر الدليل ، فان فطرته الذكية الألفية كانت كما
قال الله - تعالى - :

" يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار "

فكان - عليه السلام - يرى الكثير في القليل وكان يشم المياه في الرياح . ولم يكن
بحاجة الى أن يفصل له القول أو يصرح له بالمراد .

والجملة فكان الأمر هنا كما قيل : " العبد يقرع بالعصا والحمر تكفيسه

الأشارة "

ثم بعد التلويح بدليل البعث أرشده السياق الى الصبر والصلاة فان

أردنا أن نفصل هذا الاجمال ونفصح عن رباط الآيات فيمكن أن نقول :

" ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب

(فهل نعجز عن خلقهم بعد موتهم كما يقول هؤلاء المستكبرون : " أذا متنا

وكنا ترابا ذلك رجوع بعيد) فاصبر على ما يقولون وسيح بحمد ربك قبل طلوع

الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسيحه وأدهار السجود (وهذا مثل ما جاء في
سورة البقرة كسلاح للمؤمن في جو يسوده الصراع والعناد " يا أيها الذين
آمنوا استمعنوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين " أى ان كنا قادرين
على خلق هذا الكون الهائل بدون أن يعترينا من عي أو يمنا من لغوب فماذا
يمجزنا عن بعضهم بعد موتهم ؟ فلا يحزنك انكارهم واستهزاؤهم واستعصان
بالصبر والصلاة على أذاهم . وارتقب ذلك اليوم الموعود ، وما هو عنهم ببعيد)
ونرى مثل هذا النظم في الآيات التي مضت معنا من سورة الأحقاف فانها
تستدل أولا على وقوع الهمم بوجود هذا الكون الهائل الزاخر ثم ترشد النبي
- عليه السلام - الى التمسك بالصبر :

" فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم "

الفصل الثالث

العمود على الهدء

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظم ، العمود على الهدء ، فاننا كثيرا ما نرى في القرآن أنه يأخذ في معنى من المعاني ، فبينما هو في—ه
ان أخذ في معنى آخر غيره ، ثم ينجر منه الى معنى آخر ، ومنه الى آخر ، ثم يرجع الى ما بدأ منه . وليس هذا الانجرار من معنى الى معنى الا لرابطة تربطهما ولحكمة بلاغية تجمع بينهما .

يقول الامام الفراهي - رحمه الله - :

" انى رأيت في ترتيب كلام الله ، وله العمود على ما أرانى ، أن الكلام يجر من أمر الى أمر وكله جديراً أن يكون مقصداً ، فيشفي الصدور ويجلو القلوب ، ثم يعود الى الهدء فيصير كالحلقة " (١)
ويقول - رحمه الله - :

" من عادة العرب وفطرة البلاغة أن ينجر الكلام من أمر الى أمر ، ومنه الى أمر آخر ، ثم يعود الى الأول أو الى الوسط حتى يعود الى الأول أو الى ما يتصل به . وإذا كان المخاطب عالماً بأسباب الكلام لم يشكل عليه نظمه " (٢)
وهذا الاسلوب شائع مطرد في القرآن . واليك بعض الأمثلة :

(١) قال الله - تعالى - في أول سورة المتحنة :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء "

ثم ختم السورة بما بدأها به فقال :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم "

(١) دلائل النظام ٤٥

(٢) دلائل النظام ص ٥٥ في الهامش

(٢) وقال - تعالى - فى أول سورة الحشر :

" سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم "

ثم ختم السورة بما بدأها به فقال :

" يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم "

(٣) وبدأ - تعالى - سورة الاسراء بذكر موسى - عليه السلام - وبنى اسرائيل ،

فقال :

" ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من

دونى وكيلاً ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكوراً . وقضينا الى

بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً "

وهكذا استمر ذكر بنى اسرائيل الى بضع آيات ، ثم انجز الكلام الذى

موضوعات أخرى ، وأخذ فى جوانب شتى . ثم قبل أن تنتهى السورة بمسار

الكلام على بدئه ، فقال - تعالى - :

" ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئلك بنى اسرائيل ان يرادهم فقال

له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحوراً . الآيات "

(٤) وفى نفس السورة نرى الله - تعالى - ذكر بعض الوصايا والأحكام ، فهذا

بالتوحيد حيث قال :

" لا تجعل مع الله الها آخر فتقمذ مذموماً مخذولاً " (١)

ثم لما انتهت هذه الأحكام والوصايا ، عاد الى ما بدأها به مرة أخرى

فقال :

- " ولا تجعل مع الله لها آخرا فلتقى في جهنم طوما مدحورا " (١)
- (٥) ذكر الله - تعالى - في مستهل سورة المائدة فقال :
- " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير على الصيد وأنتم حرم . إن الله يحكم ما يريد "
- ثم قبل أن تنتهي السورة عاد الكلام على بدئها فقال - تعالى - :
- " يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم وربما معكم . يعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم .
- يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم الآية " (٢)
- (٦) ذكر الله - تعالى - في مستهل سورة " المؤمنون " بعض صفات المؤمنين المفلحين . فبدأ تلك الصفات بذكر الصلاة فقال :
- " قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون "
- ثم أخذ في صفات أخرى . وبعد ما انتهى منها عاد إلى ما بدأها به فقال :
- " والذين هم على صلواتهم يحافظون " (٣)
- (٧) وهكذا نرى في سورة المصاح " ، فإنه بدأ صفات المؤمنين بالصلاة فقال :
- " إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون "
- ثم ختمها بما بدأها به فقال :
- " والذين هم على صلاتهم يحافظون " (٤)

(١) سورة الاسراء : ٢٩

(٢) سورة المائدة : ٩٤ - ٩٥

(٣) سورة المؤمنون : ٩

(٤) سورة المصاح : ٢٤

هذه بعض الأسئلة . والا فالقرآن حافل بأسئلة هذا الأسلوب . وهذا الأسلوب يجب أن يكون موضع اهتمام كبير واعتناء بالغ في دراسة القرآن والبحث عن روابط الآيات ، فان عود الكلام على بدئه يدل على أن الموضوع ، الذى بدأ به الكلام ، مازال مستمرا . ويدل كذلك على أن ما تخلل هذا الكلام من موضوعات أخرى ، له صلة وثيقة بالموضوع الرئيسى ، الذى يدور حوله الكلام .

نأخذ - على سبيل المثال - سورة الممتحنة ، فانها - كما سبق معنا - استهدت بقوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء "

ثم ختمت بقوله - تعالى - :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم "

فعلنا من ذلك أن الموضوع الرئيسى لهذه السورة هو عدم الولاء

لأعداء الله .

وعلمنا كذلك أن ما تخلل هذا الموضوع الرئيسى من موضوعات أخرى ، إنما جاء كله ليعخدم هذا الموضوع ويبرز عماله وحدوده .

فما جاء ذكر إبراهيم وأصحابه فى تلك السورة الا ليكونوا أسوة للمؤمنين

فى عدم ولائهم لأعداء الله .

ثم جاءت تلك الآيات :

" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين . إنما

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظانوا

على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون "

وما جاءت تلك الآيات إلا لتجلى الموضوع الرئيس وتبرز حدوده ، حتى يعرف المؤمنون مدى صلاحياتهم ، ويعرفوا مواضع لينهم وشدتهم ، ويعرفوا مواضع حربهم وسلمهم . فلا يسوقوا الناس بمصا واحدة . ولا يلقبوا ظهر المعين إلا لمن يقشر لهم المصا .

ثم جاء الأمر بامتحان المهاجرات ، وعدم رجعهن إلى الكفار ، وعدم الإصاك بمصم الكوافر وما إلى ذلك . وهذا كله داخل ضمن عدم الولاء للكفار ، فإنه لما جاء النهي عن الولاء لأعداء الله فلا بد أن تفصل الزوجة المسلمة عن زوجها الكافر والزوجة الكافرة عن زوجها المسلم فإن وشيجة النكاح من قبيل الولاء ، بل عن أشد من الولاء .

ثم جاءت آية المبايعة ، أعنى قوله - تعالى - :

" يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيمنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهياتن يفتريتهن بسنين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبأيمنهن واستغفر لهن الله . إن الله غفور رحيم "

وما جاءت تلك الآية إلا كمصيار دقيق لمن يستحق الولاء . فالذي يبأيح على هذه الأمور ويتقيد بتلك البنود فهو يعتبر مسلما حقا . ويستحق من الجماعة المسلمة الحب والمودة والولاء . ومن أبى فهو ليس من أهل الولاء . ولذلك لم يخص النبي - صلى الله عليه وسلم - تلك الآية بالنساء . بل كان يضع تلك البنود أمام الرجال كذلك . وكان يبأيح من يبأيمه عليها .

فقد روى عن عباد بن الصامت - رضى الله عنه - قال أخذ علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أخذ على النساء ، أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا يعصه بمضنا بمضنا - وفي رواية :

ولا ننتهب ولا نمصى - فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أتى منكم
 حداً فأقيم عليه فهو كفارته . ومن ستره الله عليه فأمره الى الله ان
 شاء عذبه وان شاء غفرله " (١)

وبعد ما انتهت تلك الموضوعات التي كانت تخدم الموضوع الرئيس لهذه
 السورة عاد الكلام على بدءه مرة أخرى اشعاراً لأهميته وتبهيها على مخاطورته
 فقال :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم الآية " .
 وبالجملة فهذا الأسلوب - العود على البدء - أسلوب شائع في القرآن .
 وله أهمية كبيرة من ناحية تتبع النظام .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٢٢٣-٢٢٤)

الفصل الرابع

الاتحاد في الفواتح والأسماء

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظام ، الاتحاد في الفواتح والأسماء ، فإنه يدل على التقارب في النظم والموضوع .

فسورة البقرة وسورة آل عمران - مثلا - يجمعهما اسم واحد ، فكلاهما سميتا " بالتم " واستهلتا " بالتم " :
 " ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه "
 " ألم . الله لا اله الا هو الحي القيوم "

فكلما نطو هاتين السورتين بيد ولنا كأنهما توأمان لشدة تقاربهما فسمى النظم والموضوع .

فالأولى سورة الايمان والأخرى سورة الاسلام . يقول الامام الفراهي - رحمه الله - :
 " سورة البقرة سورة الايمان المطلوب . وهو الايمان ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - فجمعت دلائلها .

وسورة آل عمران سورة الاسلام ، وهو طاعة النبي - صلى الله عليه وسلم -
 فهي أشبه بالسابقة ، لما أن الاسلام انما هو الجانب الظاهر من الايمان .^(١)

ولا بأس بأن نذكر هنا ما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في وصف هاتين السورتين فقد روى النوّاس بن سمان الكلابي ، قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول :

(١) دلائل النظام ص ٩٢

" يوتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقده سورة البقرة وآل عمران .

وضرب لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد . قال كأنهما غمستان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حزقان من طير صواف تماجان عن صاحبهما * (١)

ولقد سماهما النبي - صلى الله عليه وسلم - " الزهراوين " فقال :
" اقروءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران * " (٢)

فترى النبي - صلى الله عليه وسلم - كيف جمعهما في الوصف والتمثيل ، فأغثار لهما وصفا واحدا ومثلا واحدا . وناهيك به شأنا على شدة تقاربهما وغاية تناسبهما .

وليس هذا مقصورا على سورة البقرة وآل عمران ، فالسور التي يجمعها اسم واحد أو فاتحة واحدة ، كلها هكذا .

فترى - مثلا - سورة المؤمن وسورة هم السجدة ، وسورة الشورى ، وسورة الزخرف وسورة الدخان وسورة الجاثية ، وسورة الأحقاف ، كل هؤلاء السور يجمعها اسم واحد وفاتحة واحدة فانها كلها افتتحت هكذا بالترتيب :

- ١- " حمّ . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . "
- ٢- " حمّ . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . "

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٦ / ٩٠ ، ٩١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦ / ٩٠

٣- " حمّ . عسق . كذلك يوحى اليك وإلى الذين من قبلك لعلهم العزيمز
الحكيم . "

٤- " حم . والكتاب الصميين . انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . "

٥- " حم . والكتاب الصميين . انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين . "

٦- " حم . تنزيل الكتاب من الله للمعزيمز الحكيم . "

٧- " حم . تنزيل الكتاب من الله المعزيمز الحكيم . "

فاذا مررنا على تلك السور وأنعمنا النظر في نظمها وموضوعها وجدناها
مقاربة في النظم والموضوع . ووجدناها متشابهة فيما بينها شبه الماء بالماء
وشبه الثمرة بالثمرة ، فانها - على رغم تمايزها واختراقها من بعض النواحي - متحدة
في طبيعتها وجوهرها ومتمدة في موضوعها الرئيس الذي يدور حوله الكلام ، وهو
انذار للمستكبرين للكاذبين بالقرآن والجزاء . ووجد الفتح والنصر للمؤمنين
الصابرين على المحنة والبلاء . ويهدو من أسلوها ولهجتها أنها كلها نزلت
قبيل الهجرة .

وهكذا الحال في بقية السور التي تشترك في الفواتح والأسماء ، فانها
جدّ مقاربة في نظمها وموضوعها .

فكل من أراد تتبع النظام فلا بدّ أن يضع في اعتباره هذه النقطة ، فانه
اذا جمع تلك السور في تلاوتها وتدبرها ، وألقى عليها نظرة شاملة تيسر له
المشور على نظمها وموضوعها ، واذا انقادت له سورة فستتقاد له أخرى .

الفصل الخامس

الاتحاد في اللسـون

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظام ، الاتحاد في اللسـون .
 فان الله - تعالى - جعل هذا القرآن كالمدة حافلة بألوان الطعام . وكل طعام
 له طعم خاصّ ولون خاصّ ومضه أشهرى من بعض .

فاذا قرأت القرآن وصرت عليه من أوله الى آخره ، وجدت كل طائفة من
 السور لها طعم خاصّ ولون خاصّ .

فالسور التي تعرف " بحواميم " - مثلا - لها طعم ولون يميزها عن
 أخواتها من السور .

والمصححات - السور التي استهلّت " بسبح " أو " يسبح " - لها طعم
 ولون لا يوجد في غيرها .

وهكذا الطائفة التي تهديء من سورة " ق " وتنتهى بسورة " الواقعة " .
 لها طعم خاص ولون خاص ، لا يخفى على من يتذوق اللسان . أو أوتى حظاً
 من حاسة البیان .

وطى هذا القياس .

فاذا مررنا على طائفة من السور ووجدنا لها طعماً خاصاً ولوناً خاصاً
 فلنكن واثقين بأن هناك وشائج تربط بعضها ببعض ، وأن لها ميزة خاصة تميزها
 عن غيرها .

فلننظر هناك الوقوف ولننضم فيها النظر فسينكشف لنا - بإذن الله -
 من ربطها ونظامها ما تقرّ به المين وينشرح له الصدر .

الفصل السادس

تكرار كلمات خاصة

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظام ، تكرار كلمات خاصة في سورة من السور ، فان من رأب القرآن أنه يراعى غاية الدقة في اختيار الكلمات . فاذا وقع اختياره على كلمة خاصة لمكان معين ، وردّها مرة بعد أخرى ، فهذا يدل على أن لها صلة خاصة أو مناسبة خاصة بذلك المكان . وهذا الشيء يساعد في فهم طبيعة السورة وجوّها ويساعد في التماس الربط بين آياتها .

نأخذ - مثلا - تلك الآيات :

" قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن ما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنني ان شاء الله صابرا . ولا أعصي لك أمرا . قال فان اتبعمتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها - قال أخرقتها لتفريق أهلها لقد جئت شيئا امرا . قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا . قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقهه . قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا . قال ان سألتك عن شيء بعد ما فلا تصاحبني . قد بلغت من لدني عذرا . فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهم فوجدوا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بيني وبينك سأنهلك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . "

(١)

ثم قال بعد ما نبأه بتأويله :

" ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا " (١)

فتلك سبع عشرة آية ، تكررت فيها كلمة " الصبر " سبع مرات .

أليس هذا الوضع يلون الجوّ بلون الصبر ، ويوحى الى القارىء أن تلك الآيات ما جاءت الا لتعليم الصبر وتركيزه في النفس ، فان الانسان خلق عجولا . ويشقّ عليهما أن يصبرا الى أن يأتي أمر الله .

ولننتبه للملاغة القرآنية الرفيعة ، كيف نهتت على هذا الاستمجال وقلّة

الصبر ، الذي طبع عليه الانسان حيث كرّرت :

" انك لن تستطيع معي صبرا "

ثم قالت ، بعد ما انتهت من القصة ، :

" ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا "

فأسقطت " التاء " من " تستطيع " وجاءت به " تسطع " دلالة على تفاهة

الأمر الذي لم يصبر عليه موسى ، حتى فاض كأسه مرة بعد أخرى .

ثم نمضى خطوة أخرى ونرجع البصر كرتين في مضامين تلك السورة فنجد

أنها ترمي الى تشير المؤمنين وتأكيد هم بالصبر الى أن يأتي وعد الله . ونسرى

أن تلك السورة تتلخص في قوله - تعالى - :

" وربك الغفور ذو الرحمة . لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم المذاب .

بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا . وتلك القرى أهلكتنا بما كذبوا

وجعلنا لهم موعدا " (٢)

(١) سورة الكهف : ٨٢

(٢) سورة الكهف : ٥٨ - ٥٩

فترى أن التأمل في تكرار كلمة الصبر كيف عرج بنا الى غاية السورة وعند فها
ومهد لنا الطريق الى نظام آياتها وروابط معانيها .

وهكذا نرى - مثلا - تكرار كلمة " النصح " في سورة الأعراف أو تكرار
كلمة " الاستغزاز " في سورة الاسراء أو تكرار كلمة " التسييح " في المسبحات
أو تكرار كلمة " الاسلام " في سورة آل عمران وتكرار كلمات أخرى كثيرة في سور أخرى
متعددة .

ولا شك أن لهذه الكلمات دلالتها الخاصة في تحديد طبيعة السورة
وابراز نظامها .

الفعل السابع

دلالة الروابط

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى رباط الآيات ، دلالة الروابط ،
فان الروابط تشير الى كون الآية مرتبطة بما قبلها ، وتحت الباحث حثاً على التعاس
وجوه الربط لها .

لنأخذ - مثلاً - قوله - تعالى - :

" ألم ترالى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال
ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت . قال ابراهيم
فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فهبت الذى
كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين " (١)

قد يظن الظان هنا أن هذا كلام مستأنف . وأن تلك الآية لا صلة
لها بما قبلها ، ولكنه حينما يصل الى قوله - تعالى - :

" أو كالى من على قرية وهى خاوية على عروشها الآية "

يجد نفسه مضطراً الى أن يتراجع عن هذا الظن ، فان تلك الآية جاءت
كالمثل ، كما يدل عليه " ك " فى " كالى " ثم " أو " هذه تقتضى أن يكون
ما قبلها - وهو ما عطف عليه الآية - أيضاً بمثابة المثل ولا محالة ، فان المشمل
لا يكون قرينه الا المثل . وإذا تجسست العبارة هكذا :

(١) سورة البقرة : ٢٥٨

" كالذي حاج إبراهيم في ربه أو كالذي مرّ على قرية " .
وهذه الرابطة أعني " ك " تقسره تفسيراً على أن يهبط تلك الآيات بما قبلها
ولا يهدأ له بال حتى يطمئن إلى تأويلها .

ولقد خالجت خلد المفسرين - رحمهم الله - هذه الرابطة ، ولكنهم
لم يأخذوها بجذّ إلا من رحم ربك . يقول الامام القرطبي - رحمه الله -
" قوله تعالى : (أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها)
" أو " للمطف حملاً على المعنى والتقدير عند الكسائي والفراء : تسئل
رايت كالذي حاج إبراهيم في ربه ، أو كالذي مرّ على قرية . وقال
المبرد : المعنى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ، ألم تر من
هو ! كالذي مرّ على قرية ، فأضمر في الكلام من هو " (١)
المشكلة في مثل هذه الآيات أن المفسرين - رحمهم الله - يجعلون
زمامهم بيد النحاة .

فهم يسمرون معهم حيثما ساروا ويدورون معهم حيثما داروا ، مسع
العلم بأن هؤلاء النحاة انما يقيسون الآيات حسب مقاييسهم النحوية . واذنا
اطمانوا اليها من هذه الناحية ، فهو حسيهم وكفى . ولا يمنهم أكثر من ذلك .
انهم لا يتذكرون أهدا أن القضية ليست قضية اكمال العبارة باظهار
مضراتها / فقط ، حتى يتصرفوا فيها كيفما شأوا . وانما القضية قضية البلاغة
القرآنية الرفيعة ، التي أحرست الجن والانس .
وهذه نكتة لا بد أن نضعها في اعتبارنا فان الذمول عنها خسرتنا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢٨٨ .

كثيرا وأخرنا من تذوق البلاغة التي يمتاز بها قرآنا .

انه ليس من همنا أن نستقيم الآيات حسب قواعد النحو ، فان قواعد النحو كثيرا ما تنجز عن صايرة البلاغة القرآنية .

وانما الذي يهمنا أن نهدي الى حسن تأويلها مع الحفاظ على روعة بيانها وبلاغة أسلوبها .

فما هو تأويل الآيات اذا بحيث تبقى روحها وبلاغتها . وتكون الرابطة أيضا قد روعيت ووقّيت حقها ؟

نحن نرى أن صاحب تفسير المنار كان موفقا في تفسير هذه الآية از قال :

" قال الأستاذ الامام - وعزاه الى المحققين - الكلام متصل بما قبله وشاهد عليه كأنه يقول انظروا الى ابراهيم كيف كان يهدي بولاية الله له الى الحجج القيمة والخروج من السموات التي تعرض عليه فيظل على نور من ربه ، والى الذي حاجه كيف كان بولاية الطاغوت له يعمى عن نور الحجة ، وينتقل من ظلمة من ظلمات الشبه والشكوك الى أخرى " (١)

ثم يقول في تفسير قوله - تعالى - : " أو كالمذي مرّ على قرية الآية " :
" للمفسرين في الآية قولان . أحدهما أن هذا الذي مرّ على القرية كان من الصديقين أو الأنبياء . وثانيهما أنه كان من الكافرين ، وهو ضعيف

(١) تفسير المنار ٣/٤٥-٤٦

لأن الكافر لا يؤيد بآيات الله فالكلام على الوجه الأول - ونحو الصحيح -
 - مثل لهداية الله - تعالى - للمؤمنين واخراجهم من الظلمات إلى
 النور ، كما كان شأن إبراهيم مع ذلك الكافر * (١)

ثم يقول في تفسير قوله - تعالى - " وان قال إبراهيم رب أرنس
 كيف تحيي الموتى الآية " :

* هذا مثال ثالث لولاية الله - تعالى - للمؤمنين واخراجه اياهم
 من الظلمات إلى النور . وهو كالذي قبله من آيات البعث . وأما
 المثال الأول وهو سحابة من أتاه الله الملك لإبراهيم فهو من الآيات
 على وجود الله * (٢)

ويقارب هذا ما قاله الامام الفراهي - رحمه الله - بخصوص تلك الآيات :
 * ذكر ثلاثة أمثلة للاخراج من الظلمات إلى النور ومن النور إلى الظلمات
 الأول لمن يخرج الطافوت من النور إلى الظلمات فان إبراهيم عرض عليه
 النور فأعرض عنه . وقد فعل ذلك من قبل لفروره بالملك فلم يلتفت إلى
 الدلائل الواضحة . والمثال الثاني لمن شك وكان مؤمنا فهداه الله
 - تعالى - والمثال الثالث لمن أراد زيادة اليقين * (٣)

ونحن نميل إلى هذا التأويل ، فان الرابطة في " كالذي " تدفعنا

إليه باصرار وتبعدنا أن نميل إلى غيره .

وكان الأصل - كما سبق معنا - أن تكون العبارة هكذا :

* الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا

-
- (١) تفسير المنار ٤٨/٣ - ٤٩
 (٢) تفسير المنار ٥٣/٣
 (٣) مذكرات الامام الفراهي - مخطوطة

أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مرّ على قرية *

ولكن البلاغة القرآنية الرفيعة عدلت عن هذه العبارة إلى ما هي عليه الآن . حتى طمسها معنى الإنكار والتصجيل من حاج إبراهيم . الإنكار لجراؤمه والتصجيل من غباوته .

يقول صاحب الظلال - رحمه الله - :

" ألم تر ؟ انه تمبير التشنيع والتفتيح . وان الإنكار والاستتكار لهنطلقان من بناء اللفظي وناه المعنوي سواء " . (١)

علما بأن القرآن إنما عدل إلى هذا الأسلوب لأنه لم يكن هناك خوف التباس المعنى من هذا المدول ، فان الرابطة في " أو كالذي مرّ على قرية " كانت تدفع هذا الالتباس . وكانت طمس إلى ما هو المراد .

وكثيرا ما تكون تلك الروابط من الدقة بحيث يكون الباحث مضطرا إلى البحث عن رباطها ولا يهدأ له بال حتى يظفر بتلك الوشائج التي تحمّلها من بين يديها ومن خلفها .

نأخذ - مثلا - قوله - تعالى - :

" أفغير الله أبتغى حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا . والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن ممن المعتدين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا . لا تبدل لكلماته وهو السميع

(١) في ظلال القرآن ٣ / ٢٩

المعلم . وان تطع أكثر من في الأرض يظلوك عن سبيل الله ان يتبعون
 الا الظن وان هم الا يخرصون . ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله
 وهو أعلم بالمصبتين . فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته
 مؤمنين " (١)

فالآية الأخيرة : " فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين " لا نجد لها ارتباطا واضحا بما سبقها من الآيات . ولكن - مع ذلك - هل يسمعنا أن نقول : ان تلك الآية لم تصادف مكانها ، ولا صلة لها بما حولها ؟ وان افترضنا الأمر كذلك فماذا نفعل " بالفاء " في قوله - تعالى - " فكلوا " فان الفاء هذه تدل على صلة وثيقة بما سبقها . وهذا الوضع يقسمنا قسرا على أن نبحث لهذه الفاء عما يرتبط بهما . فان بدأنا البحث وكان البحث بجهد واخلاص ، فلا بد أن يكمل بالنجاح ويسعف بالمراد .
 وبالجملة فتلك الروابط احدى المعالم ، التي تقود الباحث الى رباط الآيات .

الفصل الثامن

تكرار الآيات

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظام ، تكرار آية واحدة في
سورتين أو أكثر .

واليك بعض الأمثلة . قال الله - تعالى - :

(١) " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق
ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم .
لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (١)

تلك الآية جاءت في سورة البقرة ثم تكررت في سورة آل عمران مع فرق
يسير :

" قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق
ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم . لا نفرق
بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (٢)

(٢) قال الله - تعالى - :

" وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله . ذلك بأنهم
كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا
يعصون " (٣)

(١) سورة البقرة : ١٣٦

(٢) سورة آل عمران ٨٤

(٣) سورة البقرة : ٦١

تلك الآية جاءت في سورة البقرة ثم تكررت في سورة آل عمران مع فرق يسير :

" ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس هاءوا وبغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " (١)

(٣) قال الله - تعالى مخاطبا بني اسرائيل :

" وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به . ولا تشكروا بآياتي ثنا قليلا وآياي فاتقون . ولا تطيسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون " (٢)

جاءت هاتان الآيتان في سورة البقرة ثم تكررت في سورة آل عمران مع اختلاف يسير في الأسلوب :

" يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تطيسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ " (٣)

(٤) قال الله - تعالى - :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا " (٤)

(١) سورة آل عمران ١١٢

(٢) سورة البقرة ٤١-٤٢

(٣) سورة آل عمران ٧٠-٧١

(٤) سورة النساء : ١٣٥

جاءت تلك الآية في سورة النساء ثم تكررت في سورة المائدة مع فرق
بمسير :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم
شئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله ان
الله غفور بما تعملون " (١)

(٥) قال الله - تعالى - :

" يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نسوره
ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
على الدين كله ولو كره المشركون " (٢)

جاءت الايتان في سورة التوبة ، ثم تكررتا في سورة الصف هكذا :

" يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .
هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون " (٣)

تلك هي بعض النماذج . ومن بين الكثرة بحيث لا تكاد تخفى على أى
ناظر في القرآن . وتلك الظاهرة ان دلت على شىء ، فهي تدل على أن
هناك مناسبة خاصة وقراءة ماسة بين السورتين أو السور التي جاءت على هذا
الوصف .

(١) سورة المائدة : ٨

(٢) سورة التوبة : ٣٢-٣٣

(٣) سورة الصف : ٨-٩

وهذا القول من الهدامة بحيث لا يحتمل الشك أو المراء . وليس بحاجة
الى أن نسوق عليه الأدلة ، ونضرب له الأشلة .
فإذا مرَّ الباحث على مثل تلك الآيات فليقف عليها وقفة جادة متأملية .
وليلمس المناسبة بين تلك السور التي تحتوى تلك الآيات . فان هذا سيسفر
- بإذن الله - عن وجوه كثيرة من المناسبة بين سورة وأخرى .

الفصل التاسع

التشابه بين نظم آية وسورة

ومن تلك المعالم ، التي تقود الباحث الى النظام ، التشابه بين نظم آية وسورة ، فاننا نجد بمرض السور جاءت على النظم الذي يوجد في آية واحدة . ونجد بمرض السور جاءت على نظم أجزاء آية واحدة . ونجد طائفة من السور جاءت على نظم سورة واحدة . ونجد طائفة من السور كذلك جاءت على نظم جزء من سورة واحدة .

يقول الامام الفراهي - رحمه الله - :

" ترى في آية واحدة ترتيبها وأصلها مثلما ترى في سورة . وكذلك في القصار مثلما تراه في الطوال " (١)

ويقول - رحمه الله - :

" الآية الواحدة تجمع أمورا وربما تتضمن جملا . ولا يسوغ لسلم أن يظن بالآية الواحدة أنها غير منظمة . والتأمل اليسير يكشف عن نظامها . فهذا يصير مثلا وأنموذجا لأمر تجميعها جملة من الآيات . ثم هذا يصير مثلا لما يذكر في جملات طويلة من السورة . ثم تجد نظم سورة مع سورة أخرى مشابه لنظم آيات جملة واحدة ولنظم كلمات آية واحدة . فس أقرب وجود النظم في آية واحدة ولا بد ، فلا بد أن يقر بما يماثله في عدة آيات أو عدة سور " (٢)

(١) أساليب القرآن ص ٤٩

(٢) دلائل النظام ص ٢٨

المثال الأول : فنرى سورة البقرة - مثلا - جاءت على نظم قوله - تعالى - :
 " ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة
 ويزكّيهم انك أنت العزيز الحكيم " (١)

فقد ذكرت في الآية أربعة أعمال أو أربعة أهداف للنبي الذي دعا
 ببعثته ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - وهي :

(١) تلاوة الآيات : والمراد بالآيات هي الدلائل الواضحة والبراهين
 الساطعة على مبادئ عقوبات هذا الدين ، الذي ارتضاه الله
 لعباده .

(٢) تعليم الكتاب . والمراد بالكتاب هي الأحكام والشرايع ، التي شرعها
 الله لعباده .

(٣) تعليم الحكمة . والمراد بالحكمة تلك الآيات التي ترقق القلب وتور
 الذهن وتطهر النفس وتفرس فيها معاني التقوى والخشية والبسذل
 والتضحية والزهد في الدنيا والأقبال الى الآخرة .

وللامام الفراهي - رحمه الله - كلمة قيمة وجعيلة في معنى الحكمة والمراد بها -
 يقول - رحمه الله - : " اذا سمي القرآن كتابا وحكمة معا ، فذلك من جهتين :

- (١) سمي كتابا لكونه مشتملا على الأحكام المكتوبة .
- (٢) وحكمة من جهة اشتغاله على حكمة الشرايع من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة .

(١) سورة البقرة آية ١٢٩

واستدللنا على هذا الفرق من تتبع استعمال الكلمتين مما وما علمنا من استعمال الكتاب للأحكام والحكمة لأصولها .

وتسامح بعض أهل العلم في هذا المقام وتبعهم الامام الشافعي - رحمه الله - وتبعه أكثر المحدثين فظنوا أن الحكمة أريد بها الحديث فان الكتاب كتاب الله فلا بد أن يراد بالحكمة غيره . وشار الخياط أنهم أخطأوا معنى الكتاب حيث جاء مع الحكمة . والدليل على ما قلنا آيات . فمنها قوله - تعالى - :

(١) " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم "

(٢) وهكذا قوله - تعالى - : " وإن ذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات اللس والحكمة "

وكلمة " يتلى " و " أنزل " لم يستعملها القرآن للحديث . نعم ان الحديث ربما يتضمن الحكمة . ولا شك أن الحديث ربما يبين ما في القرآن من الحكمة . ولعل مراد الذين تبعهم الامام - رحمه الله - كان هذا . ولكون الحديث يشتمل على الأحكام كما أنه يشتمل على الحكمة فلا وجه لتخصيمه باسم الحكمة .

وجاء أوضح من ذلك حيث قال - تعالى - بعد ذكر ما قضى من أصول الدين :

" ذلك ما أوحى اليك ربك من الحكمة "

وقال - تعالى - في صفة عيسى :

" وإن علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل "

فسمى التوراة كتابا لأن معظمها الأحكام والانجيل حكمة لما كثر فيسه الدلائل والمواعظ كما قال - تعالى :

" وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة

وهدى وموعظة للمتقين "

فإن الانجيل مشتملا على هدى ونور وهدى وموعظة وعلى قليل من الأحكام

وتصديق التوراة ولغلبة الأمر الأول سمى حكمة .

ويؤيد هذا التأويل قوله - تعالى - :

" ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه " . فاتضح أن تأويل الحكمة الى الأحاديث غير صحيح . وأن اسم الكتاب اذا قرن بالحكمة فالمراد منه الأحكام فلا تنس هذا الفرق ^(١) .

(٤) والشئ الرابع من أهداف بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - هي التزكية . وهي ليست عملا مستقلا . وانما هي كظل ونتيجة لتلك الأعمال الثلاثة .
وهي نعمن النظر في نزل سورة البقرة نجد ما تشتمل على تلك النقاط بالذات على ترتيبها في الآية .

فهي من بدايتها الى الآية ١٢٦ ^(٢) تضم الآيات أى البراهين الساطعة على صحة هذه البعثة المباركة مع محتوياتها .

ثم يبدأ باب الكتاب أى الأحكام والشرائع . وهي تشمل السياسة المدنية والرعاية المنزلية كليهما . وهذا الباب ينتهي بالآية : ٢٤٢ ^(٣) .

ثم يبدأ باب الحكمة وهو يركز على الجهاد والزكاة والاتفاق في سبيل الله والرفق والعدل في المعاملة . ولا يخفى ما لهذه الأمور من تأثير كبير في جلب نور الحكمة . ولقد أشار اليه القرآن في هذا الباب بالذات ، حيث قال :

" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض .

ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأغذية الا أن تفضوا فيه . واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يمدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .
وما يذكر الا أولوا الأبواب ^(٤) .

(١) مفردات القرآن ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) والآية هكذا : " ذلك بأن الله نزل الكتاب الحق . وان الذين اختلفوا فسى الكتاب لفي شقاق بعيد " .

(٣) الآية هكذا : " كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون " .

(٤) سورة البقرة : ٢٦٢ - ٢٦٩ .

وهكذا تنتهي تلك السورة .

أما التزكية فهي - كما قلنا - تسرى في جميع تلك المنود كالروح في الجسم ،

فإنها هي الغاية والهدف . وهي النتيجة والثمره .

يقول الامام الفراهي - رحمه الله - وهو يتحدث عن نظم هذه السورة :

" ترتيب مضمين هذه السورة يطابق قوله - تعالى - :

" يتلو عليهم آياتك وحلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم "

فأتى أولاً بالآيات والدلائل ثم ألقى عليهم الكتاب أي الأحكام ثم علمهم

طريق الحكمة وركاهم بالحث على الزكاة . فنزلها يطابق ما دعا به ابراهيم

- عليه السلام - . وذلك تكون هذه السورة أتم شهورا لاجابة دعائه * . (١)

المثال الثاني :

هذا ، ثم نرى سورة النصر وسورة اللهب جاءتا على نظم قوله - تعالى - :

" جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقا " (٢)

فسورة النصر تمثل الشطر الأول : " جاء الحق " وسورة اللهب تمثل الشطر

الثاني : " وزهق الباطل " .

يقول الامام الفراهي - رحمه الله - :

" اعلم أن سورة اللهب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشّر

به كأنه قيل : قد نصر الله نبيّه وأهلك عدوه . كما قال - تعالى - :

" جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقا " . (٣)

المثال الثالث :

ثم نرى سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وسورة المائدة ، كل هذه

السور جاءت على نظم سورة العصر . فقد ذكرت في هذه السورة أربع صفات عظمى

الترتيب التالي :

(١) مقدمة سورة البقرة - مخلوطة .

(٢) سورة الاسراء : ٨١ .

(٣) تفسير سورة اللهب ١ - ٢ .

(١) الا الذين آمنوا .

(٢) وعطوا الصالحات .

(٣) وتواصوا بالحق .

(٤) وتواصوا بالصبر .

والسور الأربع المذكورة أعلاه أيضا جاءت على نفس الترتيب .

فسورة البقرة سورة الايمان . وسورة آل عمران سورة الاسلام . وهو المراد بالعمل الصالح ولحل هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج منا الى زيادة بيان . ولقد مضى معنا قول الفراهي - رحمه الله - حيث قال :

" سورة البقرة سورة الايمان المطلوب . وهو الايمان ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - فجمعت دلائلها .

وسورة آل عمران سورة الاسلام ، وهو طاعة للنبي - صلى الله عليه وسلم -

فهو أشبه بالسابقة لما أن الاسلام انما هو الجانب الظاهر من الايمان * (١) .

ثم جاءت سورة النساء وهي سورة القسط والمواساة وايفاء الحقوق . فقد بدأت السورة بتلك الوصية ، حيث قال - تعالى - :

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها

وآمنها رجالا كثيرا ونساء * واتقوا الله الذي تسمون به والأرحام . ان الله كان عليكم رقيبا * .

ثم السورة كلها - مع تشعب معانيها - تدور حول هذه النقطة .

ولعل قوله - تعالى - : " وتواصوا بالحق " أيضا يرمي الى تلك النقطة .

ويمكن أن نستأنس هنا بما جاء في سورة البلد حيث قال - تعالى - :

" ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة *

فقرن الصبر مرة " بالحق " ومرة " بالمرحمة " أليس هذا النظم دليلا على

أن " الحق " و " المرحمة " هارتان عن حقيقة واحدة ؟

ثم جاءت سورة المائدة . وهي سورة القيام بالمعهد الالهية ، التي يوجبها المسلم على نفسه منذ دخوله في رعايا الاسلام . فقد بدأت السورة بتلك المطالبة ، بدون أى تمهيد أو مقدمة ، تشبيها على غطورة الأمر وأهميته حيث قال :

" يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود "

ولعل قوله - تعالى - في سورة العصر : " وتواصوا بالصبر " يرس الى تلك الحقيقة . فالمراد بالصبر هو الاستقامة على العهد الذي يبرمه المؤمن ويوجبها على نفسه حين ينتظم في سلك الاسلام . وقد نستأنص لهذا المعنى بما جاء في سورة البقرة حيث قال - تعالى - :

" والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء والصابرين
البأساء (١) "

أى يوفون بعهدهم ويصبرون عليه مهما كانت الظروف . فهم لا يبتغون عهدهم أبدا سوا كانوا تحت وطأة البأساء والضراء أو كانوا يعانون شدة البأس . فالصبر والايقاف بالعقود شيان متلازمان لا يفترقان . وان شئت فقل انهما عبارتان عن معنى واحد . وطى هذا فيمكن أن نقول : ان سورة المائدة توصيصة بالصبر على العهد كما يمكن أن نقول انها توصية بالايقاف بالعقود . تلك هي بعض الأمثلة . ولا شك أنها كانت بحاجة الى توضيح وتفصيل مزيد . ولكن موقنا هذا لا يحتمل أكثر من ذلك .

وعلى كل حال ففي هذه الأمثلة كفاية للاقتناع بأن هناك تشابها واضحا بين نظم الآيات ونظم السور . فمن تأمل في نظم الآيات فيوشك أن تتمهد له السبيل الى نظم سورة ثم الى نظم مجموعات وطوائف من السور حتى يظهر له القرآن كله كأنه سلسلة من ذهب ، متماسكة الملاحظات ، آخذ بعضها بحجز بعض .

تلك هي بعض المعالم البارزة في طريق تتبع النظام . فلو وضعها المباحث
 في اعتباره ثم أمعن النظر في آيات القرآن وسوره ، يمكن أن يتمهد له الطريق
 مع توعره ثم يتسنى له الوصول الى كنوز النظام ونفائس درره .

خاتمة

لقد قطعنا شوطا لا بأس به في طريق دراسة النظام . فالحمد كل الحمد
لربنا ذي الكرم والاحسان . فهو الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدي لولا أن
هدانا الله .

ولقد كنا نريد أن نتنفس في الموضوع ، فالموضوع بحاجة الى خدمة جادة
ودراسة واسعة ، وتغطية شاملة كاملة .

ولكن موقفنا هذا له حدوده وطبيعته ، فهو لا يحتمل أن نرخص للقلم
عنايه ونفيض في الموضوع حتى يبلغ بيانه .

ومع ذلك فلا نقول شديدا اذا قلنا : ان الموضوع قد أصبح الآن حقيقة
واقعة تمشي على قدمين ثابتين . ولم يعد بإمكان شخص أن يقوم فيقول :

" اعلم أن كثيرا من المفسرين جاؤوا بملم متكلف . وخاضوا في بحر لم يكلفوا
سباحته . واستفروا أوقاتهم في فن لا يصود عليهم بفائدة " (١) .

ولكن الذي بقى ، وليس أقل أهمية مما مضى ، هو أن نضع للموضوع أسسه
وجارده . ونعكم أصوله وقواعده ، حتى يمكن علاج ذلك التكلف والتعسف ، الذي
دخل في الموضوع حتى غص من شأنه وأساء الى سمعته ونقر الناس من قدره وأهميته .
فالذين مارسوا هذا الموضوع - وعلى رأسهم الاطام الرازي والامام البقاعي -
لم يجهدوا صنمته ولم يحكموا نسبه . ولحلنا لا نبالغ اذا قلنا ، ان ما نسجه هؤلاء
الأعلام ، معظمه أو هن من بيت العنكبوت .

ثم الذين جاؤوا من بعدهم احتدوا وحذوهم واقتفوا آثارهم وجعلوهم أسوة
وقدوة لهم ، الا قليلا منهم .

وهكذا نشأ الموضوع وتربى في أحضان التكلف ورضع لبانه ، فلم يؤت أكله ،
ولم تظهر للناس ناعده .

ولا بأس بأن نمرّ هنا على نماذج من هذا النوع حتى نكون على بصيرة من
أمرنا ، فنمضي الى غايتنا بكل دقة واحتياط . ولا نكرّر ما تكرّر ممن قبلنا من تفریط
وافراط .

يقول الامام الرازي - رحمه الله - في تفسير سورة الكوثر :

" ان هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة (والضحن) في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته . (أولها) قوله (ما ودعك ربك وما قلى) ، (وثانيها) قوله (وللاخرة خير لك من الأولى) (وثالثها) (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهو قوله (ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى) .

ثم ذكر في سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء (أولها) (ألم نشرح لك صدرك) (وثانيها) (ورفعنا عنك وزرك . الذى انقض ظهرك) ، (وثالثها) (ورفعنا لك ذكرك) .

ثم انه تعالى شرفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف (أولها) أنه أقسم ببلده . وهو قوله (وهذا البلد الأمين) ، (وثانيها) أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله (الا الذين آمنوا) ، (وثالثها) وصولهم الى الشواب وهو قوله (فلهم أجر غير ممنون) .

ثم شرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات (أولها) (اقرأ باسم ربك) أى اقرأ القرآن على الحق مستحينا باسم ربك (وثانيها) أنه قهر خصمه بقوله (فليدع ناديه سندع الروانبة) ، (وثالثها) أنه خصه بالقرية التامة وهو (واسجد واقترب) .

وشرفه في سورة القدر بليلة القدر التى لها ثلاثة أنواع من الفضيلة (أولها)

كونها (خيرا من ألف شهر) ، (وثانيها) نزول (الملائكة والروح فيها) .

(وثالثها) كونها (سلاما حتى مطلع الفجر) .

وشرفه في سورة (لم يكن) بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات . (أولها) أنهم

(خير البرية) (وثانيهما) أن (جزاؤهم عند ربهم جنات) ، (وثالثها) رضا الله عنهم .

وشرفه في سورة اذا زلزلت بثلاث تشریفات : (أولها) قوله (يومئذ نتحدث أخبارها) وذلك يقتضى أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمتها بالطاعة والعبودية (والثاني) قوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور . (ثالثها) قوله (فمن يحمل مثقال ذرة خيرا يره) ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا الى ثوابها ثم شرفه في سورة العاديات بأن أقسم بخيل الفزاة من أمته فوصف تلك الخيل بصفات ثلاث (العاديات خميحا فالموريات قدحا فالمفريات صيحا)

ثم شرفه أمته في سورة التارعة بأمر ثلاثة (أولها) فمن ثقلت موازينه (وثانيها) أنهم في عيشة راضية (وثالثها) أنهم يرون أعداءهم في نار حامية .

ثم شرفه في سورة ألهاكم بأن بين أن الممرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه (أولها) أنهم يرون الجحيم (وثانيها) أنهم يرونها عين اليقين (وثالثها) أنهم يسألون عن النعيم .

ثم شرفه أمته في سورة والعصر بأمر ثلاثة (أولها) الايمان (الا الذين آمنوا) (وثانيها) وعطوا الصالحات (وثالثها) ارشاد الخلق الى الأعمال الصالحة ، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر .

ثم شرفه في سورة المهزلة بأن ذكر أن من حمز ولمز ، فله ثلاثة أنواع من المذاب . (أولها) أنه لا ينتفع بدنياه البتة وهو قوله (يحسب أن ماله أخلسه كلا) (وثانيها) أنه ينبذ في العطمة (وثالثها) أنه يفلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجا في الخروج . وهو قوله (انها عليهم مؤصدة) .

ثم شرفه في سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه في نعرهم من ثلاثة أوجه (أولها) جعل كيدهم في تشليل (وثانيها) أرسل عليهم طيرا أبابيل (وثالثها) جعلهم كعصف مأكول .

ثم شرفه في سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه (أولها)
جعلهم مؤلفين متوافقين لا يلافا قريش (وثانيها) أطعمهم من جوع
(وثالثها) أنه آمنهم من خوف .

وشرفه في سورة الماعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات
الذمومة (أولها) الدناءة واللؤم . وهو قوله (يدع اليتيم ولا يحض على طعام
المسكين) (وثانيها) ترك تعظيم الخالق ، وهو قوله (عن صلاتهم ساهون
الذين هم براؤون) (وثالثها) ترك انتفاع الخلق وهو قوله (ويمضون الماعون) .
ثم انه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ،
قال بعدها (انا أعطيناك الكوثر) أي انا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة
المذكورة في السور المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحدافيرها ،
فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وارشاد عباده الى ما هو الأصلح لهم ، أما
عبادة الرب فاما بالنفس ، وهو قوله (فصل لربك) واما بالمال ، وهو قوله (وانحر)
واما ارشاد عباده الى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم ، فهو قوله (يا أيها
الكافرون لا أعبد ما تعبدون) فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور .
وأما أنها كالأصل لما بعدها فهو أنه تعالى يأمره بمد هذه السورة بأن يكفر
جميع أهل الدنيا بقوله (يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) ومعلوم
أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم
وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم . فلا جرم كان الطعن فسي
مذاهب الناس يثير من المداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن . فلما أمره بأن
يكفر جميع أهل الدنيا ، ويحلل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية
المداوة له ، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر الى
موسى عليه السلام كيف كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فان محمدا عليه
السلام لما كان صحوثا الى جميع أهل الدنيا كان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة
اليه ، فدبر تعالى في ازالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً وهو أنه قدم على

تلك السورة ، هذه السورة فان قوله (انا أعطيناك الكوثر) أى الخير الكثير
فى الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعدا من الله اياه بالنصرة والحفظ ، وهو كتوليه
(يا أيها النبي حسبك الله) وقوله (والله يمصمك من الناس) وقوله (الا تنصروه
فقد نصره الله) ومن كان الله تعالى ضامنا لحفظه ، فانه لا يخشى أحدا .
(وثانيها) أنه تعالى لما قال (انا أعطيناك الكوثر) وهذا اللفظ يتناول
خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن غيرات الدنيا ما كانت واصلة اليه حين كان
بمكة ، والخلفا فى كلام الله تعالى محال ، فوجب فى حكمة الله تعالى ابقائه
فى دار الدنيا الى حيث يصل اليه تلك الخيرات . فكان ذلك كالبشارة له والوعد
بأنهم لا يقتلونه ولا يقهرونه ولا يصل اليه مكرهم بل يصير أمره كل يوم فى الأزد ياد
والقوة (وثالثها) أنه عليه السلام لما تكفروا وزيفوا أديانهم ودعاهم الى الايمان
اجتمعوا عنده ، وقالوا ان كنت تفعل هذا طلبا للمال فنعطيك من المال ما تصير به
أغنى الناس ، وان كان مملوكك الزوجة تزوجك أكرم نساءنا وان كان مملوكك الرئاسة
فنحن نجعلك رئيسا على أنفسنا فقال الله تعالى (انا أعطيناك الكوثر) أى لما أعطاك
خالق السموات والارض خيرات الدنيا والآخرة فلا تفتربما لهم ومراعاتهم (ورابعها)
أن قوله تعالى (انا أعطيناك الكوثر) يفيد أن الله تعالى تكلم معه بغير واسطة .
فهذا يقوم مقام قوله (وكلم الله موسى تكليما) بل هذا أشرف لأن المولى اذا شافه
عبده بالتزام الترية والاحسان كان ذلك أعلى مما اذا شافه فى غير هذا المعنى .
بل يفيد قوة فى القلب ويزيل الجبن عن النفس . فثبت أن مخاطبة الله اياه بقوله
(انا أعطيناك الكوثر) مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس . فقدم هذه
السورة على سورة (قل يا أيها الكافرون) حتى يحكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق
والاقدام على تكفير جميع العالم ، واظهار الجراءة عن معبودهم . فلما امتثلت أمرى
فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشباع ، أن أهل الدنيا
يدخلون فى دين الله أفواجا، ثم انه لما تم أمر الدعوة واظهار الشريعة شرع فى
بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن . وذلك لأن الطالب اما أن يكون طلبه مقصورا

على الدنيا أو يكون طالبا للأخرة ، أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهبوان ثم يكون مصيره الى النار ، وهو المراد من سورة تبت وأما طالب الآخرة فاعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور المعبودات . وقد ثبتت في العلوم العقلية أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع ، ثم توسل بمعرفته الى معرفة مخلوقاته . وهذا هو الطريق الأشرف الأعلی ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم انه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقين ، فبدأ بذكر صفات الله وشرح جلاله ، وهو سورة (قل هو الله أحد) ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة (قل أعوذ برب الفلق) ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الانسانية . وعند ذلك ختم الكتاب * (١) .

رحم الله الامام الرازي ؛

فقد جاء بكلام كله من قبيل تحميل النص ما لا يحتمله النص وما لم يخطئ به صاحب النص .

ولقد كنا نقرأ أن شخصا يدعى عبد الوهاب البخاري ألف تفسيرا رجع فيه المطالب القرآنية أكثرها ، بل كلها الى مناقب النبي - صلى الله عليه وسلم - وسين فيه أسرار المحبة ودقائق الوجد والضرام (٢) فكانت تعجب من عقلية ذاك الرجل كما نتعجب الآن من كلام الامام الرازي - رحمه الله - .

فأى علاقة لهذه السور بمدح الرسول وتشريفه - عليه السلام - ؟ !

ولو أن الامام الرازي - رحمه الله - اعترف بمجزئه عن ادراك نظم هذه السور بدلا من أن يتمحل هذا القول لكان غيرا له وأقوم ، فانه لم يكن مطالبا بأن يتكسف النظم اذا استمعص عليه .

(١) التفسير الكبير للامام الرازي ٣٢/١١٨-١٢١ .

(٢) نزهة الخواطر للشيخ عبد المحسن الحسني ٤/٢٢٣ . الدليمة الثانية ١٣٦٣ هـ - دائرة المعارف - الهند .

ولا يفوتنا التنبيه على أن النظم ليس عبارة عن ربط الآيات أو السور بأى نوع من الرباط ، حتى ولو كان وادعيا ضعيفا .

وانما النظم عبارة عن رباط الأمور لمقصد وغاية . وكلما ظهر لك النظم فلابد أن تكون معه ظلال من النور والحكمة ، أما النظم الذى يطمس للنور ويمسح بالكلام من بهاء الحكمة فليس من النظم فى شئ* .

فترى - مثلا - تلك السور التى جاءت على غاية الحسن والروعة والجمال .
والتي يصلح - بحق - أن يقال عنها : انها أحسن بكثير وأجمل فى مكانها مسن
بيضة فى روضة غبّ سارية والشمس متكبّدة (١) . ترى هذه السور بالذات حين تناولها
الامام الرازى - رحمه الله - بابرار نظمها فكأنها تمطّل جيدها وزال عنها حسنها .

والمقام لا يحتمل أن نطيل الوقوف على تلك السور ونصدي لابرار حسناتها
وجمالها من ناحية نظمها ، فانه يحددنا عن الموضوع . ولقد مضى الكلام على نظم
السور المشر الأخرى فى الفصل الثانى من الباب الثالث كما سبق معنا الكلام على نظم
سورة القمر من ناحيتها البلاغية فى الفصل السادس من الباب الثالث كذلك . وفيه
كفاية لمن أراد أن يفهم الموضوع .

وانما قصدنا هنا أن نعرفنا أن الذين تعاطوا هذا الموضوع ، أكثرهم لم
يتعاطوه بجيد . فقد عرفنا أننا وضع الامام الرازى - رحمه الله - فى تعاطيه هذا
الموضوع ، كما عرفنا وضع الامام البقاعى - رحمه الله - فى ضوء نماذج من تفسيره فى
الباب الأول . وفيها غنية لمن أراد أن يعرف الموضوع .

نحن لا ننكر تلك القلة القليلة الموفقة من عرفوا لهذا الموضوع حقّه ، وتعاطوه
بكل دقة وجيد . وعلى رأسهم الامام عبد الحميد الفراضى - رحمه الله - فقد أحسن

(١) سئل شيخ عن أحسن ما رآه فقال : " بيضة فى روضة غبّ سارية والشمس متكبّدة " (المستقصى فى أمثال الحرب ١/١٧) .

وأجاد ورزق في هذا الضمار وحاز شأ والسبق واستولى على غاية الأمد . ثم الذين جاؤوا من بعده ولحقوه في موكبهم مثل الشيخ عبد الله دراز والأستاذ الامام سيد قطب - رحمهم الله - فلا شك أن لهم في هذا الموضوع جهودا مشكورة ، لا تنسى ما اختلفا الجديدان .

ولكن مع ذلك فالأظبية من الناس - ممن خاضوا هذا البحر - لم يحسنوا سباحته و جاؤوا في الموضوع بتكلفات وتحسفات يصير الحلیم فيها حيران .

ولعل السبب في ذلك أنهم - رحمهم الله - زعموا علم المناسبات موكبولا الى قريحة الانسان وطبيعته . فهو يلتصق تلك المناسبات ويأخذها كيفما خطرت بباله غير متكيد بأصول التأويل وقواعده .

والهيك نموذج آخر ذكره الامام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره . فلعله يكون أدق تصويرا لطبيعة الحال . يقول - رحمه الله - في تفسير قصة داود في سورة ص : " قال الترمذی : ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله :

" ربنا عجل لنا قتلنا " والتأني الصحيفة في اللفظة ؛ وذلك أن رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - تلا عليهم " فأما من أرتى كتابه بيمينه " وقال لهم " انكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تحطونها بشمائلكم " فقالوا : " ربنا عجل

لنا قتلنا " أي صحيفتنا " قبل يوم الحساب " قال الله تعالى : " اصبر على ما يقولون واذكر عهدنا داود ذا الأيد " فقص قصة خطيئته التي منتهاها فكنت أقول : أمره

بالصبر على ما قالوا . وأمره بذكر داود فأى شيء يريد من هذا الذكر ؟ وكيف اتصل هذا بذلك ؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه ، حتى هداني الله له يوما فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعملون كتبهم بشمائلهم ، فيها ذنوبهم وخطاياهم

استهزأ بأمر الله ، وقالوا : " ربنا عجل لنا قتلنا قبل يوم الحساب " فأوجبه ذلك من استهزائهم فأمره بالصبر على مقالاتهم ، وأن يذكر عده داود ، سأل تعجيل خديئته

أن يراها منقوشة في كفه فنزل به ما نزل من أنه كان اذا رآها اضطرب وامتلأ
القدح من دموعه ، وكان اذا رآها بكى حتى تنفذ ^(١) سبعة أفرشة من الليف معشوة
بالرماد ، فانما سألها بعد المخفرة ومد ضمن تبعه الخضم ، وأن الله تبارك
وتعالى اسمه يستودبه منه ، وهو حبيبه ووليّه وصفيّه فرؤية نقش الخطيئة بصورتها
مع هذه المرتبة صنعت به هكذا ، فكيف كان يحلّ بأعداء الله ومعصاته من خلقه
وأهل خزيمه ، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا الى صورة تلك الخطايا التي عملوها
على الكفر والجحود ، وماذا يحلّ بهم اذا نظروا اليها في تلك الصحائف وقد أخبر
الله عنهم فقال : " فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب
لا يفاد رصغيرة ولا كبيرة الا أعصاهما " فداؤد - صلوات الله عليه - مع المففرة
والبشرى والمطفلم يقيم لرؤية صورتها . وقد روينا في الحديث : اذا رآها يوم
القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له ها هنا ، ثم يرى فيقلق ثم يقال له ههنا ،
ثم يرى فيقلق حتى يقرب فيسكن ^(٢) .

كم يمجيب الباحث حين يفاجأ بمثل هذا النظم ثم يرى علما من أعلام

التفسير قد اطمأن اليه وفتح له ذراعيه !

فقد يطمئن الانسان الى عدم وتوفه على النظم بناء على صوته ووعورة
دلريقه ولكن كيف يدلمئن الى مثل هذا النظم الحالك المظلم ، الذي لا يرى فيه
بصيص من نور ! ! ^(٣)

(١) لعل الأصل حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣) لقد أسلفنا الكلام على نظم تلك الآيات بشي * من التفصيل في الفصل التاسع
من الباب الثالث فيحسن استحضاره .

ولعمل المسرّ في ذلك كله شرّ أنهم - رحمهم الله - لم يعتمدوا في أخذهم
 واستنباطهم على أسس وتواعد ثابتة . فذاتوا أقرب حالا إلى انسان يسير في طريق
 وعرض شاقّ فيه مرتفعات ومنحدرات ولا يرافقه دليل ولا خبير . فالنتيجة
 معلومة . حيرة في حيرة . وعشرة بعد عشرة !

فالموقف يفرض علينا أن نضع أسسا ومعايير يرجع إليها الباحث عند اللزوم
 حتى يطمئن إلى النظام الصحيح الراجح من النظم المتكسّفة المرجوح .

كما يفرض علينا أن نتبنّى هذه الفكرة - فكرة النظام ، ونطبّقها تطبيقاً
 كاملاً على كل القرآن حتى نستخرج ما أودع فيه من كنوز العلم ولطائف الحكم .

منى ان تكن حقا تكن أحسن العنى * والا فقد عشنا بها زمنا رغدا .

مراجع البحث

- ١ - القرآن العظيم .
- ٢ - جامع البيان في تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبري . دار المعرفة - ١٣٩٨ هـ .
- ٣ - الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي . دار احيا التراث العربي .
- ٤ - تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير . دار الفكر . بيروت .
- ٥ - فتح القدير للإمام الشوكاني . دار الفكر . الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ .
- ٦ - روح المعاني للإمام الألوسي . دار احيا التراث العربي .
- ٧ - تفسير أبي السعود للإمام أبي السعود . مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بيدان الأزهر .
- ٨ - التفسير الكبير للإمام الرازي . دار الكتب العلمية . طهران .
- ٩ - زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي . المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ .
- ١٠ - تفسير مجاهد . تحقيق عبد الرحمن السورتى . مطابع الدوحة الحديثة .
- ١١ - انوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوى . طبعة ثانية ١٣٨٨ هـ ، مطبعة مصطفى البابى بحصر .
- ١٢ - تفسير النسفى للإمام عبد الله النسفى . دار احيا الكتب العربية . عيسى البابى الحلبي وشركاه .
- ١٣ - غرائب القرآن و غرائب الفرقان . للإمام النيسابورى . الأميرية ١٣٢٣ هـ .
- ١٤ - الكشاف عن حقائق التنزيل . للزمخشري . دار المعرفة للطباعة والنشر .
- ١٥ - لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن . دار الفكر . بيروت .
- ١٦ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . للقاضي ابن عطية الأندلسي . تحقيق المجلس العلمي بفاس ١٣٩٥ هـ .

- ١٧- عمدة التفسير للحافظ ابن كثير تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف مصر ١٣٧٦ هـ .
- ١٨- البحر المحيط للإمام أبي عيان . مطابع النصر الحديثة ، الرياض .
- ١٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي . دائرة المعارف العثمانية . الهند .
- ٢٠- تفسير المنار للأستاذ رشيد رضا . دار المعرفة . الطبعة الثانية .
- ٢١- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، دار احياء التراث العربي .
- ٢٢- تفسير سورة الكوثر للإمام الفراهي . مطبعه معارف . الهند .
- ٢٣- تفسير سورة القيامة للإمام الفراهي . مطبع فيض عام . الهند .
- ٢٤- تفسير سورة اللهب للإمام الفراهي . مطبعة معارف . الهند .
- ٢٥- مذكرات القرآن للإمام الفراهي (مخطوط) .
- ٢٦- البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .
- ٢٧- الاتقان في علوم القرآن . للإمام السيوطي . المكتبة الثقافية . بيروت ١٩٧٣ م .
- ٢٨- كتاب المفوائد للإمام ابن القيم . دار نشر الكتب الاسلامية . باكستان .
- ٢٩- مقدمة في أصول التفسير للإمام ابن تيمية . تحقيق عدنان زوزور . الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ .
- ٣٠- أسباب النزول للواحدى . دار الكتب العلمية . بيروت ١٣٩٥ هـ .
- ٣١- لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي . دار احياء العلوم . بيروت .
- ٣٢- مشكلات القرآن الكريم للشيخ محمد عبده . دار مكتبة الحياة .
- ٣٣- النبأ العظيم للدكتور دراز دار القلم . الكويت ١٣٩٠ هـ .
- ٣٤- فاتحة تفسير نظام القرآن للفراهي مطبعة اصلاح . الهند ١٣٥٧ هـ .
- ٣٥- دلائل النظام ، للفراهي ، الدائرة الحميدية ومكتبتها . الهند ١٣٨٨ هـ .
- ٣٦- التكميل في أصول التأويل ، للفراهي ، الدائرة الحميدية ومكتبتها . الهند ١٣٨٨ هـ .

- ٣٧- أساليب القرآن ، للفراهي ، الدائرة الحميدية ومكتبتها . الهند ١٣٨٩ هـ .
- ٣٨- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للفراهي مطبعة معارف . الهند ١٣٣٨ هـ .
- ٣٩- نظرات في القرآن ، للإمام حسن البنا ، مكتبة الاعتصام ١٣٩٩ هـ .
- ٤٠- التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبي . دار الكتب الحديثة . ١٣٩٦ هـ .
- ٤١- صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر ، ١٣٨٩ هـ .
- ٤٢- صحيح البخاري مع فتح الباري دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت .
- ٤٣- موطأ الامام مالك . تصحيح وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار احياء التراث العربي - بيروت .
- ٤٤- سنن أبي داود . نشر وتوزيع : محمد علي السيد . حمص .
- ٤٥- السنن الكبرى للإمام البيهقي . دار الفكر . بيروت .
- ٤٦- صحيح ابن خزيمة . تحقيق مصطفى الأعظمي . المكتب الاسلامي - بيروت .
- ٤٧- مسند الامام احمد بن حنبل . المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .
- ٤٨- شرح السنة للإمام البخوي . المكتب الاسلامي .
- ٤٩- جامع الأصول لابن الأثير ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ .
- ٥٠- شرح ثلاثيات مسند الامام احمد للسفارينى . الطبعة الثانية . المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .
- ٥١- الترغيب والترهيب للمنذرى . دار احياء التراث العربي . بيروت .
- ٥٢- التاج الجامع للأصول . الطبعة الرابعة ١٣٩٥ هـ .
- ٥٣- فتح الباري للإمام المسقلاني . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت .
- ٥٤- زاد المعاد للإمام ابن القيم . توزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد .
- ٥٥- الروض الأنف للسهيلى . مكتبة الكليات الأزهرية .
- ٥٦- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير . مكتبة المعارف . بيروت ١٩٦٦ م .

- ٥٧- الموافقات للإمام الشاطبي . تحقيق الدكتور دراز . الطبعة الثانية
١٣٩٥ هـ .
- ٥٨- احيا علوم الدين للإمام الشزالي . دار المعرفة للطباعة والنشر .
- ٥٩- اغاثة المهفان لابن القيم . تحقيق محمد حامد الغنى . دار المعرفة
للطباعة والنشر .
- ٦٠- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق فوزى عطوى . الشركة اللبنانية للكتاب .
بيروت .
- ٦١- العمدة لابن رشيقي . تحقيق محمد سحى الدين عبد الحميد . دار الجيل .
الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
- ٦٢- تاريخ ابن خلدون لعبد الرحمن ابن خلدون ١٣٩١ هـ .
- ٦٣- زهر الآداب للقيرواني دار الجيل - بيروت . الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
- ٦٤- جمهرة أشعار الحرب لأبى زيد القرشى . دار بيروت للطباعة والنشر .
- ٦٥- جمهرة خطب الحرب . دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت .
- ٦٦- ديوان الخنساء . ، دار بيروت للطباعة والنشر .
- ٦٧- ديوان زهير بن أبى سلمى ، دار بيروت للطباعة والنشر .
- ٦٨- المستقصى فى أمثال الحرب للزمخشري . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٦٩- تاريخ الأدب العربى للدكتور عمر فروخ عضو مجمع اللغة العربية فى القاهرة .
دار العلم للملايين .
- ٧٠- القاموس المحيط للفيروزآبادى . المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت .
- ٧١- جمهرة البلاغة للفراهي . مطبعة معارف . الهند . ١٣٦٠ هـ .
- ٧٢- نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده . دار المعرفة للطباعة والنشر .
- ٧٣- مفردات القرآن للإمام الفراهي . مطبعة اصلاح - الهند . ١٣٥٨ هـ .
- ٧٤- قواعد التحديث للشيخ محمد جمال الدين القاسمى . تحقيق وتعليق : محمد
بهجة البيطار ، دار احيا الكتب العربية . الطبعة الثانية . ١٣٨٠ هـ .

الفهرس

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>	
١		مقدمة
٩		بين يدي البحث
١٠	شواهد من كتب التفسير	
١٦	تقويم الوضع	
١٨	زرّ كهرمانى	
١٩	مقال خايطىء لأحمد أمين	
٢٠	فلتة للشيخ الذهبى	
٢١	لفتة موفقة للامام الفراهى	
٢٣	النظام فى القرآن وما قيل فيه من نفى واثبات.	الباب الأول :
٢٤		الفصل الأول :
٢٤	ما هو النظام ؟	
٢٤	النظام فى القرآن	
٢٥	الرباط والمناسبة	
٢٧	أقوال العلماء واتجاهاتهم فى موضوع النظام	الفصل الثانى :
٢٧	مسلم بن يسار	
٢٧	العلامة الزمخشرى	
٢٧	الامام الرازى	
٢٨	الشيخ الزمطكانى	
٢٩	أبو بكر بن الصرى	
٢٩	الشهرابانى	
٢٩	ولى الله الطوى	
٣٠	الامام الزركشى	
٣٠	الامام البقاعى	
٣١	الامام الشاذلى	
٣٢	الامام ابن القيم	

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>	
٢٢	الامام عبد الحميد الفراهي	
٢٣	الشيخ دراز	
٢٦	الامام سيد قطب	
٢٧	موقف الامام الشوكاني	
٤٠	الشوكاني ليس معارضا للمناسبة	
٤٣	الامام الشوكاني ينكر التكلف	
٤٤	نماذج من النظام المتكلف	
٤٨	واجبنا نمو وجهود السلف	
٤٩	عذر الامام الشوكاني	
٥٠	موقفه موقف الشيخ عز الدين	
٥٠	هل لهذا الموقف من أساس ؟	
٥٢	شبهات حول النظام	الباب الثاني :
٥٤	الشبهة الأولى وتقويمها	الفصل الأول :
٥٥	نموذج للنظام في آيات تضم أمورا مختلفة	
٦٠	موقفا عجيب للامام الشوكاني	
٦٦	كلمة موفقة للامام الزركشي	
٦٧	طلب المناسبة ليس تكلفا	
٦٨	دلائل من الآثار	
٦٩	قول وجيه لابن خلدون	
٧٠	هل طلب المناسبة تكلم بالرأى	
٧١	التفسير بالرأى كما يراه الفزالي	
٧٢	النهي على أحد وجهين	
٧٤	رأى الامام ابن تيمية	
٧٤	لفتة هامة للفراهي	
٧٥	حقائق في ضوء النصوص	
٧٦	النور نور وليس ظلما	

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>	
٧٨	الشبهة الثانية وتفويها	الفصل الثاني :
٧٨	جمع القرآن وتدوينه في ضوء القرآن	
٧٩	استنباطات قيّمة من القرآن	
٨١	حكمة طلب الشهود ممن يأتي بآية	
٨٢	روايات في أن ترتيب الآيات من عند الله	
٨٥	حقائق في ضوء الروايات	
٨٦	اجتماع الأمة على أن ترتيب الآيات من عند الله	
٨٨	ترتيب السور توقيفي	
٨٩	نظم السور دليل على أنه توقيفي	
٩٠	روايات في أن ترتيب السور توقيفي	
٩٣	شبه اجتماع على أن ترتيب السور توقيفي	
٩٦	الشبهة الثالثة وتفويها	الفصل الثالث :
٩٧	شبهة لا يقرها الواقع	
٩٧	اهتمام العرب بحسن النظام	
٩٩	كلمة جميلة لابن رشيقي	
١٠١	حجة واضحة للأصمعي	
١٠٢	الارتجال من سجية العرب ولا عجب	
١٠٤	منشأ فكرة الاقتضاب	
١٠٥	ولو العرب بايجاز الكلام	
١٠٦	كلمة لابن القيم	
١٠٧	الحذف في كلامهم يشبه كلامهم بالوثائق	
١٠٨	الاقتضاب في كلام العرب وأسبابه	
١١١	كبوة إلى كبوة	
١١٢	قصة آدم وربدها بما بعد ما	
١١٥	تنبيه على وهم	
١١٨	مزايا تتبع النظام	الباب الثالث :
١٢١	المزية الأولى	الفصل الأول :
١٢٢	المذهب الأول	
١٢٤	المذهب الثاني	

صفحةالموضوع

١٢٥	المذهب الثالث
١٢٧	المذهب الرابع
١٢٨	المذهب الخامس
١٣٢	المذهب السادس
١٣٥	ما هو موقفنا ؟
١٣٦	المذهب السابع
١٣٩	كلمة الامام البقاعي
١٤١	كلمة الشيخ محمد عبده
١٤٣	تأويل الآيات في ضوء نظام السورة
١٥٣	الحزبة الثانية
١٥٣	الوجه الواردة في تأويل " الفجر "
١٥٤	الوجه الواردة في " ليال عشر "
١٥٤	الوجه الواردة في " الشفع والبرق "
١٥٦	الوجه الواردة في " والليل اذا يسر "
١٥٧	الوجه الواردة في تأويل الكوثر
١٥٨	كيف نعرف الوجه الصحيح ؟
١٦٠	موقفنا عند من المفسرين وعمدتهم في الترجيح .
١٦١	سؤال .
١٦٢	انتباه الامام الأئوس
١٦٣	ما هو الأساس ؟
١٦٤	نظام سورة الكوثر وما جاورها من السور
١٧٠	بقية السور تكلمة لسورة الكوثر
١٧٧	الحزبة الثالثة
١٨٠	مثال لانفجار المعاني بعد تتبع النظام
١٨١	مثال آخر
١٨٦	وبينه المناسبة بين الصلاة والنحر .
١٨٦	الوجه الأول
١٨٩	الوجه الثاني

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١٩١	الوجه الثالث
١٩٤	الوجه الرابع
١٩٥	الوجه الخامس
١٩٦	الوجه السادس
١٩٦	الوجه السابع
١٩٧	الوجه الثامن
١٩٩	الوجه التاسع
٢٠١	الوجه العاشر
٢٠٢	الوجه الحادى عشر
٢٠٣	الوجه الثانى عشر
٢٠٤	لفتة بارعة
٢٠٧	المريّة الرابعة
٢٠٧	الجهة الأولى
٢٠٩	الجهة الثانية
٢١٠	الجهة الثالثة
٢١٢	الجهة الرابعة
٢١٣	الجهة الخامسة
٢١٤	الجهة السادسة
٢١٨	المريّة الخامسة
٢١٩	الامام ابن جرير
٢١٩	الامام الرازى
٢٢٠	الامام الأوسى
٢٢١	الامام أبو حيان
٢٢٢	الامام النيسابورى
٢٢٣	الامام القرطبى
٢٢٥	حقائق فى ضوء الآيات
٢٢٥	الحقيقة الأولى
٢٢٦	الحقيقة الثانية

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٢٢٨	الحقيقة الثالثة
٢٢٩	الحقيقة الرابعة
٢٣٠	الحقيقة الخامسة
٢٣١	الحقيقة السادسة
٢٣٢	الحقيقة السابعة
٢٣٢	لغات بارعة للامام الفراهي
٢٣٥	كلمة مؤفّقة لفضيلة الشيخ عبد الله د راز
٢٣٦	وحى هذه الآيات بطبيعتها
٢٣٧	المراد بالكتمان في الآية الثانية ونظام ما سبقها من الآيات
٢٤٣	المزية السادسة
٢٤٥	براعة الاستهلال
٢٤٨	روعة الالتفات
٢٤٨	حسن العقابلة
٢٥٠	ندرة الاستدلال
٢٥٢	عجيب الاستدراج
٢٥٢	براعة التخلّص
٢٥٣	سرعة الالتفات
٢٥٤	براعة الترجيع
٢٥٦	تميّز وتماثل
٢٦٠	براعة الترتيب في القصص
٢٦٣	براعة المقذّع
٢٦٩	المزية السابعة
٢٦٩	الشاهد على هذه المزية
٢٧١	شاهد آخر
٢٧٣	المزية الثامنة
٢٧٣	أقوال في سبب النزول
٢٧٤	سؤال في سبب النزول

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

صفحةالموضوع

٢٧٤	الرد على هذا السؤال	
٢٧٦	نقاد لا تفنى بالحاجة	
٢٧٧	سبب نزول الآية * نساؤكم حرث لكم *	
٢٧٨	انتقض قول السيوطي بقوله	
٢٧٩	تأمل في نظم الآية	
٢٨٤	نظرة على سبب النزول في ضوء هذا النظم	
٢٩١	جماع القول	
٢٩٢	مقال خاطي * للواحدى	
٢٩٣	نموذج لما ذكره الواحدى من أسباب النزول	
٢٩٥	نظرة في الآيات في ضوء نظامها	
٢٩٨	شهادة الحادى نفسه	
٢٩٩	نكتة أخرى	
٣٠١	نموذج آخر	
٣٠٢	تعقيب السيوطي	
٣٠٢	لفتة الى مقال السيوطي	
٣٠٥	موقف الفراهي من سبب النزول	
٣٠٧	المزية التاسعة :	الفصل التاسع :
٣٠٧	مثال تنبيه النظم على مواضع الضعفاء في الرواية	
٣١٩	هفوة للامام القرطبي	
٣٢٠	كلمة للامام ابن كثير بخصوص هذه الآيات	
٣٢٠	مثال آخر	
٣٢١	تحقيق معنى الجسد	
٣٢٢	لفتة الالتقاء و اضافتها الى ضمير الجلالة	
٣٢٣	تأويل الآيات كما يوسى الينا النظام	
٣٢٥	المزية العاشرة :	الفصل العاشر :
٣٢٧	صل الحادى عشر : المزية الحادية عشرة	
٣٢٨	ب الرابع :	معالم في الطريق :

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٣٣٩	تكرار القصص : الفصل الأول :
٣٤١	قصة آدم في سورة البقرة
٣٤٣	قصة آدم في سورة الأعراف
٣٤٧	قصة آدم في سورة الحجر
٣٤٩	قصة آدم في سورة الاسراء
٣٥٠	قصة آدم في سورة الكهف
٣٥٣	قصة آدم في سورة طه *
٣٥٥	قصة آدم في سورة ص *
٣٥٨	تشابه الآيات : الفصل الثاني :
٣٦٣	الحدود على الهدى : الفصل الثالث :
٣٦٩	الاتحاد في الفواتح والأسماء : الفصل الرابع :
٣٧٢	الاتحاد في اللون : الفصل الخامس :
٣٧٣	تكرار كلمات خاصة : الفصل السادس :
٣٧٦	دلالة الروابط : الفصل السابع :
٣٨٢	تكرار الآيات : الفصل الثامن :
٣٨٦	التشابه بين نظم آية وسورة : الفصل التاسع :
٣٩٤	خاتمة :
٤٠٥	مراجع البحث :